دراسات
فى
الأنثروبولوجيا الثقافية

تأليف

الدكتور
فوزى عبد الرحمن
استاذ علم الاجتماع
والانثروبولوجيا المساعد
كلية البنات جامعة عين شمس

الدكتور
على المكاوى
استاذ علم الاجتماع
والأنثروبولوجيا المساعد
كلية الآداب جامعة القاهرة

مؤسسة الاهرام
القاهرة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن آياته خلق السموات والأرض
واختلاف السنتكم والوانكم
ان فى ذلك لآيات للعالمين »
صدق الله العظيم
(الروم — الآية ٢٢)

الاهـــداء :

الى كل عـــربى حريص على توظيف العـــلم

فى تأصـــيل الهوية الثقافية العربيـــة ٠

المحتـــويات

الموضوع | الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيـــم

مقـــدمة

الثقافة اطار عام وشامل يجمع كل أنماط السلوك المكتسبة ، والذى يدور حول علاقة الانسان بالانســـان ، وعلاقته بالمادة ، وبالأفكار • هى اذن طريقة حيـــاة • وعلى هذا يدور هذا الكتاب حول الأنثروبولوجيا الثقافية التى تتخذ من الثقافة مجالا لها •

والواقع أن علم الأنثروبولوجيا الثقافيـــة يعد أحد الفروع الهامة ـــ لعلم الأنثروبولوجيا ـــ حيث يركز على بناء الثقافات البشرية ، وأدائها لوظائفها فى كل زمان ومكان • ومن ناحيـــة أخرى تكشف لنا الثقافة عن استجابات الناس نحو مشكلات البيئة الطبيعية ، وتفاعلات الانسان فى الحياة والعمل • وتعد الثقافة ظاهرة انسانية ، كما يعتبر انتاج الثقافة أهم خصائص الانسان التى تميزه عن سائر الكائنات الأدنى •

وعلى هذا تحاول دراستنا الحالية ابراز دور الأنثروبولوجيا الثقافية فى دراسة الثقافة ، وتحديد ملامحها وخصائصها ، وتغيرها ، وأهم عوامل هذا التغير وأنماطه ، والقاء الضوء على ثقافتنا العربيـــة وموقعها على خريطة التغير • ولعل النظرة المستقبلية تملى علينا ضرورة فهم ثقافتنا الراهنـــة ، وتحديد أى عناصرها التى تتغير وأيها التى تصمد فى وجه التغير •

وفى ضـــوء هذا الاطار ، كانت محتويات تلك الدراسة التى تتكون من بابين يضمان ثمانية فصول • أما الباب الأول فهو يتناول الاتجاهات النظرية فى دراســـة الثقافة ويحوى ثلاثة فصول • يحدد الفصل الأول « مجال الأنثروبولوجيا وفروعها » بنحو عام ، ويعرض الفصل الثانى

« لنظريات الثقافة » بالتفصيل • أما الفصل الثالث فقد تصدى لتحديد « خصائص الثقافة » •

أما الباب الثانى فهو يعالج « الثقافة والتغير فى المجتمع العربى : دراسات واقعية » أجراها أبناء المجتمع العربى من الأنثروبولوجيين • ويتضمن هذا الباب خمسة فصول تدور حول دراسات أنثروبولوجية ثقافية أجريت على مجتمعات الجزائر ومصر والخليج العربى وقطر • أما الفصل الرابع فقد خصصناه لتوضيح « التغير الثقافى : الأنماط والعوامل » ، والفصل الخامس يعرض « للاتصال الثقافى بين الثقافتين الجزائرية والفرنسية» • بينما يستعرض الفصل السادس «الثقافة المصرية والتنشئة الاجتماعية » فى مصر • على حين يتناول الفصل السابع ملامح « الثبات والتغير فى ثقافة مجتمع الخليج » بصفة عامة • وأخيرا يأتى الفصل الثامن ليتناول معالم « الثبات والتغير فى ثقافة المجتمع القطرى » •

وعلى الرغم من الطابع الجماعى لهذه الدراسة ، الا أنها نتاج لتقسيم العمل بين المؤلفين ، بحيث تولى الدكتور فوزى عبد الرحمن اعداد الفصول **الثانى والثالث والخامس والسادس** • بينما اضطلع الدكتور على المكاوى باعداد الفصول **الأول والرابع والسابع والثامن** • والله نسأل أن يكون التوفيق حليفنا فى هذه المحاولة المتواضعة للتعريف بهذا العلم ، ومجالاته واهتماماته ونماذج من دراساته من أجل فهم ثقافتنا العربية •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلفان

الباب الأول

الاتجاهات النظرية

في دراسة الثقافة

الفصل الأول

مجال الأنثروبولوجيا وفروعها

الفصـــل الأول

مجال الأنثروبولوجيـــا وفروعها

أولا : معنى المصطلح واستخدامه :

ترجع كلمة الأنثروبولوحيا Anthropology أساســا الى كلمة يونانية الأصل تتكون من مقطعين أولهما Anthropos وتعنى الانسان ، والثانى Logy أو Logos أو Logia ويعنى العلم • وبهذا تعنى هذه الكلمة الأجنبية فى اللغة العربية (علم الانسان) •

الا أننا حينما نستخدم الكلمة العربية المقابلة — أى علم الانسان — للمصطلح الأجنبى،فاننا نحدث نوعا من اللبس بين ماتعنيه الأنثروبولوجيا وتهتم به ، وبين ماتدرسه العلوم الأخرى التى تدرس الانسان كعلم الطب والبيولوجى وعلم النفس والاجتماع والسياســة ••• الخ • وعلى هذا الأســاس ساد استخدام المصطلح الأجنبى كما هو Anthropology فى اللغة الانجليزية ، L'Anthropologiè فى اللغة الفرنسية خاصة بعد اشتقاقه من الكلمة اليونانية الأصليــة • كما ساد استخدام كلمة الأنثروبولوجيا — كما هى فى اللغة العربية درءا لهذا اللبس — باعتبارها (علم دراسة الانسان) •

والواقع أن تاريخ استخدام مصطلح الأنثروبولوجيا قد لفت انتباه الكثيرين من العلماء والباحثين للتعرف على هذا العلم وفهم موضوعه • ولعل هادون Haddon أبرز هؤلاء العلماء ، اذ أرجع تاريخ استخدام هذا الاصطلاح الى الحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية • فقد لاحظ أن أرسطو قد استخدمه للاشارة الى (الشخص الذى يتحدث عن نفسه) •

ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف تماما عن المعنى الحديث للاصطلاح[1] .

وفى عام ١٥٠١م ظهر هـــذا الاصطلاح (أنثروبولوجيـــون (Anthropologeion) كعنوان لكتاب المفكر هنـــدت (Hundt) حيث تكلم فيه عن الخصائص التشريحية لجسم الانسان . وكذلك أورد المفكر كوبيلا Copella هذا الاصطلاح فى كتابه بعنوان L'Anthro- pologia — فى عام ١٥٣٣م — الذى يدرس فيه الصفات الشخصية الفردية .

والملاحظ أن أول مرة يظهر فيها اصطلاح (أنثروبولوجيا) فى اللغة الانجليزية كان فى عام ١٦٥٥م فى كتاب مجهول المؤلف يحمل عنـــوان Anthropology Abstracted ويدور حول الطبيعـــة البشرية . ويتناول بين دفتيه قسمين أولهما خاص بعلم النفس حيث يناقش فيـــه الطبيعة البشرية ، وثانيهما يختص بعلم التشريح . ومنذ ذلك الحين بدأ مصطلح الأنثروبولوجيا ينتشر فى الاستخدام والأوساط العلمية تدريجيا الى أن صار له مفهوم واضح ومحدد المعالم ، خلال القرن التاسع عشر .

ومع تطور البحث فى علم الأنثروبولوجيا ، صار مجاله أكثر تحديدا ، وتبلورت الفروع التى تتفرع عنه ، حتى أن تشارلز فينيك Charles Winick قد ذكر فى عام ١٩٥٦م أن علم الأنثروبولوجيا الحديث يضم الفروع الأربعة التالية : علم الآثار . واللغويات ، والأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الطبيعيـــة . وبهذا يتضح من المعنى اللفظى لاصطلاح أنثروبولوجيا أن موضوع هذا العلم هو الانسان . وبالتالى فالانسان هو الاطار الوحيد الذى يحدد الموضوعات التى يدرسها هذا العلم .

---

(١) د. عاطف وصفى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٩ . وانظر أيضا :

د. على المـــكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعيـــة : الموضوع والمنهج والتطبيقات ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ص ٩ — ١٢ .

أما الزمان أو المكان فلا يقيدان الموضوعات التى تدخل فى نطاقه ، اذ يدرس الانســـان وأجداده وأصوله منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر ، ويدرس الانسان فى كل مكان • وهكذا لايتقيد علم الأنثروبولوجيا بحدود الزمان أو المكان ، ولكنه يتقيد فقط بالانسان كموضوع للدراسة •

الا أن الانسان مفهوم واسع للغاية ، وبالتالى يجب تحديد أبعاده ، وتضييق نطـاقه حتى يتســنى لنا تمييز اهتمامات علم الأنثروبولوجيا بالانسان ، عن اهتمامات العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى ، التى تدرس الانسان أيضا • وفى ضوء الاعتبارات نجد علم الأنثروبولوجيا يهتم بدراسة الجنس البشرى ، حيث يدرس أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم ، وكل ما ينتجونه سواء كان مادة أو علاقة اجتماعية أو فكرة • والملاحظ أن الرواد الأوائل فى علم الأنثروبولوجيا قد ركزوا اهتماماتهم على مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية ، حيث اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الأخرى وخاصة المجتمعات الأوربية •

ومع تراكم المعرفة العلميــة ، وتعــدد الدراســات والبحــوث الأنثروبولوجية زاد التراث العلمى حول الانســان وتنوعت مجالاته • فهناك دراسات تتعلق بثقافة الانسان وتراثه المعرفى ، وهناك البحوث التى تدور حول الجانب الجسمي للانسان ، كما أن هناك دراسات حول الانسان فى المجتمعات الحديثة ، فى حين تناولت بحوث رابعة عمليــة تنمية المجتمع ••• الخ[٢] •

وفى النهاية نلاحظ أن الدراسات التى أجراها علماء الأنثروبولوجيا على الانسان أظهرت جوانب لم تظهرها أو تتناولها علوم انسانية أخرى ،

---

(٢) د• نبيل صبحى ، الاتجاهات التقليدية والحديثــة فى الانثروبلوجيا الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥م ، ص ١٣ •

كعلوم الطب والنفس والاقتصاد وغيرها . كذلك فان تراكم المعرفه — كما قلنا — وزيادة عدد الأنثروبولوجيين ، قد أدى الى تجمع الدراسات الأنثروبولوجية فى شكل مجموعات متشابهة بحيث شكلت كل مجموعة فرعا متميزا من فروع العلم . وعلى سبيل المثال فان الدراسات الأنثروبولوجية التى أجريت على جسم الانسان وتكوينه وملامحه وخصائصه الفيزيقية ، قد أسهمت فى تأسيس علم الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية . كما نجد أن دراسات الأنثروبولوجيا حول الممارسات والمعتقدات والدين والعادات واللغة (الثقافة عموما) قد كونت علم الأنثروبولوجيا الثقافية . ومن جانب آخر فان مجموعة الدراسات التى قام بها علماء الأنثروبولوجيا حول النظم والعلاقات الاجتماعية قد شكلت أسس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وهناك — بالاضافة الى ذلك — بعض الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية التى أجريت على الانسان أيضا ، ولكنها لا تزال فى بدايتها أو لم تصل الى ما وصلت اليه الفروع الثلاثة السابقة ، منها على سبيل المثال الأنثروبولوجيا الحضرية والاقتصادية والطبية واللغوية ... الخ .

* * *

ثانيا — موضوع الأنثروبولوجيا وفروعها :

على الرغم من أن علم الأنثروبولوجيا يدرس موضوعات عديدة فى الوقت الراهن ، وتتفرع عنه عدة فروع علمية ، الا أن الملاحظ عموما على بداية ظهور هذا العلم ، أن علماء الأنثروبولوجيا الأوائل قد ركزوا على دراسة المجتمعات البدائية مثل الهنود الحمر الأمريكيين ، وسكان استراليا الأصليين وشعوب جنوب المحيط الهادى ، والمجتمعات الافريقية الاستوائية ... الخ .

وتجدر الاشارة الى أن التركيز على مثل هذه المجتمعات يرجع الى العوامل التالية :

١ — اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الأوائل بدراسة اللغات واللهجات والنظم والعادات الغريبة التى تختلف عن لغات ونظم وعادات مجتمعاتهم الأوروبية الأصلية • وصار ذلك الاهتمام تقليدا فى الانثروبولوجيا الى حد كبير ، حتى أوائل القرن العشرين ، حينما اتجهت اهتمامات الأنثروبولوجيين نحو دراسة المجتمعات الريفية والحضرية والصناعية الحديثة فى العالم الغربى ذاته[٣] • كذلك اهتمت الأنثروبولوجيا حينئذ بدراسة عمليات الصراع الثقافى Cultural conflict والاتصال الثقافى Cultural Contact بين الثقافات والحضارات المختلفة • ومثال ذلك دراسة المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية وما طرأ على ثقافاتهم من تغيرات •

٢ — يعتمد علم الأنثروبولوجيا على المنهج التكاملى Integrative Method أو ما يسمى فى هذا العلم بالنظرة الشمولية Holistic وبالتالى تسعى الدراسات الأنثروبولوجية نحو تحديد جميع عناصر الثقافة والنظم الاجتماعية فى مجتمع ما • وهذا لا يتحقق غالبا الا بدراسة المجتمعات البدائية صغيرة الحجم مثل قبائل النوير Nuer والازاندى Azande بالسودان • وهنا يصل الأنثروبولوجى الى تشخيص طريقة حياة Way of life أبناء القبيلة ، من خلال ملاحظة مساكنهم وملابسهم والأدوات التى يستخدمونها ونظمهم العائلية والقرابية والاقتصادية والدينية • وكذلك يهتم بدراسة الطقوس الدينية والمعتقدات السحرية والعادات والتقاليد والفنون السائدة ، علاوة على اهتمامه بتناول النظام السياسى والجماعات التى تتكون منها القبيلة والمراكز

(٣) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ص ١١ . وانظر ايضا :
د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ص ١٨ — ١٩ .

الاجتماعيــة فيها والأدوار الاجتماعيــة لأفرادها • وهــكذا يستطيع الأنثروبولوجى التعرف على طريقة حياة المجتمع الصغير الذى يدرسه ، على حين لو أجرى هذه الدراسة على المجتمع الهندى أو المجتمع الفرنسى أو المجتمع المصرى لعجز عن تحديد طريقة الحياة تلك ، ولما توصل الى الصورة الكلية التى يقوده اليها المنهج التكاملى •

غير أنه بتقدم بحوث ودراســات علماء الاجتمــاع والاقتصــاد والقانون ، والســياسة والدين وغيرها ، وتراكم المعرفة العلمية حول المجتمعات الكبيرة • تمكن الأنثروبولوجيون من الاستفادة بتلك الدراسات للوصول الى تحديد عناصر ثقافة المجتمع المتقدم كبير الحجم وحضارته المعقــدة •

٣ ــ لعب العــامل الايدولوجى دوره البــارز فى تركيــز علمــاء الأنثروبولوجية الأوائل على دراسة المجتمعات البدائية صغيرة الحجم • حيث سعى بعضهم الى وضع مقياس يقيس تطور المجتمعات بحيث تحتل المجتمعات الأوروبية قمته (درجة ١٠٠ مثلا) ، وتشغل المجتمعــات البدائية نقطة البداية فيه (الصفر مثــلا) • وبين هذين التصنيفين الاستقطابيين (الصفر ــ المائة) يمكن التعرف على المستوى أو الدرجة التى تشغلها هذه المجتمعات على مقياس التطور • ولعل الاتجاه التطورى فى الأنثروبولوجيا يوضح لنا هذه الفكرة •

والواقع أن الآراء قد اختلفت فى تحديد أقسام أو فروع عــلم الانثروبولوجيا • الا أنه يمكن تقسيم هذا العلم عموما الى قســمين رئيسيين هما الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية ، والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية[٤] • وهذان الفرعان يمثلان الفرعين التقليديين فى

---

(٤) د. محمد الجوهرى ، الأنثروبولوجيــا : اسس نظرية وتطبيقات عملية ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧ .

الانثروبولوجيا • على حين توجد فروع أخرى ــ سنشير اليها لاحقا ــ تمثل الاتجاهات الحديثة فى هذا العلم •

أ ــ الفروع الرئيسية فى الانثروبولوجيا :

(ا) الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية :

Physical or Biological Anthropology

ويسمى هذا الفرع بالانثروبولوجيا الفيزيقية (الطبيعية) أو الانثروبولوجيا البيولوجية البشرية[٥] • ويهتم هذا الفرع بدراسة تطور الانسان وسلوكه ، والخصائص البيولوجية العديدة التى يتباين فيها البشر القدماء عن البشر المحدثين • وينظر هذا الفرع الى الانسان على أنه عضو فى المملكة الحيوانية ، اذ يتناول فيه هذا الجانب فقط دون اهتمام بالجوانب الاجتماعية أو الثقافية • وعلى هذا الأساس تعتبر الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية أقرب الى العلوم الطبيعية منها الى العلوم الاجتماعية • وبالتالى نجدها أكثر ارتباطا بعلوم التشريح Anatomy وعلم وظائف الأعضاء Physiology وعلم الحياة Biology •

ومن ناحية أخرى فان الانثروبولوجيا الطبيعية تدرس جسم الانسان من حيث صفاته مثل لون البشرة وشكل الشعر وطول القامة وفصائل الدم ، ولون العينين ، وبالتالى تصنيف الجماعات البشرية الى سلالات وتحديد خصائص كل سلالة ، وتوزيع الاجناس على المناطق المختلفة على سطح الأرض • وعلى الرغم من الاعتقاد بأن الأجناس البشرية قد انحدرت عن أصل واحد هو الانسان العاقل "Homo Sapins" ، الا أن توزعها على الأرض ، وتفاعلها مع البيئات المختلفة قد أدى الى اختلاف خصائصها • وقد أدى اهتمام الانثروبولوجيا الطبيعية بجسم

---

(٥) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

الانسان الى تسميتها أحيانا بعلم دراسة الجسم Somatology من حيث صفاته ومقاييسه ، أو من حيث أصـوله وأجـداده • وأهم تخصصات هذا العلم علم العظام Osteology وعلم البنية البشرية Human Morphology ومقاييس جسم الانسان Anthropometry ودراسة مقاييس الأجسام الحية Biometrics وعلم الجراحة الانسانى Human Serology (٦) ولعله يتضح لنا أن هذه العلوم والتخصصات تدخل فى صميم دراسات كليات الطب والعلوم والتمريض • ولذلك نجد أن معظم المتخصصين فيها من الأطباء وعلماء الحياة • وان كانت هـذه الدراسات تدخل فى دائرة اهتمام أقسام الانثروبولوجيا بكليات العلوم الاجتماعية والآداب •

ومن الواضح أن تاريخ الانثروبولوجيا الطبيعية يرجع أساسا الى كتابات شارلز دارون C. Darwin عن أصل الأنواع Origin of Spacies والى بحـوث بول بروكا Paul Broca وفرانسيس جالتون Francis Gallton • ويرجع الفضل الى بروكا فى تصميم أدوات الدراسة فى الأنثروبولوجيا الطبيعية حتى أصبحت مرادفة لعلم قيـاس جسم الانســان (الأنثروبومترى) ، أضـف الى هـذا أن اعتمـاد الأنثروبولوجيا الطبيعية على علم التشريح أدى الى تصنيف السلالات البشرية بناء على توزيع السمات التشريحية • وقد شهدت سنة ١٨٣٠ م بداية تقدم هذا العلم ، حينما اتجه العلماء نحو دراسة التطور الجسمى للانسان ، ودراســة الحفريات الأثرية للتعرف على الهيـاكل البشرية والبقايا العظمية للانسان • وهنا انقسمت هذه البحـوث الى ميدانين

---

(٦) Ronald A. Reminick : Theory of Ethnicity ; An Anthropologist's Perspective, Univ. Press of America, Inc., New York, 1983, pp. 6-14.

رئيسيين وهما دراسة الانسان كنتاج لعملية التطور ، ودراسة وتحليل الجماعات البشرية[٧] • ورغم أن المناهج المستخدمة فى هذين الميدانين مختلفة ، الا أنها ترتبط ببعضها وتسهم بالقاء الضوء على المشكلات القائمة فى الفرع الآخر •

وبالاضافة الى ذلك ، فان الأنثروبولوجيا الطبيعية تسعى للتعرف على السمات الفيزيقية للانسان القديم ، ولذلك يفتش الباحثون عن آثاره ومخلفاته ، ويقارنون بينها وبين بعضها من ناحية ، وبينها وبين الانسان من ناحية أخرى[٨] • ومن خلال المقارنة يتمكن الباحث من تعقب سمة بنائية معينة أو مجموعة كاملة من السمات منذ أقدم الجماعات البشرية حتى أحدثها • وبالتالى نستطيع اكتشاف متى ظهرت سمة معينة لأول مرة ، وكيف انتشرت بين الناس ، ونلاحظ اختفاءها التدريجى فى بعض الأحيان • وهنا يستطيع عالم الانثروبولوجيا الطبيعية الاجابة على التساؤلات التالية : متى وأين ظهرت أقدم الكائنات البشرية لأول مرة ؟ وكيف كانت هيئة هذه الكائنات البشرية ، وكيف تتشابه أو تختلف بعضها عن بعض ؟ وكيف تغيرت السمات الفيزيقية للانسان خلال الفترة التى عاشها على الأرض ؟ •

وتعتبر دراسة العمليات الفعلية التى تحدث التغيرات البيولوجية فى الانسان من أهم موضوعات الانثروبولوجيا البيولوجية[٩] • وقد بدأت هذه الدراسة بالتعرف على نمو الانسان من الحمل الى البلوغ ، وتأثير الظروف البيئية المختلفة على هذا النمو ثم تطرقت الدراسة لاحقا لتتناول

---

(٧) د• محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٢٩ •

(٨) Roger Peorson : Introduction to Anthropology, Holt, Reinhartaud Winston, Inc., New York, 1974, p. 122.

(٩) Roger Pearson, Ibid : pp. 126-128.

الوراثة البشرية أى العوامل الوراثية وأساليب تعديل الصفات الوراثية ، وأساليب تكيف الكائنات البشرية بيولوجيا مع الظروف الجديدة ، سواء على مستوى الفر دأو على مستوى النوع بأكمله •

(ب) الانثروبولوجيا الثقافية :

Cultural Anthropology

تعتبر الأنثروبولوجيا الثقافية فرعا أساسيا من فروع علم الانثروبولوجيا يهتم بدراسة الثقافة Culture من جوانبها المختلفة ، حيث تركز على بناء الثقافات البشرية وأدائها لوظائفها فى كل زمان ومكان • وبالتالى فهى تهتم بالثقافة فى ذاتها ، سواء كانت ثقافة الانسان الأول أو ثقافة العصور القديمة أو ثقافة المجتمعات المعاصرة فى أمريكا وأوروبا •

والواقع أن جميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الانثروبولوجيا لأنها تسهم فى الكشف عن استجابات الناس نحو مشكلات البيئة الطبيعية ، ومحاولاتهم الحياة والعمل معا ، وتفاعلات المجتمعات الانسانية بعضها مع البعض • والثقافة من صنع الانسان ، وهى ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل التطور والتغير والبقاء للأصلح • وتعتبر قدرة الانسان على انتاج الثقافة أهم خاصية تميزه عن سائر المخلوقات الأدنى منه • ومن أهم عناصر الثقافة اللغة ، اذ عن طريقها تتناقل الأفكار وتستمر من جيل الى جيل ، وتجمع وتسجل الثقافة • ومن ناحية أخرى فان الثقافة هى التى تزود اللغة بمعظم مضامينها فتعطى الانسان الأسماء والموضوعات التى يتكلم فيها • وتشمل الثقافة أيضا كل ما يصنعه الانسان من عناصر المادة مثل الملبس والمسكن والآلات والأدوات — التى تتقدم بمرور الوقت — سواء للعمل أو للتزين أو للانتقال أو للترويح ••• الخ •

ويرجع الفضل الى تايلور Tylor فى نشأة هذا الفرع وتطوره ، وتنظيم موضوعاته فى اطار واحد ينتظم حول الثقافة[١٠] • ولعل التعريف الذى قدمه تايلور للثقافة لا يزال سائدا حتى اليــوم ، على الرغم من ظهوره فى عام ١٨٧٨ م • وهو كاف لاعطاء فكرة تفصيلية عن الموضوعات الكثيرة والمختلفة التى تدخل فى نطاق الثقافة • ويذهب تعريفه للثقافة الى أنها (ذلك الكل المركب الذى يضــم المعرفة والمعتقــدات والفن والعادات والأخلاق والقانون وأى قدرات أخرى يكتسبها الانســان باعتباره عضوا فى مجتمع) •

وقد وضع تايلور بعض الأسس العامة لدراسة الثقافة من أجــل التعرف على طرق التفكير ونماذج الفعل الانسانى • كذلك حاول تايلور تفسير تشابه الحضارات الانسانية على اعتبار الفعل وتشابه الأسباب التى تؤدى الى حدوثه •

ومن الممكن أن تكون الدراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافيــة ذات جانبين :

أولهما : هو الدراسة المتزامنة أو الآنية Synchronic Study أى دراسة الثقافة فى نقطة معينة من تاريخها • وهنا ننظر الى العنصر الثقافى من حيث ارتباطه مع حياة المجتمع ككل •

وثانى الجانبين هو الدراســة التتبعية Diachronic Study (أو التاريخية) بمعنى دراسة الثقافة عبر التاريخ • وهذا ما يمثــل

---

(١٠) Roger M. Keesing : Cultural Anthropology : A Contemporary perspective, (2 ed editiot), Holt Rinehartand Winston, New York, 1981, pp. 67-70.

الاتجاه التطورى فى دراسة الثقافة حيث يعزل الظاهرة أو العنصر ويتتبعها فى سيرها التاريخى(١١) .

وفى ضوء كثرة وتنوع الموضوعات التى تدخل فى نطاق الثقافة ، فان الانثروبولوجيا الثقافية تضم عدة موضوعات أو فروع ، مثل الاثنولوجيا Ethnology وعـلم الآثار Archeology (الاركيولوجيا) ، وعلم اللغويات Linguistics وسنتناول كل فرع منها بشىء من الايجاز .

١ — الاثنولوجيا Ethnology :

وهى علم يختص بدراسة ثقافة المجتمعات الموجودة وقت الدراسة وكذلك الحضارات التى انقرضت بشرط أن تتوافر عنها سجلات مكتوبة وشواهد حية تلقى الضوء على هذه الحضـــارات . ويهتم الاثنولوجى بدراسة ووصف الثقافات المختلفة ، أينما وجدت سواء فى القارات القطبية الشاسعة أو فى صحراوات وغابات أفريقيا أو فى الجزر المتناثرة فى المحيط الهادى أو فى المدن المزدحمة فى أوروبا وآسيا وأمريكا . وبالتالى يعتبر وصف السمات الثقافية للجماعات البشرية المختلفة بمثابة الشغل الشاغل لعالم الاثنولوجيا . ونظرا لقلة معلوماتنا عن المجتمعات البدائية نجــده يكرس جهده للتعرف على ثقافاتها . ومــع ذلك فلا ينبغى أن نصـــف الاثنولوجيا بأنها دراسة المجتمعات والثقافات البدائية لانها تهتم بالثقافة كظاهرة مميزة للبشر فى كل مكان وليس بثقافات مجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات . كذلك فالاثنولوجى يبحث فى كل ثقافة المجتمع فيدرس النظم السياسية والاقتصادية والدينية والفنون والعادات والتقاليد . وقد اتفق العلماء على اطلاق اصطلاح اثنوجرافيا Ethnography

---

(١١) ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشـــامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، وص ٣٣٣ .

على الدراسة التى تقتصر على الوصف العام للثقافة ، على حين يطلقون اصطلاح اثنولوجيا على الدراسات التى تجمع بين وصف الثقافة والمقارنة بينها وبين غيرها من الثقافات . ولذلك يستهدف الاثنولوجى الوصول الى قوانين عامة للعادات الانسانية والتغير الثقافى وآثار الاتصال الثقافى بين الحضارات والثقافات المختلفة ، وتصنيفها الى مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة ، ثم تفسر أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينها . وقد اهتمت الاثنولوجيا فى الوقت الحالى بدور الفرد فى المجتمع وارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافى للوصول الى تعميمات واجابات عن مدى دور الفرد فى بعض العمليات الثقافية كالاختراع والاكتشاف ونشر السمات الثقافية وانتشارها ، ووسائل تشكل الشخصية الفردية وأنواع السلوك الذى تحبذه الثقافة والسلوك الذى تلفظه ... الخ .

٢ — علم الآثار : (الأركيولوجيا) Archeology

يهتم علم الآثار بدراسة الانسان لتحديد وتتابع التغير الحضارى والثقافى على مر العصور . ولذلك يتحتم عليه أن يستخدم السجلات المكتوبة كلما وجد اليها سبيلا — كما فى مصر القديمة والصين — لاعادة رسم صورة ثقافات العصور الغابرة بالاستعانة بمخلفاتها المادية وحدها فى أغلب الأحوال . فقد يعثر عالم الآثار على بعض الملاجىء التى كان الانسان القديم يسكنها كالكهوف ، وكذلك يعثر على بعض الأسلحة والأدوات والأوانى المدفونة تحت الأرض[١٢] . وقد يعثر على بعض الرسوم والنقوش الحجرية والفخار والبيوت وبقايا المعابد ... الخ . وبالتالى يستطيع وصف جانب من الثقافة القديمة وربطها ببيئتها الطبيعية التى عاشت فيها .

---

(١٢) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

والواقع أن هناك اختلافا كبيرا بين علماء الآثار وعلماء التاريخ • فاذا كان علماء التاريخ يدرسون الفترات المسجلة بالكتابة فى المدنيات والحضارات الكبرى فى الشرق الأوسط والأقصى وأوروبا ، فان علماء الآثار يهتمون بالفترات والمراحل التاريخية الطويلة التى قضاها الانسان مثل اكتشاف القراءة والكتابة(١٣) • ومن هنا فانهم يعتمدون فى دراساتهم على البقايا التى خلفها الانسان وتمثل حضارته وعناصر ثقافته •

وبذلك يسهم عالم الآثار بنصيب أساسى فى اثراء معرفتنا بتاريخ الثقافات وتطورها • فمنه نعلم أين اكتسب الانسان الثقافة لأول مرة ومتى كان ذلك ، ومنه نقف على جانب من تاريخ الشعوب الأمية ، كما نتوصل الى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية أو أساليب تعاقب نمط ثقافى بعد آخر فى مختلف مجتمعات العالم(١٤) • ومن ناحية أخرى يمكننا أن ندرس ظهور المجتمعات التى تستخدم الأساليب الزراعية فى أعقاب المجتمعات التى لا تستخدم هذه الأساليب فى الأماكن المختلفة (الجغرافية) والأزمان المختلفة (التاريخية) •

وقد توصل علماء الآثار الى مناهج دقيقة لفحص هذه البقايا ، والمخلفات البشرية ، كما توصلوا الى أساليب محكمة لحفر طبقات الأرض ، وتحديد المواقع التى يوجد فيها بقايا وتصنيفها ومقارنتها • وبالتالى يستنتج عالم الآثار الكثير من المعلومات عن الحضارات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها من الحضارات • ويتعاون — فى هذا الصدد — مع المؤرخين والانثروبولوجيين باختلاف تخصصاتهم الدقيقة ويستفيدون من أبحاث ودراسات علماء الجيولوجيا وعلماء النبات

---

(١٣) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق ، ص ١٧ .

(١٤) Roger Pearson : Introduction to Anthropology : Op. pp. 302-304.

والحيوان والمناخ فى تأريخ وتحقيق (هوية) البقايا التى يكتشفونها • وكثيرا ما يستخدمون التجارب المعملية لاكتشاف خصائص ومناخ البقايا الأركيولوجية • ويتطلب عمل عالم الآثار معرفة واعية بالكيمياء والطبيعيات والمهارات الدقيقة • وقد نجح العلماء المحدثون فى اختراع وسيلة جديدة لتحديد عمر (البقايا) بدقة وهى طريقة الكربون المشع Radio Active Carbon وتعرف باصطلاح (ك ١٤) •

٣ — علم اللغويات Linguistics :

تختص اللغويات بدراسة جميع لغات البشر ، بما فى ذلك اللغات المعاصرة (عند الشعوب الأمية أو الشعوب التى تعرف القراءة والكتابة) واللغات التى لا نعرفها الا من واقع السجلات التاريخية المكتوبة فقط مثل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة واللغة السنسكريتية • وينصب اهتمام دارس اللغويات على اللغة نفسها أساسا فيهتم بأصولها وتطورها وبنائها • وهو فى هذا يختلف عن دارس اللغويات العملية ، أو دارس اللغة المقارنة Polyglot — الذى يتكلم ويفهم عدة لغات — أو دارس الأدب الذى يهتم باللغات اهتماما ثانويا فى مقابل اهتمامه بالأعمال الأدبية ذاتها • كذلك يختلف عن دارس فقه اللغة ، الذى يهتم باللغة أساسا كوسيلة لفهم التراث اللغوى والأدبى لشعب معين فهما أفضل[١٥] • وبالتالى يستطيع عالم اللغويات أن يعيد رسم صورة تاريخ اللغات والأسر اللغوية ، ويقارن بينها لتحديد السمات المشتركة ، وفهم العمليات التى تظهر من خلالها اللغات الى الوجود ، وتتنوع كما نراها اليوم •

---

(١٥) Roger Keesing : Cultural Anthropology, Op. cit., pp. 80-82.

والواقع أن دراسه اللغويات تعتمد على منهج علمى ، وتعتبر أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية لأن اللغة أحد عناصر الثقافة ، ان لم تكن أهمها على الاطلاق • وينقسم علم اللغويات الى عدة أقسام فرعية أهمها علم اللغويات الوصفى **Descriptive Linguistics** وعلم أصول اللغات **Glottochronology** • أما القسم الأول — علم اللغويات الوصفى — فهو يهتم بتحليل اللغات فى زمن محدد ، ويدرس النظم الصوتية وقواعد اللغة والمفردات • ويعتمد عالم اللغويات هنا فى دراساته على اللغة الكلامية (أى لغة غير مكتوبة) فيستمع الى المواطنين ويعبر عن لغتهم المنطوقة برموز دولية متعارف عليها • وتتركز معظم هذه الدراسات فى المجتمعات البدائية التى لم تعرف القراءة والكتابة • أما القسم الثانى — علم أصول اللغات — فهو يختص بالجانب التاريخى والمقارن ، حيث يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التى يمكن متابعة تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة • وتزداد المشكلة حدة عندما يتناول اللغوى لغة قديمة لم تترك وثائق مكتوبة • وهنا يستهدف تحديد أصول اللغات الانسانية بما فيها هذه اللغة القديمة •

وينبغى ألا نفهم مما سبق أن اللغوى منعزل عن الأنثروبولوجيا ، بل على العكس تماما ، فهو يوجه اهتمامه الى المشكلات اللغوية البحتة ، كما يهتم بالعلاقات العديدة القائمة بين لغة شعب ما ، وبقية جوانب ثقافته • وهكذا يمكن أن يدرس الكيفية التى ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها الاجتماعى ، والرموز اللغوية المستخدمة فى الشعائر والاحتفالات الدينية ، وكيف أن هذه الرموز تختلف عن الكلام اليومى العادى ، وكيف يعكس تغير الحصيلة اللغوية فى احدى اللغات الثقافة المتغيرة للشعب الذى يتكلمها ، وعمليات نقل اللغة من جيل الى جيل وكيف تساعد على نقل المعتقدات والمثل والتقاليد الى الأجيال

اللاحقة[١٦] . اذن يتمثــل دور عالم اللغويات فى فهم دور اللغــة فى المجتمعات البشرية ، وكذلك دورها فى رسم الصورة العامة للحضــارة الانسانية .

(جـ) الأنثروبولوجيا الاجتماعية[١٧] : Social Anthropology

تمثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرعا متميزا فى علم الأنثروبولوجيا العامة ، الا أنها تمثل فى نفس الوقت — محــور خلاف بين المــدارس الأنثروبولوجية الحديثة . فالمدرسة الامريكية ترى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع من فروع الأنثروبولوجيــا الثقافية ، وبالتــالى فان الأنثروبولوجيا العامة تنقسم الى أنثروبولوجيا طبيعية أو بيــولوجية وأنثروبولوجيا ثقافية ، يتفرع منها الأنثروبولوجيا الاجتماعية . على حين تعتبر المدرسة البريطانية أن الأنثروبولوجيا الطبيعيــة — ويتفرع عنها الأنثروبولوجيا الثقافية . وبعبارة أخرى تعتبر الأنثروبولوجيــا الاجتماعية بمثابة الأصــل — من وجهة نظر المدرســة البريطانيــة — والأنثروبولوجيا الثقافية بمثابة الفرع ، بينما تعتبر الأنثروبولوجيــا الثقافية — فى ضوء فكر المدرسة الامريكية — هى الأصل، والأنثروبولوجيا الاجتماعية هى الفرع .

وعلى أية حال ، فان هذه الخلافات لا تهمنا كثيرا هنا بقدر ما يهمنا توضيح أن مجال اهتمام الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعى. ومحور اهتمام الأنثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة . ونحن فى مصر —

---

(١٦) انظر : Roger Pearson : op. cit., p. 268.

وانظر ايضا : Roger Keesing : op. cit., p. 329.

(١٧) راجع تفاصيل هذا العلم وموضوعه واهتماماته فى المصدر التالى :

د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعيــة ودراسة التغير والبناء الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر .

ومن وجهة نظر المدرسة المصرية فى الأنثروبولوجيا اذا جازت التسمية — نعتبر أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع مستقل ، كما أن الأنثروبولوجيا الثقافية هى الأخرى فرع مستقل من فروع الأنثروبولوجيا العامة .

تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية — اذن — السلوك الاجتماعى الذى يتخذ فى العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسى والاجراءات القانونية والعبادات الدينية وغيرها[١٨] . كما تدرس العلاقة بين هذه النظم ، سواء فى المجتمعات المعاصرة أو فى المجتمعات التاريخية التى توجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع ، ويمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات[١٩] .

وتولى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البناء الاجتماعى Social Structure اهتماماً ملحوظا . فهى تحلل هذا البناء فى المجتمعات الانسانية ، وخاصة المجتمعات البدائية والبسيطة التى يظهر فيها تكامل البناء الاجتماعى ووحدته بوضوح . وهنا يزداد اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالقطاع الاجتماعى للحضارة ، والدراسة التفصيلية للبناء الاجتماعى ، وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية . وسوف نعالج هذه الموضوعات بالتفصيل فى الفصول اللاحقة .

---

(١٨) أنظر :

Roger Keesing : op. cit., pp. 316-331.

See Also :

Pearson : Introduction to Anthropology; op. cit., pp. 191-205.

(١٩) ايفانز بريتشارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة الدكتور احمد ابو زيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠م ، ص ٢٣ .

٢ ـ الفروع الحديثة للأنثروبولوجيا :

تعددت الدراســات الأنثروبولوجيــة فى الوقت الراهن وتراكمت البحوث التى أجريت على موضوعات حديثة وفى مجتمعات كبيرة الحجم نسبيا (ريفية وحضرية صناعية ... الخ) والملاحظ أن هــذه الفروع ليست حديثة بالمعنى الزمنى (بداية ظهورها) لأنها نالت بعض الاهتمام فى دراسات الرواد ، وفى الفروع التقليــدية (الطبيعية والاجتماعيــة والثقافية) ، ولكنها حديثة بمعنى تبلورها بشكل واضح حول محور من محاور الاهتمام والدراسة يجذب الباحثين اليه فتتراكم بحوثهم وتنصب على هذا المحور ، فيصبح بالتالى فرعا متميزا وحديثا فى نفس الوقت . وتزداد معالم هذا الفرع رسوخا كلما ساهمت بحوثه ودراساته بتقديم الحلول لبعض المشكلات ، وابراز الجوانب التطبيقية المفيدة . ومن أهم هذه الفروع : الأنثروبولوجيا السياسية Political Anthropology والأنثروبولوجيا الاقتصادية[٢٠] Economic Anthropology والأنثروبولوجيا الطبيــة Medical Anthropology[٢١] ،

---

(٢٠) راجع الدراسة الحديثة التالية :

د. فوزى عبد الرحمن ، الأبعاد المؤثرة فى ظاهرة تقسيم العمل الزراعى بمصر : محاولة منهجية فى الأنثروبولوجيا الاقتصادية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٩ .

(٢١) حول هذا الموضوع أنظر مزيدا من التفاصيل فى :

(أ) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية : دراسة ميدانية فى علم الاجتماع الطبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م ، الفصل الخامس صص ٢٩٣ — ٤٠٧ .

(ب) د. على المكاوى ، الطب السحرى ، دراســة نقدية ، الكتاب السنوى لعلم الاجتمــاع ، العدد الرابع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م صص ٤٧٢ — ٤٨٣ .

والأنثروبولوجيا الحضرية Urban Anthropology والأنثروبولوجيا النفسية (٢٢) Psychological Anthropology والأنثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropology

---

(جـ) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر: دراسة للأبعاد المهنية والاجتماعية والثقافية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م ، البابان الأول والثانى .

(و) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية: دراسات نظرية وبحوث ميدانية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩١ .

(هـ) د. نبيل صبحى ، الأنثوبولوجيا الطبيـــة وخدمة قضايا الصحة والمرض فى مصر ، مقال منشور بالكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العددالثالث، دار المعارف ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٨٢م ، صص ١٩ — ١٠٠ .

(٢٢) انظر تفاصيل هذا الفرع فى الكتاب التالى :

د. عاطف وصفى ، الثقافة والشخصيـــة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

الفصل الثانى

نظريات الثقــافة

الفصل الثانى

نظريات الثقــافة

تقــديم :

شغلت قضية الانسان ونشأته وتطوره علماء الأنثروبولوجيا خلال القرون الثلاثة الماضية (الســابع والثامن والتاســع عشر) ، وكانت التساؤلات المطروحة على ساحة العلم خلال هذه الفترة هى :

ــ هل الشعوب التى لم تعرف من قبــل ــ والتى أمكن التعرف عليها من خلال الاكتشافات ــ تنتمى الى نفس النوع الذى ينتمى اليه الانسان الغربى ؟ .

ــ هل الشعوب غير الغربيــة التى كانت تعيش مرحلة بسيطة من التقدم التكنولوجى تمثل حالة الطبيعية التى افترضتها النظريات المختلفة كمرحلة سابقة على الأصل التعاقدى الذى ترتكز عليه الحياة السياسية والقانونية ؟ .

ــ ما هى المراحل التى مرت بها الثقــافة ؟ وما هى العوامل التى أدت الى تطور بعض النظــم وتخلف الأخرى أو بقائها على حالتهــا الفطرية ؟ .

وجدير بالذكر أن هذه التســاؤلات تعكس فى طياتها الغرائب التى كشفها الرحالة والمبشرون فى بقاع الأرض المختلفــة ، وبشكل خاص فى المجتمعات التى وصفت بالبدائيــة ، والتى بسبب البحث فيها لعشرات السنين وصفت الأنثروبولوجيا بأنها علم دراسة المجتمعات البدائية ، وفى هذا الصدد تشير « لوس مير » « الى أن القسط الأعظم من اهتمام الأنثروبولوجيا ظل ينصب لفترة طويلة على دراسة الشعوب التى تختلف اختلافا كبيرا عن تلك التى تعيش فى الدول الصناعية » .

ولقد انعكست هذه التوجهات على تحديد نطاق الأنثروبولوجيا ومجالات اهتماماتها ، والمناهج المستخدمة فيها ، وظلت طوال قرون عديدة أسيرة بين هذه الأفكار ، ثم شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والأولى من القرن العشرين خروجا فكريا من هذا الأسر . ليتغير مجال الاهتمام ، بعد أن تحقق للانثروبولوجيا تراكم معرفى : منهجى ونظرى ، لنجدها تهتم بمشكلات الانسان أينما وجد وحيثما وجد . ونعرض فى الصفحات التالية من هذا الفصل لبعض الاتجاهات النظرية فى دراسة الثقافة .

اولا ـ الاتجاه التطورى :

١ ـ التطورية الخطية[1] Unilinear Evolutionism

سيطرت فكرة التطور الثقافى على الفكر الأنثروبولوجى خلال سنوات القرن التاسع عشر ، وليس ذلك فحسب بل امتد ذلك الاهتمام ليطوى السنوات الأولى من القرن العشرين ، وتعكس هذه الفكرة تصورا من علماء الأنثروبولوجيا مؤداه أن كل المجتمعات فى تطورها تمر بنفس المراحل ، وبهذا فان رواد ذلك الاتجاه الفكرى يعتبرون المجتمعات البدائية انما تمثل مرحلة نموذجية للأوضاع الانسانية السابقة ، كما تعتبر هذه المجتمعات فى ثقافتها ونظمها الاجتماعية بالنسبة للباحث الأنثروبولوجى معملا للتاريخ الانسانى أو متحفا لفحص المراحل الأولى من نشأة الثقافات ، ومن الممكن الكشف بداخله عن مراحل التطور ، والاتجاه الذى سارت فيه الثقافة وكمحصلة لهذه التصورات شهدت تلك المرحلة الكثير من الجهود التى تعكس هذه الرؤى ، ومنها على سبيل المثال الكتاب الذى أصدره « هنرى مين » عن القانون القديم ، وكتاب

---

(١) انظر : Murphy, Robert : Culture and Social Anthropology, Prentice-Hall, New Jersey, U.S.A., 1986, p. 196.

الفرنسى « فوستيل دى كولين » عن المدنية القديمة ، وكتاب « ادوارد تيلور » عن الثقافة البدائية Primitve Culture ، وكتاب « لويس مورجان » عن المجتمع القديم ، وكتاب « فردريك انجلز » عن « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » The origin of the Family, Primitive-property and the State وكتاب « جيمس فريزر » « الغصن الذهبى » دراسة فى السحر والدين

The golden Bough : A study in Magic & Religion

وتكاد معظم هذه الكتب تشترك فى خط فكرى واحد سيطر على الأنثروبولوجيا ، بشكل جعلها أقرب الى الاثنولوجيا التى تهتم بالدراسة الدقيقة والتحليلية المقارنة للثقافات الانسانية ، كما يفصح من جانب آخر عن تأثير النزعة الداروِنية على العلوم الاجتماعية ، اذ تطلع رواد هذه العلوم الى ما تحقق من نتائج فى العلوم الطبيعية محاولين السير على هديها أملا فى الوصول الى قوانين عامة تفسر الكثير من الظواهر الاجتماعية عن المجتمع والانسان ، وانطلاقا من هذه الأفكار تبلورت نظرية التطور الثقافى والتى تقوم على أساس أنه لامكان فهم العقل الانسانى لابد من ربطه بالتاريخ ، الذى يمكن من خلاله فهم الحياة الانسانية والوصول الى القوانين التى تحكم مسارها ، فتاريخ البشر واحد على أساس أن هناك وحدة فى الفكر الانسانى ، ومن ثم فالتمايز والاختلاف بين الثقافات يعد وليدا لظروف تاريخية معينة ، فالمجتمعات قد اعتبرت على الدوام بمثابة وجود متواصل ومتجانس ، ومؤلفة من طبقات تطورية ، وأقسام موازية يسير فيها التطور فى خط مستقيم ويتسق ذلك الطرح الفكرى مع ما كتبه « ادوارد تايلور » فى كتابه « بحوث فى التاريخ المبكر للجنس البشرى » Researchers into the early history of mankind والذى صدر عام ١٨٦٥ ، حيث قدم فى ذلك المؤلف عرضا وتحليلا لنظريته حول التطور الثقافى للمجتمعات الانسانية

التى استندت على فكرة التقدم الاطرادى للشعوب والثقافات ، وانتقالها من حالة الهمجية أو البدائية التى رآها متمثلة فى المجتمعات غير الغربية حينذاك — الى حالة التحضر والمدنية التى يمثلها المجتمــع الأوربى ، واستخدام تيلور مفهوم الرواسب كمفهوم مستمد من الدراسات الأثرية لبكشف بها عن الرواسب الثقافية عند الشعوب(٢) • ومن الواضح أن تيلور عندما صاغ نظريته حول تطور الثقافة فى المجتمعات الانســانية بهذا الشكل انما يمثل امتدادا لجذور الفكر الاجتماعى الذى ظل سائدا خلال القرن الثامن عشر ، والذى كان يبدو كسمة عامة ميزت عصر التنوير ، والتى ارتكزت على مفهوم محورى وهو أن البشر جميعا متساوون ، كما أن العمليات الذهنية عند جميع البشر والأجناس والشعوب متساوية • وكذلك فهم يخضعون لقانون عام للنشوء والارتقاء والتقدم •

التطورية الثقافية فى فكر لويس مورجان :

ثم انتقلت التطورية الثقافية من « تايلور » الى « لويس مورجان » حيث قدم نظريته عن تطور الثقافات الانسانية فى مؤلفه الشهير « المجتمع القديم » عام ١٨٧٧ وذلك من خلال السلاسل التطورية أو ما أســماه المراحل الثلاث التى تمر بها البشرية • اذ يرى أن الثقافات مرت فى كافة المجتمعات بمراحل متعددة وهى :

١ — مرحلة التوحش الدنيا :

ففى هذه المرحلة كانت حياة الانسان لا تختلف كثيرا عن الحيوانات من حيث درجة التقدم أى أنها كانت شديدة البدائية ، ثم انتقلت بعد هذه المرحلة الى مرحلة تالية لها وأرقى منها فى سلم التقدم أطلق عليها

---

(٢) انظر : حسين فهيم فى : قصة الأنثروبولوجيا ، فصول فى تاريخ علم الانسان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة بالكويت ، فبراير ١٩٨٦ ، ص ص ١٣٥ — ١٣٦ •

مورجان مرحلة التوحش الوسطى ثم مرحلة التوحش العليا . وكانت أرقى نسبيا من مرلة التوحش الدنيا .

٢ — مرحلة البربرية :

وقسمها مورجان أيضا الى ثلاث مراحل من حيث التقـدم وهى الدنيا والوسطى والعليا ، ففى هذه المرحلة شهدت البشرية تقدما يفوق مرحلة التوحش الدنيا بدرجاتها المختلفة .

٣ — مرحلة التحضر :

وفى هذه المرحلة شهدت الثقافات التى مرت بها أو انتقلت اليهـا العديد من الاختراعات والاكتشافات .

ويؤكد لويس مورجان أن هـذه المراحل تـكاد تكون حتميـة فى تسلسلها ، وتمر بهـا كافة الثقافات ، وحاول ادخال بعض المعـايير والمقاييس المادية التى استند على أساسها ذلك التصنيف ، وقد بنى مورجان افتراضاته على أساس ما توصل اليه من دراسات فى قبـائل « الايروكوا » حيث اكتشف أن الأسماء التى يستخدمونها للدلالة على علاقة القرابة مثل الأب أو الأخ أو غير ذلك تطلق على مجموعة أوسع من الناس عما يحدث بالمجتمع الانجليزى الذى ينتمى اليه مورجان ، وقد أدهشه ما رآه من شيوع لهذه الظاهرة بين بعض القبائل الهندية برغم اختلاف لغتهم وثقافاتهم عن الايروكوا ، وقد أثاره ذلك وأخذ يجمع قوائم عن مصطلحات النسب والقرابة ، ونشر بحثا فى هذا الموضـوع بعنوان « أنساق روابط الدم والمصاهرة » عرض فيه نظريته عن تطور نظم القرابة مفترضا فيها أن ذلك الاختلاط فى استخدام مفاهيم القرابة انما تعكس مرحلة تاريخية سادت فيها علاقات اجتماعية غير محددة ، كمرحلة من مراحل التطور التى مرت بها البشرية .

وفى نفس الاتجاه التطورى الذى سار فيه مورجان ليؤكد تطــور البشرية ، حاول باخوفين ، وماك لينان ، وهنرى مين ، البحث فى بعض جوانب السلوك ومحاولة ربطها بالماضى واعتبارها تمثل مراحل فى تطور المجتمعات •

التطورية الحديثة :

شهد العقد الثالث من القرن الحالى محاولات جديدة لاحياء الفكر التطورى فى تفسير الثقافة ، وقد أثمرت هذه المحاولات الكثير من الآراء كتلك التى قدمها « ليسلى هوايت » و « جوليان استيوارت » ، حيث ركز كلا منهما على أهمية العناصر الاقتصادية وبشكل خاص التكنولوجية منها، ومن ثم فقد اعتبر أن ما قدم من هذين العالمين بمثابة اسهامات جديدة الى هذا الاتجاه الفكرى فى الانثروبولوجيا • وفيما يلى نعرض لآراء ليسلى هوايت :

كان ليسلى هوايت معينــا بآراء لويس مورجان وأبحاثه الحقلية وبدلا من أن يرفض هوايت آراء مورجان النظرية تماما — كما كان من المتوقع — أن تقوده دراساته وأبحاثه الى ذلك — فاننا نجده على العكس من ذلك يكتشف فى مورجان مفكرا أصــيلا تعرضــت آراؤه للهجــوم والاهمال بشكل مخز ، وتصدى للدفاع عنه فى سلسلة من الدراســات التى قدم فى ثناياها نظرية للتطور ، افترض فيها أن تطور المجتمــع الانسانى يتحدد عن طريق نمو الفعالية التكنولوجية ، والتى تقاس بدورها بوحدات الطاقة التى يستهلكها الفرد فى المجتمع ، فقد كانت المجتمعات البدائية والأقل تطورا تفتقد الى اســتغلال الطاقة ، ولا تستفيد الا بالطاقة البشرية فحسب ، ثم شهدت البشرية سلسلة من الاختراعات مثلت علامات مميزة فى طريق التطور الثقافى ، واستطاعت البشرية من خلالها استغلال مصادر للطاقة تتجاوز حيز الجسم الانسانى ، لتضيف

بذلك المزيد من وحدات الطاقة المستغلة للمجتمع ، ويتحقق بذلك مزيد من التطور .

كما يرى هوايت أن الانسان كسائر الحيوانات الاخرى يتفاعل مع البيئة ، وان كان يفوقها فى درجة التفاعل واستغلال المتاح حوله من الامكانات للابقاء على نوعه ، ومن خلال هذا التفاعل يتفرد الانسان بظاهرة الثقافة ، والتى ابتدعها عبر آلاف السنين ، والتى لعبت دورا هاما فى الحفاظ عليه[٣] . ويؤكد « ليسلى هوايت » أن أهم مشكلات الأنثروبولوجيا هى دراسة التطور الثقافى ، لا بهدف تحديد مراحل النمو الثقافى ، ولكن بهدف أكثر شمولا من ذلك ، وهو تحديد العوامل المسئولة عن هذا التطور ، والمتمثل فى الطاقة كما ذكرنا من قبل ، « فالثقافة تتطور عندما تزداد كمية الطاقة » . وقد حاول هوايت توضيح ذلك الارتباط بين التطور الثقافى وكمية الطاقة من خلال تطبيق هذه المقولة على المراحل التى قال بها مورجان وهى التوحش والبربرية والحضارة ، مثلا صدق ما ذهب اليه بقوله ان الشعوب فى المرحلة الأولى لم تكن تمتلك الا طاقاتها الجسيمة ومن ثم فكانت ثقافة هذه المرحلة محدودة فى تراكمها ، وكذلك فى وسائلها التكنولوجية التى كانت فى أبسط صورها .

أما المرحلة الثانية وهى البربرية فقد شهدت استئناسا للنباتات والحيوانات . وتحقق لكثير من الثقافات التى مرت بهذه المرحلة قدر من التغير الثقافى من خلال تسخير قوى أكثر فعالية من قوى الطبيعة ، واخضاعها لسيطرته والاستفادة منها فى تحقيق أغراضه .

أما فى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الحضارة التى عرفت الاكتشافات

---

(٣) أنظر : رالف بيلز وهارى هويجر ، فى الأنثروبولوجيا العامة ، جـ٢ ، ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٧ ، ص ٧٨٨ .

والاختراعات فقد تميزت بتوفر عناصر للطاقة تفوق المراحل السابقة وذلك من خلال التكنولوجيا التى عرفتها هذه المرحلة ، وتميزت تبعا لذلك بتطور ثقافى — كمحصلة للعوامل التى ميزت هذه المرحلة — بشكل يفوق المراحل السابقة .

وبهذه الآراء يضفى هوايت قدرا من العمومية فى تفسير عوامل التطور بشكل يجعل من الصعب تطبيقها على حالات معينة للتحقق من صدقها .

نظرية التطور متعدد الخطوط(٤) Multilinear theory

وفى عام ١٩٤٨ قدم جوليان ستيوارت نظريته فى تفسير التطور الثقافى آخذا فى الاعتبار العناصر الايكولوجية ، حيث تطورت نظريته من أفكار سبق طرحها عن الايكولوجيا الثقافية ، ولاحظ ستيوارت أن الأدوات والموارد المستغلة داخل البيئات والتى تتشابه فى نوعيتها ، تنتج هياكل وأبنية اجتماعية متماثلة ، كما كان يفترض أن التاريخ سوف يكشف أن هذه العمليات الثقافية قد سلكت طرقا متوازية أيضا فى تطورها ؛ نظرا لأن أوجه التشابه مصدرها قوى متشابهة ، وتأكد لديه ذلك بصورة قاطعة من دراسته لحالة تطور المجتمعات بشكل متواز فى خمس مناطق جغرافية منفصلة ، وارتباط ذلك بالزراعة القائمة على الرى ، واعتبر أن الرى كاسلوب مرتبط بالبيئة وما يترتب عليه من استقرار ، قد نشأ فى سياقه نوع من التنظيم الاجتماعى والثقافى ، بينما تستطيع الجماعات التى تعيش فى ظروف بيئية أخرى مختلفة أن تستخدم تكنولوجيا مختلفة وأن تسلك طرقا أخرى للتطور ، كما يترتب على ذلك صياغة تنظيمات أخرى تتفق وتلك الظروف البيئية ، وأطلق على نظريته هذه التطور الثقافى متعدد الخطوط .

---

(٤) Op. cit., pp. 220.

وعلى العكس مما فعل « ليسلى هوايت » عندما حاول تقديم نظرية فى تفسير تطور الثقافة الانسانية كلها — نجد جوليان ستيوارت يركز جهوده فى تقديم نظرية تفسر ظهور المؤسسات الاجتماعية بصورة منظمة فى عدد محدد من المجتمعات ذات التجارب التاريخية المتشابهة • ومن ناحية أخرى تمثل نظرية ستيوارت أسلوبا لتحديد أسباب التغير الثقافى واثبات صحة هذه الأسباب من خلال استخدام المنهج المقارن ، حيث قدم تفسيرا للتشابه الثقافى وتكرار التنظيمات الاجتماعية فى مجتمعات مختلفة بارجاعه الى التشابه الايكولوجى(٥) •

ولقد التقى كل من جوليان ستيوارت وليسلى هوايت فى بعض الجوانب بشأن تفسير التطور الثقافى وعوامل حدوثه ، وتمثل هذا الالتقاء فى افتراضهما أن تطور المجتمع والثقافة يترتب عليه نمو فى الوحدات الاجتماعية والسياسية من حيث حجمها ونطاقها ، كما يترتب عليه تقدم الكيانات الاجتماعية من الشكل البسيط الى المركب ، أى من التجانس الى التباين • وجدير بالذكر أن الفكرة ذاتها قد ظهرت فى كتابات المفكر الاجتماعى اميل دوركايم فى القرن التاسع عشر •

ويمكن توضيح ملامح تطور المجتمعات من البساطة الى التعقيد اذا ما عقدنا مقارنة ما بين مجتمع من مجتمعات الصيد • كالبوشمن بافريقيا ومجتمع آخر من المجتمعات الحديثة ، فسوف نجد أشكالا من تقسيم العمل أكثر تعقيدا فى المجتمعات الثانية ، ونظما للتدرج الاجتماعى والمكانات ومؤسسات متنوعة ، ونظما للضبط الاجتماعى تختلف عنها فى المجتمعات البسيطة ، ويشير الى ذلك ستيوارت بأن التدرج ما بين البساطة والتعقيد يمكن التعبير عنه « بمستويات التكامل الثقافى

---

(٥) أنظر : Steward, Julian : History of culture change, Urbana University of Illinois Press, 1976, pp. 10-20.

الاجتماعى » والذى تبـدو معالمه لدى الأسرة فى المجتمعات البسيطة ، وبعض المجتمعات القروية ، وبشكل خاص التى مازالت محتفظة بتريفها ، حيث يتمتع المجتمع بالاستقلال الذاتى .

ومن الملاحظ أن الايكولوجيين الثقافيين يولون أهمية كبرى للعوامل التكنولوجية والاقتصادية عند تفسيرهم للتكيف الثقافى الايكولوجى ، ولكنهم يدركون تماما أنها ليسـت عوامل مطلقـة ، فهناك العـوامل الايدولوجية والسيكولوجية والاجتماعية والسياسية ، ويتبلور الوعى بهذه العوامل من خلال ما ذهب اليه أحد رواد الايكولوجيا الثقافية وهو « ايريك وولف » Eric Wolf من أن الخصـائص الايدولوجيـة والسيكولوجية والاجتماعية للمجتمعات القروية تتفاعل معا للحفاظ على استمرار البناء التقليدى ، كما تقف حجر عثرة فى طريق أى محاولة لتغيير البناء الاجتماعى .

ويمكن القول بشـكل عام أن الايكولوجيـا الثقافية انطـوت على توجهات نظرية فى رؤيتها للتطور الثقافى ، فالتفاعل بين الانسان والبيئة هو تفاعل ايجابى ، ينطلق من خلاله الانسان للسيطرة عليها وتهيئتها لمعيشته ، وتصبح بذلك هذه البيئة بيئة ثقافية . وهو أمر يختلف فيه الانسان عن الكائنات الاخرى حيث تؤدى العمليـات البيولوجيـة — لا الثقافية أو الاجتماعية — دورا فى تحقق تكيفها مع البيئة ، ومن هذه العمليات التغيرات التى تحدث فى البناء الوراثى وعمليات الانتخـاب الطبيعى . ولكن الانسان يتميز من خلال تفاعله مع البيئة أنه يطوع الكثير من جوانبها لخدمته ، مكونا بذلك الثقافة .

ولقد اهتم رواد الايكولوجيا الثقافية بالطريقة التى يحاول الانسان بها التفاعل مع البيئة وابداع الثقافة . وخلصوا الى أن الاشكال المختلفة

التى يستخدمها الانسان لمواجهة البيئة التى يعيش فيها يترتب عليها أنواع من الصيغ أو الاشكال الثقافية(٦،٧) .

الحصاد الفكرى لرواد التطورية الثقافية :

بنى الرواد الأوائل للتطورية الثقافيـــة آراءهم على افتراض أن الثقافات البدائية ، انما تمثل نماذج لحالة الانسان الطبيعية أو الحالة الفطرية التى افترضوا أنها قد سبقت مرحلة المجتمع المنظم وافتقدت هذه الفرضية الى تدعيم امبيريقى أو واقعى . وقد وجهت انتقادات حادة من بعض المفكرين لذلك الاتجاه الفكرى ، ومن تلك الانتقادات تلك التى وجهها راد كليف براون عندما قال بأن رواد التطورية قد وقعوا فى عدة أخطاء منهجية أساسية منها :

١ — انصياعهم للبحث عن أصول الواقعة الاجتماعيـــة بدلا من الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الواقعة .

٢ — ان الفكر التطورى أفرز العديد من النظريات المتناقضة للظاهرة الواحدة من حيث تفســير أصلها وتطورها ، ومن ثم فقد افتقدت هذه النظريات للاتساق المنطقى .

٣ — اطلاقهم للكثير من التعميمات استنتاجا من وقائع فريدة كما حدث فى تفسرهم للتطور الثقافى استنادا الى البقايا الثقاغية المتمثلة فى بعض النظم البدائية . وقد أوقعهم ذلك على حد تعبير راد كلف براون فى محظور التاريخ الظنى(٨) .

---

(٦) انظر : فاروق مصطفى ، الأنثروبولوجيا الثقافية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٤٢ .

(٧)
White, Lesli : The evolution of culture, New York, Mc-Graw-Hill Book Company, 1969.

(٨) انظر: على ليله فى: البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا — المفاهيم والقضـــايا ، دار المعارف ، القـــاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، صص ١٦٦ — ١٦٧ .

٤ — ومن جانب آخر فان الافتراض بأن المجتمعات البدائية تمثل بقايا أثرية من التاريخ الانسانى القديم — وهو الافتراض الذى بنى عليه رواد التطورية معظم آرائهم — يفتقر الى الأسانيد التى تدعمه إذ أن الصور الثقافية التى يمكن مشاهدتها فى كثير من المجتمعات البدائية لا تؤكد هذا الافتراض ولا تدعمه ، كما أن هذه المجتمعات لم تكن تضم شواهد واقعية يمكن من خلالها فهم الجوانب الثقافية للانسان ، وان كانت هناك بعض البقايا المادية التى أمكن بفحصها التعرف على الجوانب الاجتماعية للعصور السحيقة ، الا أن المعرفة الاثنوجرافية المتاحة والأركيولوجية يصعب أن تسهم فى كشف الجوانب الثقافية للانسان فى مراحله السابقة بشكل دقيق ، وبذلك تصبح قضية التطور الثقافى والبحث فيها من أصعب المشكلات التى تواجه الأنثروبولوجيا ، والتى تصدى لبحثها رواد الفكر التطورى •

وبالرغم من هذه الانتقادات ، فهناك أسهامات بناءة تبدو كعلامات مميزة فى تطور البحث الانثروبولوجى وفى دراسة الثقافة منها :

١ — أن الفضل يرجع اليهم فى تحديد مفهوم الثقافة دون خلط أو لبس ، كما ظل شائعا من قبلهم ، حيث كان أكثر اختلاطا مع مفهوم العرق أو السلالة •

٢ — ان الحوار بين رواد هذا الاتجاه قد أسهم فى توضيح امكانية قيام علم للثقافة ، وذلك من خلال ادراكهم أن الظواهر الثقافية ليست عشوائية ، ولكنها تخضع كغيرها من ظواهر الفيزياء والبيولوجيا للقوانين والتعميمات ، وقد استطاع التطوريون أن يخلقوا نوعا من النظام فى

دراسة الثقافة ، وهو ما يعد شرطا أوليا وضروريا لاجراء بحوث ناجحة ، على الرغم من أن كثيرا من محاولاتهم لتحليل البيانات قد خضعت لانتقادات حادة ، ويمكن القول بأن المفكرين التطوريين قد وضعوا الأساس الأول لعلم الأنثروبولوجيا الثقافية .

٣ — وأدى الحوار حول موضوعات الثقافة الى استثارة كمية هائلة من البحوث الميدانية الموجهة ، وهو نوع من البحوث كان غير معروف تقريبا ، عندما كان الباحثون يعتمدون فى المقام الأول على بيانات وتقارير ملاحظين غير متخصصين ، ويمكن القول بأن هذا الاتجاه قد هيأ الأساس للمنهج الجدلى التاريخى لدى الاتجاه المادى التاريخى والنظرة العلمية الى التاريخ[٩، ١٠] .

ثانيا — الاتجاه الانتشارى فى تفسير الثقافة :

ظهر الاتجاه الانتشارى كمحاولة لتفسير عمليات التغير الثقافى للمجتمعات الانسانية ، وكرد فعل للاتجاه التطورى ، وبالرغم من مناوأة ذلك الفكر للاتجاه التطورى — كاتجاه سابق عليه تاريخيا فى الظهور — الا أن الاتجاهين لم يتجاوزا التاريخ عند تفسيرهما لظاهرة الاختلافات الثقافية بين المجتمعات الانسانية .

وتتلخص الخطوط الفكرية لهذا الاتجاه فى أن الاتصال بين الشعوب قد نتج عنه احتكاك ثقافى ، وانتشار لبعض السمات الحضارية ، ومن ثم فقد أضاف رواد هذا الاتجاه الى جانب المنهج التاريخى فى التحليل ، منهجا جغرافيا ، وذلك بفعل تأثير المدرسة الجغرافية الالمانية والتى من

---

(٩) انظر : رالف بيلروهارى هويجر ، فى الانثروبولوجيا العامة — مرجع سابق صص ٧٦٥ — ٧٦٦ .

(١٠) وانظر ايضا : لوسى مير فى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة علياء شكرى وحسن الخولى ، القاهرة دار الثقافة ، ١٩٨٥ ، ص ٤٧ .

روادها « فردريك راتزل » والذى يصنف فى الوقت ذاته من رواد الانتشارية . وكمحصلة لعمليات الانتشار افترض رواد هذا الاتجاه أن هناك مركزا حضاريا محددا انتقلت منه السمات الثقافية الى باقى أجزاء العالم ، وذلك من خلال مجموعة من العمليات كالاحتكاك الثقافى والذى يتم عن طريق التجارة أو الغزوات أو الهجرة ، ثم اتسعت دائرة هذه السمات لتنتشر من المركز الى الأجزاء المحيطة والتى يسببها ذلك الاحتكاك . وقد دعم هذه الآراء بجانب « راتزل » عالم التشريح البريطانى « اليوت سميث » . واستمرت الانتقادات التى وجهها رواد الانتشارية الى فكرة التطور الخطى ، وكان أشهرها تلك التى نشرها « روبرت لوى » عام ١٩٢٠ فى كتابه عن المجتمع البدائى ، وهو أحد تلاميذ بواس حيث هدم الكثير من الأفكار التى بنى عليها التطوريون نظريتهم حول القرابة ونظم الزواج ، رافضا بذلك فكرة أشكال الزواج المتعددة التى سبقت نظام الأسرة بشكلها الراهن ، والذى تكاد تعرفه معظم ثقافات العالم المتحضر ، مؤكدا بذلك أن الأسرة النووية هى أكثر الأنماط شيوعا فى أبسط المجتمعات من حيث التكنولوجيا ، كما أنها كانت موجودة وتمثل وحدة القرابة الرئيسية فى بعض المجتمعات البسيطة مثل هنود الشوشونى وجماعات الاسكيمو وغيرهما من الجماعات التى تعيش على حدود الكفاف المطلق . كما اعترض على القول بأسبقية النظام الامومى على النظام الأبوى ، وقد جمع لوى الكثير من الأدلة على أن نظام العشيرة Clan لم يكن منتشرا لدى الشعوب التى تعيش تكنولوجيات بسيطة ، واستنتج أن العشيرة كشكل للجماعة القرابية كانت توجد بصفة خاصة فى المجتمعات التى وصلت الى مستوى متوسط من حيث التركيب الاجتماعى والكفاءة التكنولوجية .

ومن الانتقادات الأخرى التى ساقها رواد الانتشارية وكانت بمثابة

تدعيم لفكرة الانتشار الثقافى ، أن التطورية قــد ركزت على المقومات الذاتية أو الداخلية للمجتمعات فى نموها ، بيد أن التطور الثقافى تلعب فيه المؤثرات الخارجية دورا هاما من خلال عمليات الانتشار ، أو انتقال مكونات الثقافة من مجتمع الى آخر ، مدعمين ذلك الرأى ببعض المجتمعات التى تتخطى مراحل بكاملها من خلال دخول تكنولوجيات حديثة أو من خلال الاتصال بمجتمعات أكثر تقدما ، دون المرور بالمسارات التى حددها رواد التطورية .

فرانس بؤاس والاتجاه التاريخى التجزيئى فى دراسة الثقافة :

قدم بؤاس رائد المدرسة الأمريكية رؤيته فى تفسير انتشار الثقافة بقوله أن الثقافة تنتقل من منطقة محددة الى مناطق أخرى ، وهى مغايرة الى حد ما عما ذهب اليه رواد الانتشارية فى أوربا . وبالرغم من الاتفاق على بعض القضايا الأســاسية بين المدرستين الأوربيــة والامريكية ، وبشكل خاص فكرة انتشار السمات الثقافية والاســتعارة ، كأساس لتفسير التباين الثقافى بين الشعوب ، الا أن هناك الاختلافات التى أوردها رواد الانتشارية فى أمريكا ، والتى منها ان الملامح المميزة لثقافة ما وجدت فى مركز جغرافى محــدد ثم انتقلت الى منــاطق أخرى ، وبذلك رفض الانتشاريون الامريكيون ما ذهب اليه الأوربيون من الزعم بعدم امكانية التطور المستقل ، وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين[11] .

ولقد أثيرت قضية ما اذا كانت مكونات الثقــافة قــد انتقلت الى المجتمع من خلال الانتشار الثقافى والعمليات المؤدية اليه ، أم ان هذه العناصر قد كتب لها الوجود من خلال الاختراع ، وظل حسم هذه القضية معلقا ومثارا للجدل والنقاش لصعوبة وجود الشواهد التى تؤكد هــذا

---

(١١) حسين فهيم — مرجع سابق ، ص ١٦١ .

الرأى أو ذاك ، فعلى الرغم من الدور الهام والذى يؤديه الانتشار فى نقل عناصر الثقافة ، الا أن هناك أمثلة متنوعة لابتكارات انسانية تتميز بالاستقلال فى نطاقها الجغرافى والثقافى عن مجتمعات أخرى تمثل مركزا جغرافيا لمصدر السمات الثقافية وهجرتها واستعارتها عن طريق الاتصال بين الشعوب •

واستخدم بؤاس مصطلح المناطق الثقافية مشيرا بذلك الى مجموعة من المناطق الجغرافية التى تتصف كل منها بنمط ثقافى معين ، بغض النظر عن احتواء هذه المناطق لعديد من الشعوب ، كما أجرى العديد من البحوث الميدانية ليختبر من خلالها فروضه النظرية فى الواقع — وذلك من خلال دراساته على بعض المناطق التى يقطنها الهنود الحمر • ويرجع الفضل الى المدرسة الانتشارية فى طرح فكرة تعدد وتنوع الثقافات ، وفكرة النسبية الثقافية والتى أصبحت من الأفكار الأساسية فى الأنثروبولوجيا الثقافية فيما بعد •

ثم كانت جهود كلارك ويسلر الذى حاول من خلالها تطوير الأفكار الخاصة بنظرية العمر والمنطقة ، وكان معاصرا لبؤاس • ومن الواضح تأثره بعمله فى متحف التاريخ الطبيعى الامريكى ، ففكرة العمر والمنطقة الثقافية أسهم فى بلورتها ذلك الرافد المعرفى الممتد من العلوم البيولوجية، وأيضا الدراسات الاركيولوجية التى حاولت الانثروبولوجيا الاستفادة منها فى الوقوف على بعض الحقائق التاريخية حول الانسان ونشأته • ويمكن تحديد الأفكار الأساسية لفكرة العمر والمنطقة فيما يلى :

١ — ان العناصر الثقافية تتجه الى الانتشار بنفس المعدل فى كل الاتجاهات انطلاقا من نقطة المنشأ •

٢ — ان المنطقة التي انتشر فيها عنصر معين تدل الي حد ما على

عمر هذا العنصر بالقياس الى العناصر الاخرى المنتشرة داخل الاقليم .

٣ — أن بعض عناصر الثقافة المادية وغير المادية تميل الى التجمع فى أقاليم معينة أطلق عليها ويسلر اسم المنطقة الثقافية .

٤ — أن كل شعب من شعوب المنطقة الثقافية يتميز ببعض العناصر المشتركة السائدة داخل المنطقة الثقافية بدرجة تقل أو تكثر ، فهى ليست متطابقة تماما فى الشدة .

٥ — ان السمات التى تميز المنطقة الثقافية الواحدة يقل وضوحها كلما ابتعدت الجماعة جغرافيا عن المركز الثقافى للمنطقة .

٦ — ان الشعوب التى تسكن تخوم مراكز الثقافة أو مناطق المركز تختلط لدى سكانها السمات الثقافية لان ثقافتها تكون مشتقة من أكثر من مركز ثقافى(١٢) .

ثالثا — الاتصال الثقافى وعمليات التثاقف :

شاع اصطلاح الاحتكاك أو الاتصال الثقافى فى كثير من الكتابات الاثنولوجية فى أوائل القرن العشرين ، على أساس الاهتمام بموضوع تأثر الثقافات بعضها ببعض نتيجة للاتصال أيا كانت طبيعته ومدته وأهدافه ، وفى هذا السياق ركز الاثنولوجيون على ظاهرة الاتصال الثقافى التى تمت بسبب الغزو الاستعمارى الذى حدث من بعض الدول الأوربية لبعض الدول الأخرى ، والآثار التى ترتبت على ذلك الالتقاء بين ثقافتين مختلفتين الأوربية والتقليدية . وقد صاغ الانثروبولوجى الامريكى « ميلفن هيرسكوفيتس » Herskovits مصطلح التثاقف أو التزاوج الثقافى ليعبر عن موقف التقاء الثقافات المتباينة وحدوث التفاعل بينهما

---

(١٢) انظر : رالف بيلر وهارى هويجر ، مرجع سبق ذكره ، صص ٧٢٢ — ٧٢٣ .

سلبا أو ايجابا ، وشاركه فى ذلك « رالف لينتون » و « روبرت ردفيلد » وبشكل خاص فى صياغاتهم لتعريف وتحديد مفهوم التثاقف حيث ذهبوا الى أنه يشمل التغير الثقافى الذى يطرأ على بعض الظـواهر كمحصلة لدخول جماعات من الأفراد فى علاقات مباشرة • ويكون هؤلاء الأفراد أو هذه الجماعات من ثقافات متباينة ، اذ يترتب على ذلك تغيرات فى الأنماط الثقافية الأصيلة السائدة فى احدى هذه الثقافات • وتتباين عادة أسباب حدوث الاتصال بين الثقافات وطبيعته ، وقد اهتم الاثنولوجيون بدراسة السمات الثقافية التى تأخـذها الجماعات من بعضها البعض وكيفية انتقال هذه السمات ، والأسس التى تتحكم فى ذلك ، ومن رواد هذا الاتجاه « مارجريت ميد » التى درست التغير الثقافى فى أحد مجتمعات الهنود الحمر بعد احتكاكهم بالمستعمرين البيض ، وقد أجرت مارجريت ميد هذه الدراسة فى أوائل الثلاثينيات وكشفت التغيرات التى أصابت الحياة التقليدية بمجتمع الهنود الحمر ، كما رصدت حالة الصراع الثقافى الذى عاشته الثقافة الهندية عندما حاول البيض احتواءهم داخل الثقافة الأوربية •

وهناك أيضا دراسات الباحث الأمريكى هيرسكو فيتس الذى ساهم بها فى مجال التغير الثقافى فى أفريقيا ودعم بها فكرة النسبية الثقافية[(١٣)] •

ويعكس الاهتمام بهذا الموضوع اقتناعا من قبل الانثروبولوجيين بدور الاتصال الثقافى فى عمليات التغير ، وذلك بعد أن ظلت بحـوث الانثروبولوجيا لسنوات طويلة موجهة نحو تصنيف الثقافات ووصفها ، وبعد أن بات مؤكدا لهم أن الثقافات القديمـة تتعرض بشـكل مستمر لعمليات الغزو التى تعمـل على تقويض دعاماتها ، فدخول الثقـافات

---

(١٣) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع : انظر : حسين فهيم ، مرجع سابق ، ص ص ١٩٨ — ٢٠٠ •

الغربية الى العديد من المناطق التى تضم مجتمعات بسيطة أحدث الكثير من التغيرات فى طريقة الحياة لسكان هذه المناطق ، كما عرض السمات الثقافية لبعض هذه الجماعات للانقراض تماما بسبب دخولها فى علاقات غير متوازنة مع تكنولوجيات أوربية متطورة ، وليس ذلك فحسب بل أدى التزاوج بين سكان بعض المناطق مع الأوربيين الى حدوث تغيرات فيزيقية غيرت ملامح السكان الأصليين •

والأمثلة على عمليات الغزو الثقافى متنوعة فقد انزوى الهنود الامريكيون فى مجتمعات خاصة بهم ، وأجبر شعب جنوب افريقيا على العمل فى مناجم ومزارع البيض ، وابتعد الأحياء من هنود البرازيل الى داخل أمريكا الجنوبية •

ويحدث الاتصال الثقافى أو التثاقف عادة عندما تتصل ثقافتان أو أكثر • وجدير بالذكر أن ذلك الالتقاء من الأمور الشائعة والتى تمثل عنصرا هاما بل ومن أكثر العناصر عمومية فى احداث التغير الاجتماعى ، والذى يتحقق من خلال العمليات المتصلة بالتثاقف ، فالمحاكاة والسيطرة والاكراه والعلاقات الودية أحيانا تحقق تفاعلا بين الثقافات الملتقية ، وهناك من الحالات التى تمثل نموذجا واضحا لدخول الثقافات فى علاقات معا ، فقد فرض الأسبان المسيحية على الهنود فى المناطق التى استعمروها، كما تؤكد الكثير من الدراسات ان هنود المكسيك اكتسبوا عادات الغزاة الأسبان ، وغير ذلك من النماذج كالتغيرات التى تصيب المجتمعات الريفية وتفقدها سمات تريفها •

وكثيرا ما ينساب تيار الثقافة من الجماعة الأقوى الى الأضعف ، بيد أن ذلك ليس شكلا مطلقا ، اذ قد يحدث عكس ذلك حيث تتسرب بعض السمات من الجماعة الأضعف الى الجماعة الأقوى • وبشكل عام يمكن القول أن المجتمعات التى كانت تمثل حقلا للدراسات الانثروبولوجية فى

بدايات القرن الحالى تكاد تكون قد انقرضت أو تلاشت تماما الكثير من سماتها الثقافية التى كانت تميزها ، ونجد فى التحليل النهائى أن عملية التثاقف أو الاتصال بين الثقافات ستقضى على ما تبقى من هذه الثقافات ، وأن جميع شعوب العالم تنجرف نحـو المجتمع الصناعى الكبـير ، أو بالأحرى النموذج الثقافى الأوربى •

وتتضمن عمليات التثاقف عددا كبيرا من المتغيرات والعمليـات منهـا :

١ — **درجة الاختلاف الثقافى :** حيث تؤثر درجة اختلاف الثقافات المتصلة وذلك من حيث طبيعة التكنولوجيا السائدة فى كل منها ، والأفكار والقيم ، وطبيعة البناء الاجتماعى •

٢ — **طبيعة الاتصال الثقافى :** فقد يكون الاتصال عدائيا كالذى يتم من خلال عمليات الغزو ، أو الاتصال الذى يتم من خلال علاقات ودية بين ثقافتين ، ويحدد هذا المتغير نمط وطبيعة الاتصال الثقافى •

٣ — الوسطاء الذين يلعبـون دورا بارزا فى الاتصـال الثقافى ، وهؤلاء الوسطاء قد يكونون تجارا أو موظفين حكوميين ، أو عسكريين أو بعثات تبشيرية •

ويترتب على ما سبق حالات من التفاعل بين الثقافات وتحـدث العمليات التالية أو أى منها :

الاحلال : ويتم من خلال انتقال سمة أو مركب ثقافى جديد محل سمة ثقافية كانت موجودة من قبل وتؤدى نفس الدور •

التوفيق : وفى هذه الحالة تندمج سمات ثقافية جديدة مع سمات قديمة لتشكل نسقا فرعيا جديداً •

التفكك الثقافى : فقد يؤدى الاتصال الثقافى الى فقدان جانب من

جوانب الثقافة دون ظهور جانب آخر يحل محله ، وبمرور الوقت على عمليات الاتصال الثقافى ، يحدث ما يسمى بالتوحد أو التمثل للثقافتين ، ويصعب التميز بين عناصر كل ثقافة على حدة ، أو يحدث ما يسمى بالاندماج حيث تعقد كل ثقافة معينة استقلالها ولكنها تظل قائمة كثقافة فرعية ، أو يحدث ما يسمى بالتكيف حيث يتحقق توازن بنائى داخلى جديد أو تنقرض ملامح احدى الثقافتين(١٤) .

رابعا — الانثروبولوجيا والقضايا المعاصرة :

شهدت العقود الأخيرة من القرن الحالى اهتمامات جديدة للانثروبولوجيا ، فتحولت من الاهتمام بالقضايا التى شغلت البحث فيها لسنوات طويلة ، كتاريخ الثقافة وتطورها ، ونشأة النظم الاجتماعية وتطورها . الى الاهتمام بالمشكلات التى واكبت تقدم المجتمعات ، كالتغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المصاحبة لنقل التكنولوجيا ، وذلك فى اطار ما يسمى بالتنمية الشاملة ، والتى عرفت فى الانثروبولوجيا بالتغير المخطط أو الموجه ، وازدهرت فى غضون هذا الاهتمام الانثروبولوجيا التطبيقية ، وانثروبولوجيا التنمية ، وهى فروع استفادت من التراث الانثروبولوجى فى القاء الضوء على مشكلات التنمية فى البلدان النامية ، وعوامل تعثرها فى قبول بعض لتغيرات المنشودة فى هذه المجتمعات ، سواء فى مجال الصحة أو التعليم أو الاستهلاك ، أو فى مواجهة مشكلات الهجرة والتوطن والتحضر .

ولقد أدت عمليات التحديث Modernization الى انتقال الكثير من المجتمعات الريفية الى حالة أقرب الى التحضر وصاحب ذلك

---

(١٤) انظر : رالف بيلز وهارى هويجر ، الجزء الثانى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٠١ — ٨٠٢ .

الكثير من المشاكل ، حيث خرجت النظم التقليدية من نطاق عزلتها بسبب قوى خارجة عن نطاق سيطرة هذه النظم ، كما لم تعد مجتمعات محققة للاكتفاء الذاتى بل أصبحت تعتمد على غيرها من المجتمعات ، وانخرطت بذلك فى فلك الاقتصاد العالمى ، ولقد بذلت المنظمات الدولية الكثير من الجهود لتسهيل عمليات التحول وتذليل الصعاب التى تواجه أفراد المجتمع فى التكيف مع النظم الاجتماعية والثقافية المستحدثة . وتحقق ذلك فى شكل مساعدات مادية وتكنولوجية وفنية وبشرية . الا أن تأثير هـذه الجهود مازال محدود النطاق .

أما التغيرات الكبيرة التى تحدث فى العالم ، فقد أسهمت وسائل الاتصال فى كسر حاجز العزلة بين المجتمعات واقتربت الثقافات من بعضها ، ومن جانب آخر فان المجتمع الحديث يسير بخطى واسعة نحو التغير(*) وهو أمر يجعل الناس أكثر عرضة للقلق والاضطراب فى ذلك الاطار التكنولوجى المعقد . وهى أمور تزيد من عزلة الفرد وقلقه ، ويصبح من الصعب على الأفراد ملاحقة حركة التغير ، ويزيد هذا من مسئولية العلوم الانسانية بشكل عام فى مواجهة هذه المشكلات ومن مسئولية الانثروبولوجيا بوجه خاص كعلم يهتم بدراسة الانسان .

* * *

(*) أنظر التفاصيل فى الفصل الرابع .

الفصل الثالث

خصائص الثقافة

الفصل الثالث

خصـــائص الثقـــافة

* * *

تقـــديم :

حظى موضوع الثقافة باهتمام بالغ من قبل علماء الأنثروبولوجيا ، سواء نشأتها أو تطورها ، أو عوامل تغيرها ، أو خصائصها أو تحـــديد مضمونها • وأصبح التراث الانثروبولوجى حافلا بعديد من النظريات والمدارس الفكرية التى تصدت بالبحث والدراسة لهذه الموضوعات ، كما أفرز البحث فى ذلك الموضوع الكثير من القضايا المتصلة به ، والتى شكلت محورا لاهتمام الانثروبولوجيا الثقافية ومنها — الاتصـــال الثقافى ، والتغير الثقافى ، والتخلف الثقافى ، والنسبية الثقافية ، والتطور الثقافى، والتثاقف وغيرها من الموضوعات •

ويعكس ذلك الاهتمام أهمية موضوع الثقافة من منظور الباحثين فى الانثروبولوجيا ، ونظرتهم الى الثقافة باعتبارها الخاصية الفريدة التى تميز الانسان عما عداه من الكائنات الاخرى ، وباعتبارها ظاهرة أنسانية واجتماعية تسود كافة الجماعات البشرية بغض النظر عن مكانة هـــذه الجماعات فى سلم التطور الاجتماعى ، فالأنثروبولوجيون ينظرون الى الثقافة باعتبارها أشكالا للسلوك يبتدعها الانسان لكى تفى بمتطلباته وحاجاته الأساسية • ومن هذا المنظور يصبح لكل مجتمع ثقافته ، وبرغم وضوح هذه الحقائق الا أن دراسة موضوع الثقافة قد صادف الكثير من اللبس والغموض لعوامل تتصل بنشأة الانثروبولوجيا ، والاهتمامات التى كانت موجهة اليها ، وتركيزها على مناطق جغرافية محددة •

ولقد تبلورت ملامح الاتجاه الثقافى فى دراسة المجتمع على يد علماء الانثروبولوجيا الامريكيين ، تماما كما تبلور الاتجاه البنائى على يد علماء الانثروبولوجيا البريطانيين والفرنسيين ، فمن خلال الاهتمام بدراسة المجتمعات البدائية ذات الخصائص المتميزة سيطرت فكرة البناء الاجتماعى على الانثروبولوجيا كمدخل لفهم المجتمع . وعلى الجانب الآخر كان الاهتمام بمجتمعات الهنود الحمر من علماء الانثروبولوجيا الامريكيين ، وفى هذا السياق ظهرت فكرة الثقافة كمدخل ملائم لدراسة المجتمع ، حيث كانت هذه المجتمعات تعيش فى تنظيمات تقل فى وضوحها عن التنظيمات التى كانت تعيشها القبائل الافريقية .

وسوف نتناول فى الصفحات التالية موضوع الثقافة من خلال العناصر التالية :

أولا : تحديد مفهوم الثقافة .
ثانيا : تعريفات الثقافة .
ثالثا : خصائص الثقافة .
رابعا : عناصر الثقافة .

أولا — تحديد مفهوم الثقافة :

يستخدم الانثروبولوجيون مفهوم الثقافة لوصف الجوانب المشتركة لبعض أنواع السلوك التى بلغت مبلغا عاليا من التطور عند الانسان ، وان تكن موجودة بدرجة أو بأخرى عند بعض الكائنات الأخرى[1] . ولكنها لا تتسم بذلك التنوع الذى تكون عليه لدى الانسان، فعادات الطعام والملبس والمأكل والمسكن ، وعادات التزين ، وأنماط السلوك تختلف من جماعة الى أخرى ، ومن الملاحظ أن علماء

---

(١) انظر : رالف بيلز ، هارى هويجر ، مرجع سبق ذكره ، ص١٣٥ .

الانثروبولوجيا ينظرون الى الثقافة بشكل أكثر اتساعا ، فعلماء الاجتماع يقسمون الثقافة الى قسمين ثقافة مادية وتعنى المخترعات والتكنولوجية ، أو كل منتج انسانى ملموس ، وثقافة لا مادية وتعنى القيم والعادات والتقاليد ومعايير السلوك الانساني أو كل ما ينتقل من جيل الى جيل ، وفى هذا الصدد تشير نظرية « وليم اوجبرن » الى ما يعرف بالفجوة الثقافية أو الهوة الثقافية Cultural Lag ، والتى فسر فى ضوئها عوامل تغير المجتمعات ، كما يستخدم علماء الاجتماع كلمة حضارة Civilization بمعنى كلمة ثقافة Culture ، ويعتقد البعض أن مصطلح حضارة يعنى درجة معينة من التقدم والرقى والتحضر فى ثقافة شعب من الشعوب . الا أن علماء الانثروبولوجيا ينظرون الى ذلك المفهوم بشكل مختلف .

ويرجع الفضل فى تحديد مفهوم الثقافة وشيوعه في الدراسات الانثروبولوجية الى أحد رواد الانثروبولوجيا الثقافية وهو « ادوارد تايلور » E. Tylor ، حيث قدم تعريفا للثقافة فى كتاب له صدر بعنوان « الثقافة البدائية » Primitive Culture سنة ١٨١٧ فيعرفها بقوله : « أن الثقافة هى ذلك الكل المركب الذى يشتمل على العادات والمعتقدات أو العقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات ، أو العادات التى يكتسبها الانسان بوصفه عضوا فى المجتمع ، كما تتضمن الأشياء المادية والفنون العملية » .

ولقد أصبح تعريف تايلور للثقافة بمثابة نقطة انطلاق لمعظم التعريفات التى تناولت الثقافة ، كما سيطر ذلك المفهوم الذى تحدد فى التعريف على أبحاث ودراسات الانثروبولوجيا الثقافية لأكثر من نصف قرن ، ولم تظهر الاختلافات حول هذا التوجه الا عندما ظهرت بعض التعريفات الأخرى كتلك التي توصل اليها العالمان الامريكيان « كروبير

وكلاكهون » من ان الثقافة هى تجريد للسلوك ، ووافقهما على ذلك « رالف بيلز » و « هارى هويجر » عندما أكدا أن الثقافة هى تجريد مأخوذ من السلوك الانسانى ، ويمكن ملاحظتها فى الأفعال ، وفى أنماط السلوك، ولكنها ليست ذلك السلوك الذى يقوم به الانسان(٢) •

وكمحصلة لذلك تبلور اتجاهان أساسيان حول تحديد مفهوم الثقافة :

الأول : هو الاتجاه الواقعى ومن رواده « تايلور » و « بؤاس » وينظر رواد هذا الاتجاه الى الثقافة باعتبارها صفة تميز السلوك الانسانى ، كما أن هؤلاء الواقعيين يرون أن الثقافة لها وجود خاص مستقل عن الأفراد الحاملين لها ويؤكدون على أهمية التراث الثقافى ويعتبرونه مؤلفا من الأشياء المادية وغير المادية كالأفكار والعادات والتقاليد والمثل •

أما الاتجاه الثانى فهو المثالى : ومن رواده كلاكهون وكروبير وغيرهم وينظر رواد هذا الاتجاه الى الثقافة باعتبار انها مجموعة من الأفكار فى عقول الأفراد ، وانها جزء من الكائن العضوى تتخذ شكل أفكار وآراء أو معلومات نستخدمها فى تحديد السلوك ولقد دعا ذلك بعض رواد هذا الاتجاه الى رفض فكرة اعتبار الماديات مكونا ثقافيا(٣) •

وفى هذا السياق يلخص د• عاطف وصف هذه المناقشات التى أثيرت حول تحديد مفهوم الثقافة فى أنها قد أثمرت اتجاهين فكريين هما الاتجاه الواقعى ويرى أن الثقافة هى كل يتكون من أشكال السلوك

---

(٢) أنظر : عاطف وصفى فى : الأنثروبولوجيا الثقافية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٥ ، ص ١٦٩ •

(٣) أنظر : فاروق مصطفى فى : الأنثروبولوجيا الثقافية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ ، صص ٩٤ — ٩٥ •

المكتسب والخاص بمجتمع انسانى معين أو بجماعة معينة من البشر والاتجاه التجريدى الذى يرى أن الثقافة هى مجموعة من الأفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس الذى يشتمل على أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو بجماعة معينة .

وقد عارض ليزلى هوايت الاتجاه التجريدى وأخذ بالاتجاه الواقعى معللا ذلك بأن اعتبار الثقافة دربا من دروب السلوك الانسانى سيجعلها ضمن موضوعات علم النفس ، وسيفقد الانثروبولوجيا بذلك هويتها[٤] .

ثانيا — تعريفات الثقافة :

من الصعب أن نقدم تعريفا دقيقا لمفهوم الثقافة ويغطى كافة الجوانب الخاصة بها ، ويتفق عليه معظم علماء الانثروبولوجيا الثقافية . ولقد قام كل من « كروبير » و « كلايد كلاكهون » فى حوالى عام ١٩٥٢ بجمع وتحليل ما يربو على مائة تعريف من تعريفات الثقافة التى صاغها العلماء ، ولاحظا أن السمة المشتركة لهذه التعريفات هى أن الثقافة تكتسب عن طريق التعليم[٥،٦] ، كما أنها ترتبط بجماعة اجتماعية معينة ، وقاما خلال هذه المحاولة بعرض وتصنيف للمفاهيم والتعريفات الخاصة بالثقافة فى التعريفات التالية :

١ — التعريفات الوصفية للثقافة :

وتتميز هذه المجموعة من التعريفات بأنها تقف عند الوصف ، أى

---

(٤) انظر : عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ص ٦٦ — ٦٧ .

(٥) Cluckhon, C. : The concept of cluture, in Daniel Lerner & Harold D. Lasswell (eds.), The Policy Sciences, pp. 86-95.

(٦) Krober and Clyde Kluckhohn «Culture» : A critical Review of concepts and definitions» New York Vintage Books, 1967.

أنها تصف ماهية الثقافة ، ومنها على سبيل المثال بل وأشهرها تعريف « تايلور » الذى سبق ذكره ، وكذلك تعريف « كلارك ويسلر » الذى ذهب فيه الى أن الثقافة « يقصد بها جميع الأنشطة الاجتماعية بأوسع معانيها مثل اللغة ، والزواج ونظام الملكية ، والصناعات وغيرها » .

كما يندرج تحت هذه الفئة من التعريفات الوصفية للثقافة تعريف رالف لنتون R. Linton الذى يرى أن الثقافة هى ذلك المجمـوع الكلى للأفكار والاستجابات العاطفية المشروطة ونماذج السـلوك التى يكتسبها أعضاء المجتمع عن طريق التوجيه والمحاكاة والتى يشتركون فيها بدرجات متفاوتة .

أما « مالينوفسكى » فيعرفها بأنها ذلك الكل المتكامل من الأدوات والسلع والأفكار والمعتقدات ، والأعراف لمختلف الفئات الاجتماعية[٧] . كما يعرفها كروبير بأنها تعنى جملة ما ينتجه البشر ، وبذلك فالثقـافة هى قوة هائلة تؤثر فى البشرية بكل أفرادها وجماعاتها .

ويعكس تحليل هذه التعريفات حول الثقافة انها كل شامل أو وحدة شاملة ، تتعدد مظاهرها لتشتمل على الجوانب المادية مثل الصـناعات والأدوات والمنتجات المادية ، وغير المادية والتى تتمثـل فى الأفـكار والمعتقدات واللغـة والأعراف والمعـايير أو بالاحرى على الجـوانب المعنوية .

٢ — التعريفات التاريخية للثقافة :

وتتميز التعريفات التاريخية بتحديدها لمفهـوم الثقـافة فى اطار تاريخى لتجعل من الثقافة مجموعة من السمات التى تتراكم وتنتقل عبر

---

(٧) Malinovski : A scientifi theory of culture, Chapel Hill, North Carolina, 1944, p. 36.

الأجيـال ، باعتبارها نتـاجا للوراثة الاجتماعيـة الى جانب الوراثة البيولوجية ، ويتأكد ذلك من خلال وجود الفرد فى جماعة اجتماعيـة معينـة .

ومن نماذج التعريفات التاريخية للثقافة تعريف « مارجريت ميد » عندما تذهب الى أن الثقافة هى ذلك الكل المركب من السلوك الذى نماه وطوره الجنس البشرى ، ويتعلمه جيل بعد جيل دون توقف ، ويقترب من ذلك التعريف ما يراه « راد كلف براون » من أن الثقافة هى جملة اكتساب التقاليد الثقافية ، كما انهـا العملية التى تنتقل بها اللغـة والمعتقدت والأفكار والأذواق الجمالية والمعرفة والمهارات ، ومختلف الاستخدامات — من شخص الى شخص ومن جيل الى جيل » .

وتجلو خصائص النظرة التاريخية فى تحديد مفهـوم الثقافة من تعريف « رالف لنتون » الذى يرى فيه « أن الثقافة هى مجمل تراث البشرية الاجتماعى » .

ويؤخذ على التعريفات التاريخية نظرتها الى الانسـان باعتباره حاملا سلبيا للتراث والثقافة ، وبالرغم من أن الحقائق تؤكد عكس ذلك فى كثير من جوانب الثقافة ، حيث تتلاشى بعض السمات وتندثر فى اطار عمليات التحول التاريخى للمجتمعات ، كما يحدث احـلال لكثـير من السمات والتى تكون أكثر ملاءمة لاستمرار الجماعة وتفاعلها مع البيئة التى يحيا فيها[٨] .

٣ — التعريفات المعيارية للثقافة :

وتتميز هذه التعريفات بأنها تجعل من الثقافة أسلوبا للسلوك ،

---

(٨) انظر : سامية الساعاتى : الثقافة الشخصية ، مكتبة جامعة عين شمس ، ١٩٨٣ ، ص ١٦ ومابعدها .

وقواعد محددة له ، يجب على الأفراد اتباعها فى مواقف الحياة المختلفة . كما انها تشكل سلوك الأفراد فى هذه المواقف .

ومن أشهر التعريفات المعيارية للثقافة تعريف كلارك ويسلر الذى يشير الى أن الثقافة هى أسلوب الحياة أو طريقة الحياة The way of life الذى تتبعه جماعة من الجماعات ، والذى يتضمن مجموعة المعتقدات والاجراءات المقننة التى تتبعها الجماعة .

كما يعرف « هيرسكوفيتش » الثقافة بأنها أسلوب الحياة المتميز لشعب من الشعوب .

أما « رايموند فيرث » فيعرفها بأنها الأفعال التى يؤديها الأفراد باعتبارهم أعضاء فى مجتمع ، كما تشتمل على أساليب السلوك التى يمارسها هؤلاء الأعضاء .

معنى ذلك أن هذه التعريفات تعنى بكلمة أسلوب لحياة الجماعة ما يلى :

— ان أنماط السلوك هى بمثابة نماذج مشتركة أو شائعة وتحددها الثقافة .

— انها تتضمن العديد من الضوابط والجزاءات التى تقع على الفرد اذا لم يتبع هذه الضوابط أو القواعد .

— ان الثقافة هى أسلوب للسلوك .

— انها مخططات أو برامج لصياغة أفعال الأفراد داخل جماعة اجتماعية معينة(٩) .

وقد خرج كلاكهون وكروبير بتعريف خاص عن الثقافة بعد هذه التصنيفات مؤداة « أن الثقافة هى جميع مخططات الحياة التى تكونت

---

(٩) أنظر : سامية الساعاتى فى : الثقافة والشخصية — مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ ، ١٩٨٣ .

على مدى التاريخ . بما فى ذلك المخططات الضمنية والصريحة ، والعقلية واللاعقلية وغير العقلية ، وهى توجد فى أى وقت كموجهات لسـلوك الناس عند الحاجة » .

أو كما يقول كلاكهون أيضا : « أن ثقافة مجتمع من المجتمعات هى نسق تاريخى المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية ، ويشترك فيه جميع أفراد المجتمع ، أو أفراد قطاع خاص معين من المجتمع[١٠] » .

ثالثا — خصائص الثقافة :

للثقافة مجموعة من الخصائص أهمها :

١ — أنها ظاهرة انسانية .

٢ — أنها تكتسب بالتعلم .

٣ — أنها تجريد للسلوك .

٤ — أن الرمز يلعب دورا هاما فى صياغتها .

٥ — أنها أداة للتكيف .

٦ — انها تتضمن نمطا مثاليا وآخر واقعيا للسلوك .

٧ — تضم الثقافة ثقافات فرعية فى داخلها .

وسوف نتناول فيما يلى هذه الخصائص بالشرح .

١ — الثقافة ظاهرة انسانية :

بمعنى أن الانسان وحده هو الذى ينفرد بخاصية الثقافة ، والتفرد بهذه الظاهرة ، وصنعها ، والحفاظ عليها ، فالانسان يتعلم قدرا من السلوك يفوق بكثير القدر الذى يتعلمه أى كائن آخر ، كما أن الكائنات

---

(١٠) أنظر : رالف بيلز وهارى هويجر ، مرجع سـبق ذكره ، ص ١٣٩ .

الاخرى فى تعلمها تعتمد على السلوك الفطرى أو الغريزى الموروث دون تغيير يذكر ، وتبدو أفعالها كانعكاسات شرطية محددة يصعب تجاوزها ، كما يكون تطورها بيولوجيا فى المقام الأول وليس ثقافيا أو اجتماعيا ، ومن ثم فهذه الكائنات مزودة ببعض أساليب السلوك التى تحافظ من خلالها على بقائها واستمراريتها ، ولكنها لا تطور هذه الأساليب بنفس الدرجة التى يتطور بها الانسان ، أو يطور بها أساليب حياته • فالانسان مزود بالكثير من الملكات التى طور من خلالها الكثير من ملامح البيئة المحيطة لكى تصبح مهيأة للحياة ، فنجده قد طور المسكن والملبس ، واخترع الكثير من الوسائل التى استخدمها فى حياته اليومية ، كما ابتدع اللغة بمدلولاتها ورموزها وحروفها وقواعدها •

ويعيش الانسان فى جماعات تتميز بقدر من التنظيم ، كما يشترك أفراد الجماعة الواحدة فى ممارسة عدد من أنماط السلوك ، أو أساليب السلوك المتميزة التى تكون ثقافتهم الخاصة ، والتى تتميز عن غيرها من الثقافات ، وبذلك يمكن القول بأن كل مجتمع انسانى له ثقافته التى تميزه ، مادامت الثقافة هى ابداع انسانى لجماعة ما من الجماعات ، ومحصلة للتفاعل بين الانسان والبيئة ، طور الانسان خلالها الكثير من أنماط السلوك ، وبذلك فالثقافة ظاهرة انسانية يتميز بها الانسان دون غيره من سائر المخلوقات •

٢ ــ الثقافة تكتسب بالتعلم :

فالانسان يتعلم قدرا من سلوكه يفوق بكثير ذلك القدر الذى يتعلمه أى كائن آخر ، فمنذ ولادته يبدأ المجتمع الذى ولد فيه أو يعيش فيه — يبدأ فى اكسابه الكثير من السمات الثقافية ، وذلك من خلال روافد التنشئة المختلفة ، وهي الأسرة والمدرسة ، والمجتمع • وجدير بالذكر أن عمليات

التعلم لا تتم بشكل منظم أو من خلال عمليات التلقين المنظم والمعلن كتلك التى تحدث فى قاعات الدرس ، ولكنها تتم من خلال مواقف الحيـاة اليومية المتكررة ، والتى يؤدى فيها أفراد الجماعة من الراشدين بعض أنماط السلوك المفضل والذى تقره الجماعة وتفضله ، ثم يتعلمه أو يقلده أفراد الجماعة الأقل سنا ، وتصبح قبول هذه الأنماط السلوكية وأداؤها فى المواقف المختلفة بمثابة ازعان من قبل الأشـخاص لمعايير الجمـاعة والانخراط فيها ، ومن ثم ينتقل خلال هذا الشكل من التعليم الكثير من قواعد السلوك ، والمعايير التى تحافظ على تماسك الجماعة ، والتى بتوسم الجماعة فى أبنائها أن يتمسكوا بها ويتعاملوا بها داخل هذه الجمـاعة ، وكثيرا ما تكون هذه المعايير السلوكية قد انتقلت الى الأجيال من خلال ذلك الشكل من التعلم .

ولا يجب أن يتبادر الى الذهن أن الثقافة تورث شأنها فى ذلك شأن بعض العناصر أو الخصائص البيولوجية أو الفيزيقية ولكنها تكتسب من خلال الوجود فى جماعة اجتماعية معينة ، ويتأكد ذلك اذا أخذنا طفلا وليدا من احدى الثقافات كالثقافة العربية أو الاسبانية ، لينشأ فى المجتمع الانجليزى أو الامريكى ، فاننا سوف نلاحظ ان هذا الوليد سيكتسب ثقافة المجتمع الذى عاش فيه لا المجتمع الذى ولد فيه .

وقد يفهم لنا أن النشأة التاريخية للثقافة وعملية انتقالها من جيل الى جيل تعنى أن الثقافة تنتقل فى حلقات جامدة لا تتغير وتظل سـماتها ثابتة ، بيد أن ذلك غير صحيح ، اذ لا يمنع ذلك الانتقال من تأثر الثقافات بكافة المؤثرات التى تتعرض لها المجتمعات وتعمل على احـداث بعض التغيرات فيها .

ولا يقتصر التعليم على الانسان وحده ، بل تشترك معه فى جوانب

هذه الظاهرة بعض الحيوانات ، مع الاختلاف الواضـــح فى كم وكيف التعلم بين الانسان وهذه الحيوانات •

ولقد أكدت التجارب التى أجراها بعض العلماء على مقدرة بعض الحيوانات لتعلم بعض دروب الســـلوك ، ولكنها لا تختزن خبراتهـــا التعليمية لفترات طويلة كما يحدث لدى الانسان ، كما أن الحركات التى تتعلمها هذه الحيوانات تبدو كانعكاسات وردود أفعال وليدة للمواقف التى يكون الحيوان فيها ، كما انه لا يمتلك القـــدرة على تطوير هـــذه الأفعال ، كما يحدث لدى الانسان ، ولذلك فان الانسان هو المخلوق الذى طور لنفسه الكثير من الوسائل وأنماط السلوك لتصبح بذلك ثقافة •

وفى هذا الصدد يرى « ليسلى هوايت » أن الانسان قد خلق لنفسه نوعا من الرموز التى تطورت عبر مراحل تاريخيـــة مختلفة ونشـــأت الحضارات كافة واستمرت عن طريق استخدام الرموز وتعلمها ، كما يرى أن الرمز هو الذى يحول الطفل الى انسان مكتمل ، والسلوك البشرى سلوك رمزى والسلوك الرمزى سلوك بشرى »[11] • فمن خلال تعلم هذه الرموز تفوق الانسان على كثير من الكائنات •

٢ ــ الثقافة تجريد للسلوك :

يرى بعض العلماء مثل « ردفيلد » أن الثقافة تتضح فى الأفعـــال وفى الأشياء المادية ، ولكنها لا تتكون من الأفعال أو الأشياء ذاتها ، معنى ذلك أن الانثروبولوجى لا يستطيع ملاحظة الثقافة بشكل مباشر ، ولكنه يلاحظ أفعال النـــاس وتصرفاتهم وأقوالهم ، وكذلك الأســـاليب التى يستخدمونها فى صناعة منتجاتهم المادية ، ويعمل على تحليلها ودراستها وصولا منها الى ثقافة المجتمع الذى يلاحظه • وحول هذا الموضوع ثار نقاش فى الفكر الانثروبولوجى ، انقسم على اثره الرأى الى اتجاهين :

---

(١١) انظر : رالف بيلز ، هارى هويجر ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

الأول : عرف بالاتجاه الواقعى ويرى رواده أن الثقافة تتكون من أشكال السلوك المكتسب والخاص بمجتمع انسانى معين أو بجماعة معينة من البشر ٠

والثانى : عرف بالاتجـاه التجريدى والذى يذهب رواده الى أن الثقافة هى مجموعة من الأفكار يجردها العـالم أو الباحث من خـلال ملاحظته للواقع المحسوس والذى يتضمن أشكال السلوك المكتسـب والخاص بمجتمع ما ٠

ومن الصعب الفصل بين مظاهر السـلوك المادية وبين الأفـكار والتصورات والقيم التى يختفى وراءها السلوك أو بالاحرى التى تختفى وراء السلوك ٠

والواقع أن الاتجاهين الواقعى والتجريدى أو المعيارى يمثـلان وجهين لعملة واحدة ، فاذا ما حاولنا دراسة طقوس الميلاد بالمجتمـع المصرى على سبيل المثال ، فاننا سوف نجد الكثير من أنماط السلوك التى يصعب ادراكها دون ربطهـا بمعانيها ودون تحليلها فى اطار الثقـافة المصرية ، فمثلا تتضمن هذه الطقوس بعض الأشياء المادية التى تدخل فى طقوس السبوع كالحبوب والملح والشموع المضيئة والأوانى الفخارية التى تملأ بالماء ، وتوضع بجور المولود ، وكذلك تتضمن بعض أدوات الحماية التى توضع بجوار المولود فى فراشه كالسكين والبندقية(*) ٠ وبتحليل هذه الأشياء المادية سـوف نتوصـل الى الكثـير من الأفكار والتصورات والمعتقدات التى تمثل وجها آخر لهذه الأشياء المادية ، عندئذ تصدق المقولة التى ترى أهمية دراسة المظهرين معا ، اذ أن الاهتمام

(*) راجع التفاصيل فى المصدر التالى : د. على المكاوى ، ظاهرة الكتابة على العملة الورقية : دراسة وثائقية وميدانية ، مكتبة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩١ ، الفصل الثالث بكامله ٠

بالتصـــورات الذهنيـــة والمثل والمعـــايير فى معزل عن الســـلوك يخرج الانثروبولوجيا عن موضوع دراستها وهو دراسة الظواهر الثقافية فى المجتمع •

ومن الواضح أن التناول من خلال المنظور السابق والذى يتضمن الجانبين معا يشكل صعوبة كبيرة فى دراسة الثقافة • اذ أن الكثير من السمات الثقافية ترتبط بجوانب أخرى بشكل يجعلها أكثر تعقيدا فى دراستها ، وقد جعلت العلماء يطلقون عليها كلمة « المركبات الثقافية » للتعبير عن ذلك التشابك ، كما هو الحال فى مركب الماشية Cattle Complex لدى القبائل التى تسكن أفريقيا الوسطى والشرقية وجنوب السودان وبعض المناطق الاخرى •

ويضرب الدكتور أحمد أبو زيد مثالا لمدى تعقد السمات الثقافية بأهمية الماشية فى ثقافة قبيلة الناندى بكينيا ، وما يدور حولها من طقوس، فلحومها تؤلف عنصرا هاما فى طعام جماعات الناندى ، ويعتمدون على اللبن فى غذائهم ، ومن دماء الأبقـــار يتغـــذون ، والتى يأخذونها أو يحصلون عليها من خلال قطع أحد الشرايين فى عنق البقرة ، وبعد تدفق الدماء والحصول على جزء منه ، يضعون قطعة من الطين مكان الجرح لمنع تدفق الدم • كما يتمتع العشب الذى تأكله الأبقار بدرجة عالية من القداسة ، وتدور حوله الكثير من الطقوس ، فهم لا يقطعونه أو ينتزعونه من فوق الأرض لأن ذلك فى اعتقادهم يدنس العشب وبالتالى يدنس الماشية التى تعد محورا هاما تدور حوله الكثير من المعتقدات(١٢) •

٤ — يؤدى الرمز دورا هاما فى صياغة الثقافة :

تلعب الرموز دورا هاما فى نشأة الثقافة واستمرارها ، والرمز هو

---

(١٢) انظر : احمد ابو زيد فى : البناء الاجتماعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٨٨ — ١٨٩ •

منتج مادى يحمل معنى معينا ، وليس بالضرورة أن تكون هناك علاقة تطابق بين الرمز وبين ما يرمز اليـــه • وتكاد تكون ظاهرة الرموز من الظواهر التى تعرفها كافة الثقافات وذلك للاشارة الى بعض الأشـــياء المادية ، والرمز يعنى درجة عالية من التجريد والاختزال لأشياء معنوية ، كما هو فى الشعارات التى تتخذها الدول رمزا لها ، وفى الأعلام ، وغير ذلك من الرموز الدينية • ويتميز الانسان بأنه المخلوق الوحيد الذى يمتلك القدرة على اعطاء معان للأشياء وللأفعال التى يلاحظها ، وكذلك القدرة على فهم تلك المعانى فى اطار كل ثقافة من الثقافات ، وتســمى هذه العملية « اضفاء الرموز » • وتعتبر اللغة هى أدق مثال لهذه العملية وتعرف الأشياء والأفعال التى يضفى عليها الانسان معان محددة بالأفكار والعقائد والاتجاهات والعواطف والأفعال ، وصور التفاعل والعــادات والقوانين والنظم والأعمال والأشكال الفنية واللغات والأدوات والآلات وجميع الأشياء التى يخترعها »[١٣،١٤] •

وقد تمتلك بعض الحيوانات القدرة على استخدام الرمز وذلك من خلال التدريب ، ولكنها ليست مهيأة لأن تبتكر لنفسها هذه الرموز • فالقدرة على ابتكار الرموز فى الثقافة تمكن الانسان من نقل ما تعلمه على نحو أكثر كفاءة مما تفعل الحيوانات ، كما تيسر للانسان عبور الفجوة القائمة بين الخبرات المادية مما يضيف طابع الاستمرار والاتصال على عملية اكتساب الثقافة •

٥ ـــ الثقافة أداة للتكيف :

تحقق الثقافة قدرا من التكيف وذلك من خلال ما تقدمه من نماذج

---

(١٣) انظر : عاطف وصفى فى : الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧ •

(١٤) White, Lesli : «The symbol : The origin and Basis of human behaviors. Philosophy of science, 7' 1940, p. 453.

سلوكية تجعل الأفراد أكثر توافقا مع الجماعة التى يعيشون فيهـا • والتكيف هو أحد المفاهيم التى عولجت بشكل مستفيض كمفهوم أساسى فى العلوم البيولوجية ، وذلك من خلال ما يحدث لدى بعض الكائنـات الحية عندما تكتسب بعض الخصـائص البيولوجيـة التى تجعلها أكثر استعدادا للتوافق مع البيئة ، أو تفتقد بعض الخصائص التى تضعف من استعدادها للتوافق البيئي • ومن خلال هذه القاعدة فان علماء التطور البيولوجى يرون أن هناك العديد من الكائنات قد انقرضـت فى رحلة التطور بسبب عدم قدرتها على التكيف مع الظروف البيئيـة ، أو مع انوعاء البيئى المتغير ، كما ظهرت كائنات أخرى استطاعت أن تتكيف مع البيئة وتؤكد استمرارها •

ويكاد يقترب ما يحدث للكائنات من تغيرات بيولوجية مع ما يحدث فى الثقافات المختلفة ، حيث تظل السمات الثقافية سائدة فى جماعة من الجماعات الى أن تدخل عليها بعض المؤثرات التى تسهم فى تغير الثقافة، وهذه المؤثرات هى فى الغالب مجموعة من العمليات الثقافية كالهجرة لبعض العناصر ، ودخول عناصر ثقافية جديدة ، وغير ذلك من العمليات كالصراع الثقافى بين عناصر متداخلة ، وتنحى بعض السمات واندثارها واستمرار البعض الآخر • ويصبح الفيصل فى عملية الاستمرار هذه هو ملاءمة العنصر وقدرته على مواجهة هذه العمليات والبقاء والاستمرار •

ويجب أن يفهم أن عقد المماثلة أو تشبيه ما يحدث للثقافات بمـا يحدث للكائن البيولوجى فى تطوره وتكيفه مع البيئة ، قد جاء بهـدف تقريب الفكرة من ذهن القـارىء • ولا يعنى ذلك اننا نغفـل ما يميز الثقافة أو السمات الثقافية من اختلافات بشكل يجعلها أكثر تعقيدا من موقف الكائن البيولوجى ، وبرغم ذلك فكثيرا ما يحتاج التكيف ــ بالنسبة للكائن البيولوجى ــ الى أجيال وسنوات طويلة ، ولكن الانسان ككائن ثقافى يمكنه أن يتكيف مع الثقافات المختلفة بسرعة فائقة •

٦ — تتضمن الثقافة نمطا مثاليا للسلوك ونمطا واقعيا :

يستخدم مفهوم النمط للاشارة الى أسلوب معين من أساليب السلوك الذى يمثل جزءا من ثقافة معينة ، ولو أمعنا النظر فسوف يتضح لنا على الفور أن الأنماط الثقافية تنقسم الى نمطين الأول وهو النمط الواقعى ، أى ما يفعله الأفراد بالفعل فى المواقف المختلفة • أما الثانى فهو النمط المثالى وينطوى على تصورات مثالية للسلوك الذى يجب أن يتبع فى ثقافة ما • وينكشف النمط المثالى فى أقوال الأفراد ، ويدركه الباحث الانثروبولوجى عندما يسأل عن أنماط السلوك المتبع فى موقف ما، اذ يحرص أبناء الثقافة على تقديم ذلك النمط المثالى الذى قد لا يكون متبعا فى الواقع ، ولكنه يؤدى دورا هاما فى عمليات ضبط السلوك باعتباره معيارا يمكن القياس على أساسه ، أو يحمله الأفراد فى مخيلتهم عن مجموعة من الأنماط السلوكية المثالية • وجدير بالذكر أن كافة الثقافات على اختلافها وتنوعها تعرف هذه الأنماط المعيارية للسلوك ، وكلما اتسعت الهوة بين النمط المثالى والواقعى كلما تعرض الأفراد للقلق والعكس هو الصحيح ، فهناك بعض الثقافات التى يصعب فيها التزام الأفراد بهذه الأنماط المثالية للسلوك • عندئذ تبدع الثقافة أو تبتكر بدائل أخرى للسلوك أقل صعوبة فى تنفيذها وتؤدى نفس الغرض ، أما فى الحالات التى يقترب فيها النمط المثالى من النمط الواقعى ، فان ذلك يعنى درجة أعلى من الاتساق بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن بالفعل •

ويصنف « كلايد كلاكهون » الأنماط المثالية — وفقا لوجودها فى الثقافات المختلفة التى قام بدراستها — الى الأنماط التالية :

١ — الزامية :

فقد يكون النمط المثالى للسلوك الزاميا لأفراد الثقافة بمعنى أن

الثقافة لا تتيح الا هذا الشكل من السلوك أو لا تتيح الا وسيلة واحدة للاستجابة لمواقف معينة ولا تقبل من الأفراد غير ذلك الشكل •

٢ — مفضلة :

وفى هذه الحالة تقل حدة الالتزام السابق بالنسبة لنمط ما من أنماط السلوك ، وتقدم الثقافة مجموعة من البدائل السلوكية لتفى بالغرض ، الا أنها مع ذلك تفضل أحد هذه البدائل أكثر من الأخرى •

٣ — نمطية أو شائعة :

ويطلق ذلك على الأنماط السلوكية بمجتمع ما اذا ما أتاحت الثقافة أكثر من بديل سلوكى ، وتقرها جميعا بنفس الدرجة ، ولكننا نجد أحد هذه البدائل أكثر انتشارا أو شيوعا عن البدائل الاخرى •

٤ — بديلة :

وذلك عندما تتيـــح الثقافة أكثر من أسلوب من أســـالب السلوك ، وتقرها جميعا بنفس الدرجة ، ولايوجد بينها أى اختـــلاف لا من حيث القيمة ولا من حيث الانتشار •

ومن الصعوبة الكشف عن التباين بين الأنماط المثالية والواقعية فى اطار الثقـــافة الواحدة ، ويتطلب ذلك استخدام الأساليب المنهجيـــة للانثروبولوجيا كالمعايشة والملاحظة لفترات كافية فى المواقف المختلفة ، ثم مقارنة الأقوال ومطابقتها مع الأنماط السلوكية الفعلية فى هذه المواقف، وكثيرا ما تتعثر الأدوات الكمية للبحث والتى تستخدم الأسئلة المباشرة فى أن تفصح عن الســـلوك الواقعى • عندئذ يقتصر الفهم على السلوك المثالى ، والذى غالبا مايقدمه الأفراد لأى قادم الى المجتمع ، أو لكل من يسأل عن أنماط السلوك الشائعة فى موقف ما من المواقف •

٧ — الثقافات الفرعية احدى سمات الثقافة :

على الرغم من أن لكل مجتمع بشرى ثقافته الخاصـــة المتميزة التى تختلف فى مجموعها عن ثقافة مجتمع آخر ، الا أن ذلك لا يمنع من وجود ثقافات فرعية داخل الثقافة الكلية للمجتمع ، ويعكس ذلك الشكل المركب الذى تبدو عليه الثقافات فى الواقع ، اذ ليس من الضرورى أن تظهر كافة السمات التى تكون الثقافة بوضوح فى كل قطاعات المجتمع ، ولكننا نجدها موجودة فى جزء من المجتمع دون الأجزاء الأخرى ، الا أن الذى يعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها هو اشتراك كافة أفراد المجتمع الواحد فى مجموعة من السمات الثقافية التى تعتبر رئيسية ، تسود المجتمع كله ، ويطلق عليها العموميات Universals أو العموميات الثقافيـــة ، والتى تتمثل فى وحدة المشـــاعر والمعتقدات الدينية واللغة ، ولكن ذلك لايمنع من وجود الخصوصيات Specialities ، والتى تحمل ملامح التمايز والتغاير داخل المجتمعات ، وذلك فى اطار ثقافى واحد ، ودون أن تؤدى هذه الخصوصيات الى فقدان التجانس العام للمجتمع ، ولقد أطلق الأنثروبولوجيون على وجود هذه الخصوصيات — أو على وجود بعض الخصوصيات فى سمات ثقافيـــة معينة داخل المجتمع — اسم الثقافات الفرعية Sub Cultures وتبدو ملامح هذه الثقافات الفرعية فى بعض المجتمعات بشكل ظاهر وواضح ، فعلى سبيل المثال نجد المجتمع المصرى الذى يضم ثقافة واحدة ذات سمات عامة ومشتركة ، كما نجده يضم أيضا بعض الثقافات الفرعية كثقافة أبناء النوبة ، وبعض الواحات المنعزلة ، والصحراء .

وينبغى أن ندرك أن الشكل المثالى للتجانس الثقافى — ان صح هذا التعبير — ينعكس فى وجود العموميات الثقافية بشكل يفوق الخصوصيات، اذ أنه كلما زادت الثقافات الفرعية وجماعات الأقلية بالمجتمع ، فان ذلك

قد يقلل من تماسكه ، وتظهر هذه المشكلة بوضوح عند التخطيط للتغيير بالمجتمع حيث يتطلب ذلك جهـدا كبيرا لدفع هذه الجماعات الفرعيـة وانخراطها فى فلك المجتمع الكبير ، وقد يتطلب ذلك إعداد مجموعة من البرامج المنفصلة التى تلائم كل ثقافة فرعية ، ويثقل ذلك كاهل المجتمع • ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون سمة عامة تميز معظم المجتمعات ، كما تظهر مشكلة الثقافات الفرعية اذا ماتعارضت فى مصالحها الخاصة مع مصالح المجتمع الأكبر وتهدد استقراره وتثير فيه الكثير من القلاقل •

رابعا : العناصر المكونة للثقافة :

يميز العلماء بين مجموعة من المكونات أو العناصر التى تميز الثقافة فمنهم من يركز على العناصر الشكلية فى بناء الثقافة باعتبارها تتكون من السمة الثقافية ، والمركب الثقافى ، والدائرة الثقافية • ومنهم من يتناول العناصر طبقا لمضمونها وذلك من خلال الأفعال والعرف والطرائق الشعبية، والنظم والأساطير • وهناك غير ذلك ممن يميزون بين عناصر مادية للثقافة وعناصر غير مادية •

وفيما يلى تحليل للعناصر الشكلية :

١ — السمة الثقافيـة :

وتمثل السمة الثقافية عنصرا هاما فى بناء الثقافة ، كماتعتبر الوحدة الأساسية فى التحليل الدراسى للثقافة باعتبارها أصغر الوحدات التى يمكن للانثروبولوجى أن يحـددها فى دراسته لثقافة مجتمـع ما من المجتمعات •

ويستخدم العلماء مفهوم السمة باعتبـارها مرادفا للعنصر فنجد « جاكوبز وستين » Jaobs and Sterrn يعرفان السمة الثقافية بأنها « أصغر وحدة يمكن التعرف عليها فى الثقافة » •

ويعرفها «هوبل» بأنها وحدة من وحدات الأنماط السلوكية أو النتاج المادى لتلك الأنماط التى تعرف بعدم قابليتها للتجزىء .

وقد وجه علمـاء الأثنولوجيا الوظيفيون النقد الى مفهوم السـمة الثقافيـة أو العنصر الثقافى ، وذلك لرفضهم مبدأ تقسيم الثقافة الى الوحـدات المكونة لها ، ومن أبرز المعـارضين لهذه الفكرة أيضـا « مالينوفسكى » ، وكذلك « هيرسكوفيس » ، الذى يرى أن مفهوم العنصر أو السمة يصعب تحديده بشكل مطلق ، واذا أمكننا تحـديده فسنجد أنفسنا كما لو كنا نتعامل مع ذرات محدودة النطاق ، وهذا هو ما لا يتسق وطبيعة موضوع الثقافة من منظوره الوظيفى ، وتكامل عناصرها .

ومن الملاحظ أن مفهوم عنصر ثقافى أو سمة ثقافيـة ينطوى على درجة عالية من التجريد الذى يتطلبه دراسة المفهوم ، بيد أن الواقع قد لا يفصـح عن ذلك التجريد فى وجود عنصر بذاته ، منفصـلا عن باقى العناصر .

وعلى الرغم من هذه التحفظات التى ساقها العلمـاء حول مفهوم السمة الثقافية وصلاحيته كوحدة للتحليل الدراسى للثقافة ، الا أنه مازال المفهوم يمثل أداة لاغنى عنهـا وبشكل خاص فى دراسات الانتشـار الثقافى[١٥] .

٢ — مركب ثقافى :

ويقصد بالمركب الثقافى مجموعة من العناصر المترابطة أو المتكاملة التى تؤدى وظيفتها داخل مجتمع من المجتمعات ؛ ويصدق ذلك على الكثير من السمات الثقافية التى يمكن اعتبارها مركبات ثقافية مثل الطوطمية

---

(١٥) انظر : ايكه هولتكرانس فى : قاموس الأنثربولوجيا والفولكلور ، ترجمة محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٢ .

فى المجتمعات البدائية ، ولعل أفضل الأمثلة للمركب الثقافى وأقربها الى الذهن هو مركب الماشيـــية Cattle Complex والذى يسود فى مجموعة من القبائل التى تسكن شرق افريقيا (أوغنده وكينيا وتنجانيقا) ومجموعة أخرى من القبائل التى تسكن جنوب السودان وافريقيا الوسطى، وقد سبقت الاشارة الى ذلك فى مواطن أخرى من هذا الفصل •

ويعـــرف « هوبل » المركب الثقافى بأنه نسق متكامل من العنـــاصر الثقافيـــة التى تنتظم حول موضوع اهتمام جوهرى ، وهناك تعريفات أخرى للمركب بأنه مجمـــوعة من العناصر الثقافيـــة المتكاملة والمنمطة وظيفيا داخل احدى الثقافات ، أو فى منطقة ثقافية معينة •

ويرى معظم علماء الاثنولوجيا أن الثقافة هى المرتبة الأعلى فى تنظيم المواد الثقافيـــة ، وعلى الجانب الآخر يرى آخرون مثـــل « جريبنر » Greebner أن مجموعة المركبات الثقافيـــة المتقاربة تمثل مجموعة ثقافية واحدة • ويستخدم فى هذا الصدد مجموعة من المفاهيم التى تعبر عن ذلك كالعائلة الثقافية أو القبيلة الثقافيـــة ، أو تعكس هذه المفاهيم تأثير النزعة العضـــوية القديمة التى سيطرت على فكر العلماء فى مجال الأنثروبولوجيا الثقافية •

وقد استخدم ويســـلر Wissler مفهوم مركب العناصر Trait Complex وهو عنصر ثقافى يمكن أن ينقســـم الى عدة عناصر ثقافية،ويتكون مركب العناصر شأنه شأن المركب الثقافى من عناصر متعاونة وظيفيا ، ولكنه أصغر من المركب الثقافى الى حد كبير ، ويمكن أن نطلق مفهوم المركب الثقافى على ثقافة بأكملها ، بينما يطلق مفهوم مركب العناصر على جزء من الثقافة •

٣ ــ الدائرة الثقافية Culture Circle :

يعرف هابر لاندت Harberlanted مفهوم الدائرة الثقافيـــة

قائلا : ان الدوائر الثقافية تمثل مجموعات ثقافية اكتسبت صفة تاريخية ذات خصائص متميزة وذات مجال مكانى محدد[١٦] .

ويعتبر كلارك ويسلر أول من استخدم مفهوم الدائرة الثقافية . ويؤكد أنه اذا ماأخذنا فى اعتبارنا مجموعة من السمات الثقافية فى وقت واحد تتعلق بعضها بالطعام والبعض الآخر ببعض الصناعات السائدة ، وربطناها بالوحدات الاجتماعية أو القبلية ، أمكننا تحديد جماعات ذات معالم محددة ثقافيا ، كمايمكن تصنيفها حسب سماتها الثقافية المتشابهة ، وتكون لنا دوائر ثقافية متشابهة يمكن الاستدلال منها على الكثير من العمليات الثقافية .

ولقد ساهم الجغرافى الأنثروبولوجى « راتزل » فى وضع أول خريطة للدوائر الثقافية فى افريقيا عام ١٩٢٤ عندما فرق فيها بين ثقافات بعض مناطق القارة الافريقية ، على أساس أن بعضها يمثل الشعوب الرعاة والبعض الآخر يمثل الشعوب الزراعية .

ثم تتابعت بعد ذلك الدراسات التى اهتمت بموضوع الدوائر الثقافية ، على أن هناك بعض المحاذير التى تحيط باستخدام ذلك المفهوم، فمفهوم الدائرة الثقافية هو أداة تعين الباحث على تنظيم معلوماته واجراء الوصف الملائم لمجموعة من الثقافات فى منطقة بأكملها . معنى ذلك أن الفكرة ليس لها وجود مادى فى الواقع ولكنها تكون فى ذهن الباحث فقط[١٧] .

---

(١٦) ايكه هولتكرانس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٠ .

(١٧) أنظر : على عبد الرزاق فى : المجمع والثقافة والشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ ، ص ٨٤ .

عناصر أخرى للثقافة :

ويحددها ويسلر فى العناصر التالية ؛

١ — اللغة .

٢ — العناصر والمركبات المادية وتنقسم الى :

— عادات الطعام .
— المسكن .
— وسائل النقل والسفر .
— الملبس .
— الأدوات والآلات .
— الأسلحة .
— المهن والصناعات .

٣ — الفن :

ويشمل النحت والرسم والموسيقى وما الى ذلك .

٤ — الأساطير والمعارف العلمية .

٥ — التصرفات الدينية .

— الأشكال الطقوسية .
— طقوس المرض .
— طقوس الموت .

٦ — الأسرة والنظم الاجتماعية وتتضمن :

— أشكال الزواج .
— نظم التسلسل القرابى .
— الميراث .
— الضبط الاجتماعى .
— الألعاب .

٧ — الملكية ومستويات القيمة والتبادل .

٨ — الأشكال السياسية .

٩ — الحرب[١٨] .

أهمية دراسة الثقافة :

تعرضنا فى الجزء الخاص بالثقافة لتحديد المفهوم ، وأهم تعريفات الثقافة ، ثم خصائص الثقافة ، وعناصرها . وبات من المؤكد أن لكل شعب من الشعوب أو جماعة من الجماعات—وفقا للمنظور الانثروبولوجى —ثقافته الخاصة به ، مهماكانت بساطة الحياة أو تعقدها.فالانثروبولوجى يتخذ من عناصر الثقافة مجالا لاهتمامه ، ويقوم بملاحظة أشكال السلوك وتحليل مضمون ذلك السلوك ، وربطه بغيره من عناصر الثقافة ، وغير ذلك من الموضوعات التى يهتم بها الانثروبولوجى كدراسات التغير الثقافى ، والاتصال الثقافى ، ورصد العمليات المتصلة به ، وهذه المهمة تضطلع بها الأنثروبولوجيا الثقافية ، والتى تصدت بالبحث والدراسة للعديد من المشكلات التى تواجه العالم الثالث عندما ظهرت الكثير من العقبات أمام محاولات التخطيط للتغيير فى هذه المجتمعات ، كما ظهرت أهمية البعد الثقافى وفهمه عند تناول مشكلات هذه المجتمعات فمعظمها مشكلات ثقافية فى المقام الأول ، وقد حدثت من خلال عمليات الغزو المستمر ، والصراع القيمى الذى حدث بين منتجات مادية حضارية وأخرى سلوكية — استهلاكية — اقتصادية وفدت الى أبنية ثقافية واجتماعية غير مهيأة لاستقبالها .

وتبدو أهمية الثقافة فى أن فهمها يزيل النقاب عن الكثير من أبعاد السلوك الانسانى ، والتى يصعب أن يكشف عنها من خلال مداخل أخرى، ومن ثم فبالامكان أن نفهم من خلالها الدوافع التى تحرك سلوك الأفراد وتوجهه خلال مواقف الحياة اليومية.وبالتالى يمكن فهم المشاكل المترتبة

(١٨) انظر : عاطف وصفى فى : الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سبق ذكره ، صص ٨٨ — ٨٩ .

على ذلك ، والتغلب عليها من خلال ذلك الفهم ، ففى بعض المجتمعات تتفاقم المشكلات كالهجرة والتمركز فى مناطق بعينها دون مناطق أخرى . كما ترتفع معدلات الاستهلاك ، وتنتشر الأمراض بمعدلات مرتفعة ، كماترتفع وفيات الأطفال الرضع ، وتتعثر فى بعضها الآخر كافة محاولات التنمية الاجتماعية ، ويكون السبب الرئيسى — والعامل المتحكم فى هذه المشكلات — هو قيم سلوكية سلبية اعتادها الأفراد ، ومهما بذلت من محاولات للحد منها فى اطار مؤسسى تكون جدواها محدودة ، بسبب اغفال مكونات الاطار الثقافى الذى يحرك هذه القيم .

* * *

الباب الثانى

الثقافة والتغير فى المجتمع العربى

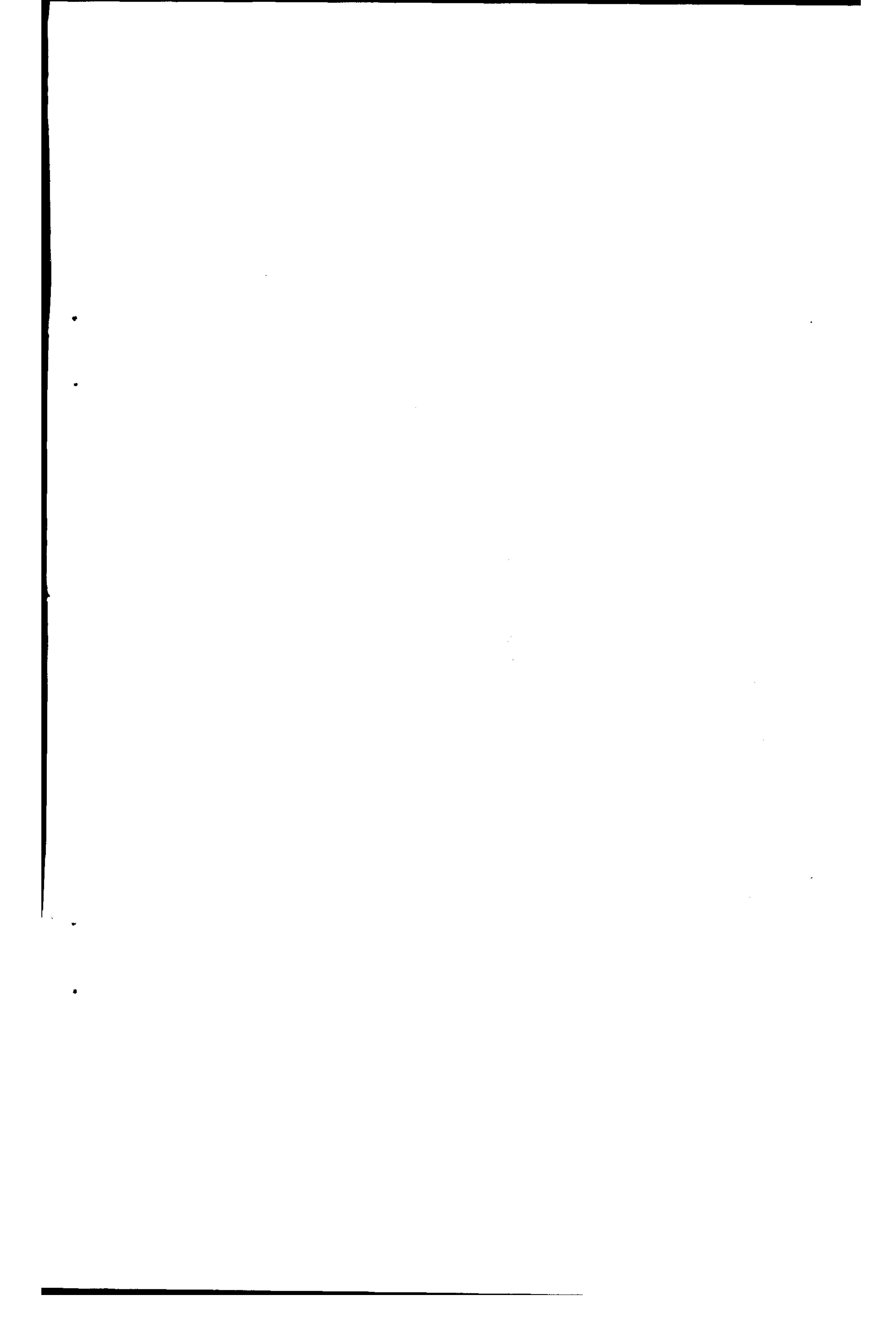
دراسات واقعية

* * *

الفصل الرابع

التغير الثقافى

الأنماط والعوامل



الفصل الرابع

التغير الثقافى

الأنماط والعوامل

* * *

مقدمة :

التغير الثقافى Cultural Changes حقيقة أزلية من حقائق الوجود، وظاهرة طبيعية تخضع لها كل المجتمعات الانسانية . وعلى هذا فاننا لانستطيع التسليم بماقاله علماء الأنثروبولوجيا على المجتمعات البدائية خلال القرن التاسع عشر بأنها مجتمعات راكدة لا يطرأ عليها التغير . اذ لم تكن الدراسات الميدانية المكثفة قد ذاعت بعد ، ولم تتوافر الشواهد الاثنوجرافية الكفيلة بدحض هذا الزعم .

واذا نظرنا الى مجتمعنا المصرى — على سبيل المثال — وجدنا عديدا من الدراسات الأنثروبولوجية التى أجراها علماء الحملة الفرنسية[1] أو المستشرقون أمثال وليم لين[2] وكلونزنجر[3] ، تشير الى طبيعة الثقافة المصرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومدى التغير الذى طرأ عليها . علاوة على ذلك فان هذه الدراسات تساعدنا الآن فى الوقوف على حجم التغير ، ومداه وعوامله الرئيسية . ومن ناحية أخرى يمكن التعرف على مبلغ التغير فى العناصر المادية للثقافة ، والعناصر اللامادية (الروحية) لها . ان التغير الثقافى اذن تغير عام وشامل لكلا

---

(١) راجع المجلد الأول من كتاب وصف مصر تأليف دى شابرول ، المصريون المحدثون ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(٢) وليم لين ، المصريون المحدثون ، مرجع سابق الذكر .

(٣) C.B. Klunzinegr : Upper Egypt : It's people and its product, London, 1878, pp. 390-443.

النوعين من العناصر ، وان كان معدل أحدهما أكثر من الآخر أو أقل منه •

والأمثلة عديدة على حدوث هذا التغــير ، فى أدوات الطعــام ، وأوانيه ، والمسكن والأثاث ، وأدوات العمــل الزراعى والصــناعى ، وأساليب الانتقــال والاتصــال ، ووســائل الترويح ، وفى الاتجاهات والعادات والأفكار والمعتقدات واللهجات والآداب الشعبية ... الخ •

وتتعدد العوامل التى تسبب هذا التغير الثقافى ما بين عوامل تصدر عن المجتمع ذاته ، وأخرى تفد اليه من خارجه ، وبالتالى نكون بصدد أنماط للتغير الثقافى الداخلى والتغير الثقافى الخارجى •

وفى ضوء ما سبق يدور هذا الفصل حول الموضوعات التالية :

أولا : جوهر التغير الثقافى •

ثانيا : الاتجاهات النظرية فى دراسة التغير الثقافى •

ثالثا : أنماط التغير الثقافى •

رابعا : عوامل التغير الثقافى •

* * *

أولا — جوهر التغير الثقافى :

يعنى التغير الثقافى آى تحول أو تبدل يطرأ على مضمون أو بناء ثقافة معينة ، وهو يعتمــد أساسا على النقــل عبر ثقافات مختلفــة (الانتشار) أو يعتمد على القدرة على الابداع الثقافى فى الثقافة المحلية ذاتها (الاختراع)[٤] •

والواقع أن التغير الثقافى يحوى عددا من المصطلحات الأنثروبولوجية

---

(٤) على المكاوى ، المعتقدات الشعبيــة والتغير الاجتماعى : دراسة ميدانيــة على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط ، رســالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٣٥٢ .

الثقافية ذات الدلالة عليه ومنها على سبيل المثال: التفكك Disorganization والانحراف Deviance والتطور Evolution والتثاقف Acculturation والابتداع Innovation والتكامل Integration والتغير التدريجي والنقل واعادة الاحياء واعادة التفسير ... الخ . ولعل هذا الثراء والتنوع فى مفهوم التغير الثقافى ومضمونه ، يدل على أنه ظاهرة ثقافية عامة ، تشكل ديناميات الثقافة على مر الزمن(٥) .

وتجدر الاشارة الى أن التغير الثقافى أشمل وأعم كثيرا من التغير الاجتماعى . فالتغير الاجتماعى هو أى تحول أو تبدل يطرأ على البناء الاجتماعى أو الوظائف الاجتماعية . وقد يكون هذا التغير تقدميا للأمام (ارتقائيا) ، كما قد يكون فى ظروف أخرى تغيرا الى الوراء (نكوصا Regression) فى حالة الأزمات السياسية والاقتصادية والاضطرابات الداخلية ... الخ(٦) . أما التغير الثقافى فهو — كما قلنا — كل تحول يحدث فى الجوانب المادية واللامادية للثقافة . والثقافة كما حددها تايلور Tylar تعنى « ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والأخلاق والقانون والمعتقدات والعرف والقانون ، وكل القدرات والعادات الأخرى التى يكتسبها الانسان باعتباره عضوا فى مجتمع »(٧) . الثقافة اذن ظاهرة شاملة للعديد من الماديات Artifacts والعقليات Mentifacts والاجتماعيات Socifacts ، وأى تحول يقع على عنصر منها يعتبر تغيرا ثقافيا ، وبالتالى فالتغير الاجتماعى جزء من التغير الثقافى .

---

(٥) M. Herskovits : Cultural Anthropology, Indian Ed., Bombay, 1969, p. 445.

(٦) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٠٩ .

(٧) د. احمد ابو زيد ، تايلور ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٨١ .

ثانيا — الاتجاهات النظرية فى دراسة التغير الثقافى :

هناك ثلاثة اتجاهات نظرية فى دراسة التغير الثقافى تتمثل فى الاتجاه التطورى الذى ساد خلال القرن التاسع عشر ، والاتجاه الانتشارى خلال الربع الأول من القرن العشرين ، والاتجاه الوظيفى والاهتمام بعملية الاتصال الثقافى • وفيما يلى استعراض سريع لهذه الاتجاهات :

١ — الاتجاه التطورى :

لم يرتكز أصحاب هذا الاتجاه على واقع ميدانى ينطلقون منه فى صياغة نظرياتهم وآرائهم العديدة وانما كانت دراساتهم مكتبية فى الغالب ، وبعيدة عن الواقع ذاته • ويؤمن التطوريون بفكرة التطور ، ويرون أن التغير الثقافى ينمو من خلال ازدياد تمايز الظواهر الثقافية وتعقدها •

ويرى التطوريون أن التطور هو الانتقال من التجانس الى التباين ، ومن البساطة الى التعقيد • والملاحظ أن جذور الاتجاه التطورى قديمة للغاية ، الا أنها ازدادت انتشارا خلال القرن التاسع عشر ، فأوجيست كونت يرى أن التطور قانون طبيعى ، يظهر فى سلسلة تقدمية من مستويات المجتمع والثقافة وانتقلت هذه الرؤية فيما بعد الى علماء الأنثروبولوجيا الأوائل ومنهم لويس مورجان L. Morgan وادوارد تايلور Taylar • ولعل اسهامات تايلور تزداد أهميتها ، لأنه يمثل كما يقول الدكتور أحمد أبو زيد[٨] حلقة الوصل بين الفلاسفة الاجتماعيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبين أنصار المدرسة الوظيفية التى سيطرت على الدراسات الأنثروبولوجية خلال القرن العشرين •

---

(٨) د• احمد ابو زيد ، تايلور ، المرجع السابق ، صص ٢١ — ٢٢ .

وقد لعب الاتصال الثقافى بين المجتمعات الأوربية الاستعمارية وبين المجتمعات البسيطة (البدائية) المستعمرة ، دوره البارز فى ازدهار الاتجاه التطورى ومعرفة ماضى الجنس البشرى ، وفهم الأصول الأولى للنظم الاجتماعية وتطورها ، حيث أنها تمثل النظم الاجتماعية فى أبسط صورها[٩] .

لقد بحث الاتجاه التطورى فى الأصول الأولى للعنصر الثقافى ، والنظر الى الثقافة باعتبارها كيانا عضويا متكاملا ، وأن السمات الثقافية Cultural Traits التى لا تتلاءم مع السياق الثقافى Cultural Context تعد بمثابة رواسب Survivals أو بقايا[١٠] . لذلك صار التاريخ مجالا للفكر التطورى[١١] .

٢ ــ الاتجاه الانتشارى :

لقد تولد الفكر الانتشارى عن الفكر التطورى سواء بالسلب أو بالايجاب . اذ أن الاتجاه الانتشارى لا يتناقض مع الاتجاه التطورى . وانما تختلف نظرة كل منهما للثقافة ، والمدخل المستخدم فى ذلك . فالاتجاه الانتشارى يتعامل مع الثقافة كما لو كانت كائنا عضويا ميتا ، ليس بين أجزائه أى تساند بنائى أو تفاعل وظيفى . كما أن هذا الاتجاه

---

(٩) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية . . . ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(١٠) الرواسب Survivals أو البقايا هى عناصر ثقافية تترسب من مواقف ثقافيـة قديمة كانت أكثر تكيفا معها . ويرى هوبل Hobbel أن « الراسب الثقافى عنصر أو مركب ثقافى تغيرت وظيفته الأصليـة بمرور الزمن بحيث أصبح استعماله مجرد اتفاق شكلى » . انظر التفاصيل فى :

ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٤ .

(١١) د. على ليله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى فى دراسة التغير الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، ع ١٢ ، القاهرة ، يناير ١٩٧٥ ، ص ١١٦ .

يجمع ما بين الواقعية والحس التــاريخى والالمام بالمؤثرات البيئيــة والجغرافية •

ويعلى الاتجاه الانتشارى من شأن الاتصال الثقافى Cultural Contact الذى تنتشر عن طريقه الابتــكارات والأفكار الجديدة فى النسق الاجتماعى ، ولذلك تدور معظم دراسات الانتشار حول هــذه الأفكار الجديدة[١٢] •

والواقع أن الانتقادات التى وجهت الى الاتجاه التطورى فى دراسة التغير الثقافى ، وتفسير عملياته ومساره ، أظهرت أهمية عملية الانتشار ، وبالتالى أبرزت كفاءة الاتجاه الانتشارى فى فهم التغير الثقافى ودراسته• وهناك ثلاث مدارس دعمت هــذا الاتجاه وهى المدرســة البريطانية (المدرسة المصرية) بزعامة اليوت سميث E. Smith والمدرسة الألمانية النمساوية التاريخية الثقافية بريادة جريبنر F. Graebner ، والمدرســة الأمريكية وعلى رأسها فرانز بواس F. Boas وكروبر A. Kroeber وغيرهما •

٣ ــ الاتجاه الوظيفى :

اذا كان التطوريون اهتموا بالتاريخ فى دراسة التغــير الثقافى ، والانتشاريون اهتموا بالجغرافيــا ، فان الوظيفيين اهتموا بالقواعــد المنهجية الأساسية فى دراسة التغير وفهم أبعــاده وموضوعاته[١٣] • وتستهدف تلك القواعد الاعتماد على الدراسة الواقعية والاستناد الى الواقع الميدانى ذاته • وقد تبلورت هذه القواعد والتوجيهات المنهجيــة

---

(١٢) انظر : Floyd Shoemaker and Other : Communication of Innovations, The Free Press, N.Y., 1971, p. 12.

(١٣) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية . . . ، مرجع سابق ، ص ٣٧ ، وص‌ص ٢٦١ — ٢٦٥ .

خلال منتصف القرن العشرين على أيدى مالينوفسكى وهى تتمثل فيما يلى :

(أ) أن التغير الثقافى ظاهرة عامة فى كل المجتمعات والثقافات مهما اتسمت بالجمود أو الثبات وبالتالى نضع التغير على بداية متصل Continum والثبات على نهايته ، ونبدأ فى الدراسة الميدانية التى تكشف بالفعل عن معدل التغير واتجاهه أو الثبات واتجاهه .

(ب) وجوب تفاعل الأنثروبولوجى مع الثقافة التى يدرسها مثلما يتفاعل أبناؤها معها . فاذا رأى الثبات سائدا ، مر على التغير مرور الكرام ، واذا أدرك التغير اللاهث وراء الجديد — كما هو الشأن فى المجتمعات الغربية والامريكية مثلا — فانه يركز على العناصر الساكنة من الثقافة .

(ج) التزام الباحث بالموضوعية فى نظرته الى ثبات أو تغير الثقافة مما يتيح له فرصة الوقوف على حجم التغير ومعدله وعوامله .

(د) ضرورة استيعاب الباحث لعمليات التنوع الثقافى والتباين الثقافى بنفس درجة استيعابه للتنوع والتباين السلوكى ، مما يهيىء له الفرصة للوقوف على التغير فى أثناء حدوثه .

(هـ) لابد من التزام الأنثروبولوجى بالنظرة الكلية للثقافة ، فيستطيع الوقوف على جوهر التغير والثبات فى الثقافة ، والتعرف على صور الخروج عن الثقافة وعن أنماط السلوك[١٤] .

هذا وقد ركز الاتجاه الوظيفى على الطابع الكلى للثقافة ، وبالتالى فهم كيفية ارتباط مظاهر الثقافة وعناصرها ببعضها فى وحدة ثقافيه متكاملة . ولذلك فهو حينما يتناول قضية التغير الثقافى ، فانه يقرر بأن

---

(١٤) انظر : Herskovits op. cit. p. 447

السمات الثقافية التى تنتقل الى مجتمع ما لا يقبلها هذا المجتمع الا اذا كانت تشبع حاجة أساسية لديه ، أو تؤدى وظيفة بكفاءة تفـوق أداء الوحدة الأصلية التى تضطلع بهذه الوظيفة[١٥] .

* * *

ثالثا — أنماط التغير الثقافى :

يستـلزم الحديث عن التغير الثقافى تحديد نقطة البـداية ، اذ أن تحديد نقطة الصفر Zero-Point الافتراضية فى النسق الثقافى ، واتجاهه بعد الانطلاق يعدان من الأبعـاد الهامة فى النسـق الوظيفى المتغير[١٦] .

والواقع أن هناك نمطين للتغير الثقافى فى ضوء العوامل التى تحدثه. أما النمط الأول فهو التغير الثقافى الداخلى Internal cultural change الذى يحدث بفعل عوامل تنبع من داخل النسق الثقافى ذاته كالاختراع Invention ، والاكتشاف Discovery ، والتجديد Innovation [١٧] . والنمط الثانى هو التغير الثقافى الخارجى External cultural change الذى يرجع الى عوامل تفد من خارج النسق الثقافى كالاتصال Cultural Contact والاستعارة Borrowing والتثاقف Acculturation

وتجدر الاشارة الى أن التغير لا يطرأ على العناصر الثقافية بنفس المعدل ، بل يحدث للعناصر المادية بمعدل يختلف عن حدوثه للعنـاصر الروحية اللامادية • فقد يكون فى أى منهما أسرع من الآخر • والدليل

(١٥) د. على ليـله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى ... ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(١٦) M. Herskovits : Cultural Anthropology, op. cit., p. 475.

(١٧) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٥٣ .

على ذلك أن التغير فى العناصر المادية من ثقافة سكان استراليا الأصليين يسير بمعدل أقل من نظيره فى العناصر المعنوية كالتنظيم الاجتماعى والدينى . وفى المجتمع الأمريكى تزداد سرعة التغير فى الشق المادى عن الشق اللامادى للثقافة . وفى مجتمعنا المصرى نلاحظ أن التغير فى العناصر المادية يفوق فى سرعته التغير فى العناصر اللامادية . وسوف نحاول فيما يلى توضيح أنماط التغير الثقافى .

١ — التغير الثقافى الخارجى :

يطرأ هذا النوع من التغير الثقافى بفعل مجموعة من العمليات الثقافية التى تفد الى المجتمع من خارجه ، ومن هذه العمليات الاتصال الثقافى والتثقف والاستعارة والانتشار[١٨] . ومن الممكن أن نجمل هذه العمليات تحت فئتين من العوامل وهما الانتشار والتثقف . وعلى هذا يلعب هذان العاملان دورا بارزا فى عملية التغير الثقافى . ولعل ما حدث فى المجتمع المصرى ، والمجتمع الخليجى[١٩] والمجتمع الهندى[٢٠] أمثلة توضح ما نقول . وفيما يلى نعرض لهذين العاملين :

(ا) التثقف Acculturation

وهو عملية التغير التى تنجم عن الاتصال الثقافى الكامل بين ثقافتين، مما يؤدى الى زيادة أوجه التشابه بينهما . ويتضمن التثقف العديد من المتغيرات والعمليات مثل درجة التباين الثقافى ، ومواقف السيطرة والتبعية ، والقائمين بالاتصال واتجاه التأثير ، وظروف الاتصال ذاته وكثافته حسبما يؤكد رالف بيلز وهارى هويجر[٢١] .

---

(١٨) المرجع السابق ، ص

(١٩) راجع الفصلين الثامن والتاسع من هذا الكتاب لتقف على التغير الذى طرأ على مجتمع الخليج .

(٢٠) George Foster : Traditional Cultures and Technologicla Change, New York, 1973, p. 112.

(٢١) Ralph Beals and H. Hoijer : An Introduction to Anthropology, 3rd edition, New York, 1966, p. 736.

أما بالنسبة لدرجة التباين الثقافى فانها تعنى الاهتمام بدرجات اختلاف الثقافات فيما بينها فى القيم والأيدولوجيا والتكنولوجيا والبناء الاجتماعى • على حين تركز مواقف السيطرة والتبعية على توضيح موقف الثقافات من السيادة أو الخضوع نظرا للقهر أو التفــوق التقنى أو الضغوط الاقتصادية • ويهتم القائمون بالاتصال واتجاه التأثير بمعرفة اتجاه التثقف نحو الأفضل أم نحو الأسوأ ، والبحث عن عمليات التثقف الأخرى كالتكيف والرفض والتعويض ••• الخ[٢٢] ، كذلك التعرف على المكانة التى يشغلها هؤلاء القائمون بالاتصال ومنهم التجار والموظفون الحكوميون والمبشرون •

اذن يعتمد التثقف على الاتصال الثقافى ، فالاتصال من ناحية أخرى يعنى التثقف • وموضع الخلاف يكمن فقط فى المصطلح الذى يســتخدم للتعبير عن العمليــة • فالأنثروبولوجيــون البريطانيون يميلون نحــو استخدام مصطلح الاتصال الثقافى بدلا من مصطلح التثقف ، وذلك لأن الاتصال يتم غالبا بين ثقافات أوربية متقدمة ، وبين الشعوب البسيطة أو البدائية كما كانوا يصفونها • وبالتالى تكون التأثيرات الناجمة عن هذا الاتصال ذات نوعين :

النوع الأول : يبدو فى صورة انتشار العناصر الثقافية والمركبات الثقافية ، إذا كان الاتصال الثقافى محدودا • ويدور الاهتمام هنا حول تبادل العادات والأفكار والعناصر المادية بين ثقافتين مختلفتين[٢٣] •

أما النوع الثانى : فانه يعنى عمليات التغير التى تتم داخل ثقافتين تتفاعلان معا ، خاصة اذا كان الاتصال الثقافى شاملا لكلتا الثقافتين اللتين

---

(٢٢) انظر : Beals and Hoijer, Ibid : pp. 737-738.

(٢٣) أيكه هولتكرانس ، قاموس الانثولوجيــا ... ، مرجع سابق ، ص ١٤ •

تتداخل كل منهما فى الأخرى وتتفاعل معها[٢٤] • وعلى هذا تطرأ التغيرات الثقافية على مستوى البناء والاتجاه العام للثقافة •

(ب) الانتشار Difusion

وهو يشير الى نقل العناصر الثقافية على المستوى الأفقى من مكان الى مكان آخر • وهذا هو المعنى الذى أرســاه تايلور ، وفسر به أسباب تشابه الكثير من العناصر الثقافية فى مجتمعات متباعدة عن بعضــها • ويتلخص تفسيره فى أن انتشار الثقافة وانتقالها من مصدر واحد ، أو من عدد من المراكز المشتركة هو سبب التشابه بين تلك العناصر[٢٥] • ومن ناحية أخرى فان هجرة العناصر الثقافية — أو الثقافة ككل — تحدث نتيجة للاتصال الثقافى • وقد تكون هجرة العنصر الثقافى كاملة ، وقد تكون جزئية تقتصر على بعض معالمه فحسب •

والملاحظ أن هناك بعض تعريفات الانتشار تركز على أهم النتائج المترتبة عليه ، على حين تؤكد تعريفات أخرى على دور الانتشار كعملية ثقافية مستمرة • ومن التعريفات الأولى التى تركز على النتائج تعريف رالف لينتون R. Linton للانتشار بأنه عملية أصبحت الانسانية قادرة بمقتضاها على استقطاب قدرتها الابداعية • بينما يرى هيرسكوفيتس Heroskovits أن الانتشار هو دراسة النقل الثقافى الذى أنجز فعلا •

والواقع أن المدرسة الانتشــارية تعتبر أن التغير الثقــافى نتاج لانتشار عناصر أو سمات ثقافية من مجتمع أصلى الى مجتمع آخر عن

---

(٢٤) على المكاوى ، المعتقدات الشعبيــة والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

(٢٥) د. احمد ابو زيد ، تايلور ، مرجع سابق ، ص ٣٥ و ٦٨ .

طريق الاستعارة أو الغزو أو النقل . وعلى هذا تتخذ الانتشارية من الجغرافيا مجالا لها ، وتقسم العالم الى مجموعة من الخرائط التى توضح الأصول الأولى التى ظهرت فيها السمات والعناصر الثقافية ومنها انتشرت الى المناطق الثقافية الأخرى[٢٦] .

وقد يتم الانتشار عن طريق الهجرة أو عن طريق الاستعارة . فالهجرة تعمل على انتشار وحدات ثقافية كبيرة . أما الاستعارة فهى نقل وحدات ثقافية بسيطة دون حدوث حركات شعبية ، أو انتقال شعوب بأكملها[٢٧] . وعلى هذا يرى الكسندر آلاند A. Alland أن التغير الثقافى يعتمد على التجديد وعلى الاستعارة أى الانتشار[٢٨] .

ولا يؤمن الانتشاريون بالانتقال الكلى للمجتمعات ، وانما يحدث هذا الانتقال لبعض العناصر الثقافية ، ولذلك يرى برى Perry أن أية حضارة معاصرة ما هى الا تراكم من العرف الذى خلفته السنون وأن التصنيف الواعى لها قد يكشف عن شرائح تنتمى الى مجموعة من الثقافات المختلفة .

والجدير بالذكر أن النظرية الانتشارية تعتمد على جهود ثلاث مدارس ساهمت فى ارساء الفكر الانتشارى . المدرسة الأولى هى المدرسة الهليوليثية Heliolithic School التى تزعمها اليوت سميث E. Smith وترى أن مصر هى الأصل الذى ظهرت منه الحضارة ، ومنها انتشرت فى كل أنحاء العالم . أما المدرسة الثانية فهى المدرسة

---

(٢٦) د. على ليله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى ، مرجع سالف الذكر ، ص ١١٦ .

(٢٧) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٧ .

(٢٨) A Alland : Adaptation in Cultural Evolution New York, 1970, p. 155.

التاريخية الثقافية الألمانية النمساوية التى يتزعمها فوى E. Foy وجرايبنر Graebner • وتذهب هذه المدرسة الى ضرورة فهم الحياة البسيطة كما يعيشها البسطاء والأسلاف أنفسهم من قبل ، وذلك من خلال مبدأ التعاطف النفسى Einfuhlung أو التقمص ، حيث يضع الباحث نفسه فى الحالة النفسية التى يعيشها المبحوث ، بقصد اعادة بناء الثقافات الأولى ، التى تتمثل فى الراقات الثقافية ، وتقدم مفتاح اعادة البناء التاريخى لعمليات الاتصال التى تمت بين الثقافات المعاصرة[٢٩] • وتأتى المدرسة الأمريكية ثالثة المدارس حيث وضع أسسها فرانز بواس F. Bous وسابير Sapir والفرد كروبر A. Kroeber

وتميز هذه المدرسة بين ثلاث مراحل لانتشار العناصر الثقافية • المرحلة الأولى هى تعرض العنصر الثقافى بعض الوقت للتأثير Exposure قبل تقبله • والثانية هى استقرار Establishment العنصر فى بيئته الثقافية الجديدة • والثالثة هى الانتشار Dissemination بعد ذلك •

٢ — التغير الثقافى الداخلى :

ويحدث هذا التغير بفعل مجموعة من الميكانيزمات الثقافية النابعة من المجتمع نفسه • ومن تلك العمليات والميكانيزمات الاختراع والتجديد والاكتشاف[٣٠] • ونحاول فيما يلى الاشارة الى كل منها بايجاز :

(ا) الاختراع :

وهو اضافة ثقافية تحدث نتيجة لعمليات مستمرة داخل ثقافة معينة • ويرى لينتون أن الاختراع هو تطبيق جديد للمعرفة • أما وليام

---

(٢٩) انظر : M. Herskovits : Op. cit., pp. 462-465.

(٣٠) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، صص ٣٥٣ — ٣٥٦ •

أوجبرن W. Ogburn فينظر الى الاختراعات على أنها توليفات بين عناصر ثقافية قائمة فعلا فى شكل جديد • ويعتبر الاختراع والاكتشاف ميكانيزمين للتجديد الداخلى فى أية ثقافة — من وجهة نظر هيرسكوفيتس — وهما اللذان يحدثان التغير الثقافى • ويكمن التمييز بين الاختراع والاكتشاف فى وجود الغرض أو غيابه ، وبالتالى يكون الاختراع اكتشافا هادفا[٣١] •

واذا كانت « الحاجة أم الاختراع » ، فانها تدفع المخترع لتقديم الجديد فى الغذاء والمسكن والزى والزراعة ، ولا تقتصر على الجانب المادى ، وانما تشمل الجانب اللامادى أو الروحى أيضا • فهناك مخترعون قدموا — أو اخترعوا — تصنيفا جديدا لمصطلحات القرابة أو مظاهر الابداع الفنى أو الدينى أو الاجتماعى •

ومن ناحية أخرى فان الاختراع يعد بمثابة « خلق غرضى لشىء ما ، جديد كلية من جذوره » • ويرى ديكسون Dixon بأننا لو سلمنا بوجود شىء ما فى البيئة يمكن استغلاله لتحقيق هدف ما (الفرصة Opportunity) ، وتعرف أحد الأشخاص على هذا الشىء وأدركه (الملاحظة Observation) عن طريق ما يتمتع به من ذكاء (التقدير Appreciation والعبقرى Genius) فيكون الدافع للمعرفة الجديدة هنا هو (الضرورة أو الحاجة Necessity) وهكذا يظهر الاختراع ويسبب التغير الثقافى •

(ب) التجديد :

وهو يشير الى أى عنصر ثقافى جديد تقبله الثقافة • وهو العملية التى تؤدى الى هذا القبول ، ويمكن اعتبارها صورة من صور التغير

---

(٣١) انظر : M. Herskovits : Op. cit., pp. 453-454.

الثقافى الذى يرتكز على التجديد والاستعارة أى الانتشار[٣٢] • ويرى بارنت Barnett أن التجديد هو « أى فكرة أو سلوك أو شيء يكون جديدا ، لأنه يختلف نوعيا عن الأشكال القائمة » • أما هيرسكوفيتس فيرى امكانية وصف عملية التجديد بأنها اختراع واكتشاف وانتشار • ويضرب مثالا على ذلك بأن الاستفادة من الخشب فى بناء قارب أو صنع مجداف جديد يعد تجديدا[٣٣] •

ويشير شوميكر وروجرز الى التجديد باعتباره مجموعة الأفكار الجديدة التى تنبع من داخل النسق الثقافى الاجتماعى نفسه ، أو من خارجه، ويضربان مثالا على ذلك بما حدث فى بيرو فى قرية لوس موليتوس Los Molinos ، وما أسفرت عنه حملات الصحة العامة من نتائج[٣٤] •

والواقع أن المجدد Innovator هو انسان هامشى يجنح عما تألفه الجماعة — على حد قول بارنيت Barnett — ولا يرضى بما يسودها من طرق تقليدية ، ويرفض الامتثال لها فى نفس الوقت[٣٥] • وهذا الصنف من الناس يعتبر أداة التغير الثقافى الداخلى ونقطة بدايته •

(جـ) الاكتشاف :

وهو عملية الاضافة الى الثقافة من خلال ملاحظة الظواهر الموجودة فعلا ، ولم يلتفت اليها أحد من قبل • ويرى لينتون أن الاكتشاف هو أية اضافة للمعرفة ، بينما يذهب هوبل Hoebel الى أن الاكتشاف هو عملية الوعى بشيء قائم بالفعل ، ولكن لم يسبق ادراكه من قبل[٣٦] •

---

(٣٢) انظر : Alexander Alland : Op. cit., p. 155.

(٣٣) M. Herskovits : Cultural Antropology, op. cit., p. 454.

(٣٤) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعيـة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٣٥) George Foster Traditional Cultures, op. cit., p. 112.

(٣٦) هولتكرانس ، قاموس الاثنولوجيا ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

والواقـع أن الشـق المادى من الثقـافة حظى باهتمام علمـاء الأنثروبولوجيا الثقافية ، على حين لم يحظ الشق اللامادى (الروحى أو المعنوى) Nonmaterial باهتمام مناظر ، وان اقتصر مجاله على اكتشـاف النظـم القرابيـة فى المجتمعـات البدائيـة التى درسـها الأنثروبولوجيون ، وعلى المعتقدات السحرية فى هذه المجتمعات[٣٧] .

والمكتشفون هم أشخاص موهوبون غالبا ، ولا يعبأون برد فعـل المجتمع تجاه خروجهم على التراث . وهم ينقسمون الى فئتين تتخذان القرارات المعجلة باحداث التغير الثقـافى الداخلى ، سـواء من خلال مواقعهم القيادية الرسمية أو غير الرسمية . **أما الفئة الأولى** فهى تضم الأشخاص الهامشيين Marginal الذين يجنحون عما تألفه الجمـاعة وتعرفه . ومن أعضاء هذه الفئة — من وجهة نظر بارنيت : الشـخص المخالف Dissident والمحايد Indifferent والفاتر Disaffected والمتعض Resentful . وهم جميعا أكثر اسـتحداثا للتجـديد ، واستجابة له وادراكا لوجوده . ويطلق عليهم هيرسكوفيتس مصـطلح الانحراف الثقافى Cultural drift الذى يعـد منبها يصـدر عن الجماعة ، أو يأتى من خارجها[٣٨] .

على حين تضم الفئة الثانية الأشخاص ذوى الهيبة Prestige laden وهم أكثر فاعلية فى التمهيد لحدوث التغير ، نظرا لما يتمتعون به من هيبة وقوة تأثير فى المجتمع . والملاحظ عموما أن الناس تتقبـل أفكار الشخص ذى الهيبة (المهيب) أفضل مما تتقبل أفكار الشخص الجانح عن الجماعة .

* * *

(٣٧) د. على المـكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سـابق ، ص ٣٥٥ .

(٣٨) M. Herskovits : Cultural Anthropology, op. cit., p. 452.

رابعا — عوامل التغير الثقافى :

تتعدد العوامل التى تحدث التغير الثقافى ، وتتنوع ما بين عوامل نابعة من داخل النسق الثقافى ذاته — وهذا ما أشرنا اليه سابقا حول التغير الداخلى — وعوامل أخرى وافدة على النسق الثقافى من خارجه — وهى ما تشير الى نمط التغير الخارجى — فتغيره • وبصرف النظر عن داخلية العوامل أو خارجيتها ، فاننا نتناولها هنا تحت عنوان واحد وهو عوامل التغير الثقافى ، وفيما يلى استعراض موجز لها :

١ — التكنولوجيا :

تساهم التكنولوجيا بدور بارز فى احداث التغير الثقافى من خلال تيسير الاتصال بين المجتمعات والقضاء على الحواجز الطبيعية بينها ، وتذويب الفوارق السلالية والتباينات العرقية • ولذلك قضت التكنولوجيا على العزلة الثقافية ، فصار العالم كله أسرة واحدة •

والواقع أن التكنولوجيا لم تترك مجالا من مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية الا وطرقته وأسهمت فيه بقدر • فقد دخلت مجال التعليم والزراعة والصناعة والاعلام والطب والحياة المنزلية والمعتقدات والترويح وسائر مجالات الحياة • لقد قدمت التكنولوجيا الآلات والأدوات الطبية التى أتاحت تقدم الطب الرسمى ، وزيادة فاعلية الوقاية وكفاءة العلاج[٣٩] ، وعلى هذا زاد تقبل الأفكار الجديدة وتبنيها ، وبالتالى تزيد حصيلة التغير الثقافى[٤٠] •

ومن جانب آخر ، فان التكنولوجيا تحدث تغيرا تزداد سرعته فى العناصر المادية عن العناصر المعنوية (اللامادية) ، وهنا يحدث التخلف

---

(٣٩) A. Alland : op. cit., p. 159.

(٤٠) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص٣٦٠ .

الثقافى • كذلك قد تفوق سرعة تغير العناصر اللامادية ، سرعة التغير فى العناصر المادية ومهما كان الأمر فان التغير الواقع قد يكون للأفضل (تغير ارتقائى أو تقدمى) ، كما قد يكون للاسوأ (تغير نكوصى أو تخلف) • وقد يكون التغير تقدميا فى عنصر من مركب العناصر ، أو يكون نكوصيا فى جزء من المركب الثقافى وهكذا •

٢ — **التعليم** : يعجل التعليم باحداث التغير الثقافى من خلال مايتضمنه من اكساب العقل مهارات فكرية وقدرات ابداعية وتنمية الملكات الذهنية • فيكتسب المتعلمون القـدرة على ربط الأسباب بالمسببات ، والمقـدمات بالنتائج • والواقع أن التعليم يعتبر عاملا داخليا للتغير الثقافى ، وعاملا خارجيا فى نفس الوقت •

ويظهر أثر التعليم واضحا فى احداث التغير الثقافى فى مجتمعات العالم (القبلى منها والحضرى الصناعى) ، فى القبائل الأفريقية والأحراش الأسيوية والمدن الأوربيـة • ولعل مظاهر هذا التغير يتضـح فى تبنى الأساليب الطبية الحديثة، وغلبة النظرة الموضوعية الى العادات والتقاليد بقدر الامكان ، وتغير المكانة الاجتماعيـة للمرأة ، واضطلاعها بدور فى المجتمع الذى تنتمى اليه • كمايؤدى التعليم الى تغيير اتجاهات الأشخاص نحو الخرافات ، ويساعد على احلال «حكمة المتعلمين» محل «حكمة المسنين غـير المتعلمين » • ولعل هذا الاحلال يتضـح من خلال ارتفاع المكانة الاجتماعيـة للمتعلمين فى الأسرة والمجتمـع المحلى ، وزيادة فاعلية دورهم فيه •

٣ — **وسائل الاعلام** : يذهب البعض الى أن التغير الثقافى ماهو الا ثمرة من ثمار وسائل الاعلام[٤١] • وهذا يدل على خطورة هذه الوسائل

---

(٤١) Communication of Innovation, op. cit., p. 7.

الاعلامية المسموعة والمقروءة والمرئية ، وعمق تأثيرها فى المجتمع وتغير ثقافته • واذا كانت الوسائل الاعلامية المقروءة قاصرة على المتعلمين والملمين بالقراءة والكتابة ، فان غير المتعلمين عموما أهم كثر اعتمادا على الوسائل المسموعة والمرئية • فالمذياع والتلفاز يوفران عناء القراءة ، ويقدمان الخدمة الاعلامية جاهزة يسيرة •

ومن ناحية أخرى فان وسائل الاعلام تلعب دورا بارزا فى تغيير طرز الزى حينا ، وبعض الأنماط السلوكية حينا آخر • علاوة على هذا فهى تكسب المجتمع عادات جديدة ، هى غالبا عادات الطبقات الأعلى ونجوم المجتمع • والجدير بالذكر أن العبرة ليست بوسائل الاعلام بقدر ما هى مرتبطة بالمضمون المذاع أو المنشور أو المبث • وبالتالى تحمل هذه المادة بصمات المشرفين على تلك الوسائل ، وتعكس طريقة تفكيرهم ، ونظرتهم للثقافة •

وقد يكون دور وسائل الاعلام فى احداث التغير ، واضحا فى اكساب المجتمع عناصر ثقافية جديدة ، والتخلى عن عناصر ثقافية قديمة • كماقد يكون هذا الدور تدعيما للثقافة السائدة فى المجتمع • ويتمثل الدور الأول لوسائل الاعلام (اكساب العناصر الجديدة) فى أنها تكسب الانسان المعرفة بالصحة والمرض ، فيستقي منها أفكاره عن العلاج والوقاية والعادات الضارة والعادات الصالحة ، علاوة على تزويده باطار من المعرفة يساعده على اكتساب الوعى الصحى • أماالدور الثانى (تدعيم الثقافة السائدة) ، فهو يتمثل فى نشر الأفكار الداعية الى التمسك بالمعتقدات الشعبية السائدة المضادة للرعايةالصحية ، أوللمنطق والعقل مثلتصوراتنا عن العالم فوق الطبيعى أو عن البيئة أو الصحة ... الخ •

٤ — ديناميات الأجيال : يطرأ التغير الثقافى بفعل ديناميات الأجيال ، حيث تلعب الجماعات العمرية دورها البارز فى هذا الصدد . لاطلاع

المحدثين على الأســاليب الجديدة للحياة • وقد صــك كارل مانهايم K. Mannheim مفهوم « الاتصال بالخبرات الجديدة » Fresh Contact ويعنى به استقبال المحدثين أو الشبـــاب للعالم بطرق جديدة ، وابتداع أســاليب جديدة للحياة ، وايجاد بدائل ثقافية فريدة مما يعجل باحداث التغير الثقافى(٤٢) • وسبب ذلك كله هو نقص خبرتهم بالحياة وقلة تجاربهم الاجتماعية التى خبرها المسنون واكتسبوها •

وتتضح معالم دينامية الأجيال ، فى احداث التغير الثقافى ، من خلال اعادة المحدثين النظر فى أهمية بعض العادات والتقاليد ، وتبنى الأفكار الجديدة ، والتحمس للقيم الجديدة ، وزيادة الاتصال الثقافى بالثقافات الجديدة ، بمعدل أسرع من معدل تبنى المســنين لتلك الأفكار الجديدة والقيم الجديدة •

٥ — **الانفتــاح على العالم الخارجى :** لقد غزت وســائل الاعلام العالم كله ، وأذابت الفروق والحواجز ، وقضت على العزلة • وعلى هذا زادت عمليــات الاتصال بالمجتمعات الأخرى ، والانفتاح على العوالم الأخرى • والاطلاع على تجارب الآخرين ، والاستفادة من خبراتهم ، وزيادة معدلات الهجرات الريفيــة الحضرية (الداخلية) ، والهجرات الخارجية المؤقتة (كالهجرة الى المجتمعات العربية البترولية للعمل فترة ثم العودة) أوالهجرة الدائمة (كالهجرة الى المجتمعات الغربية والأمريكية والبقاء فيها وعدم العودة مرة أخرى الى المجتمع الأصلى) •

لقد لعبت كل هذه العوامل دورها الواضح فى احداث التغير الثقافى، حيث يكتسب الانســان قيما جديدة كالانجاز والسرعة واحترام الوقت

---

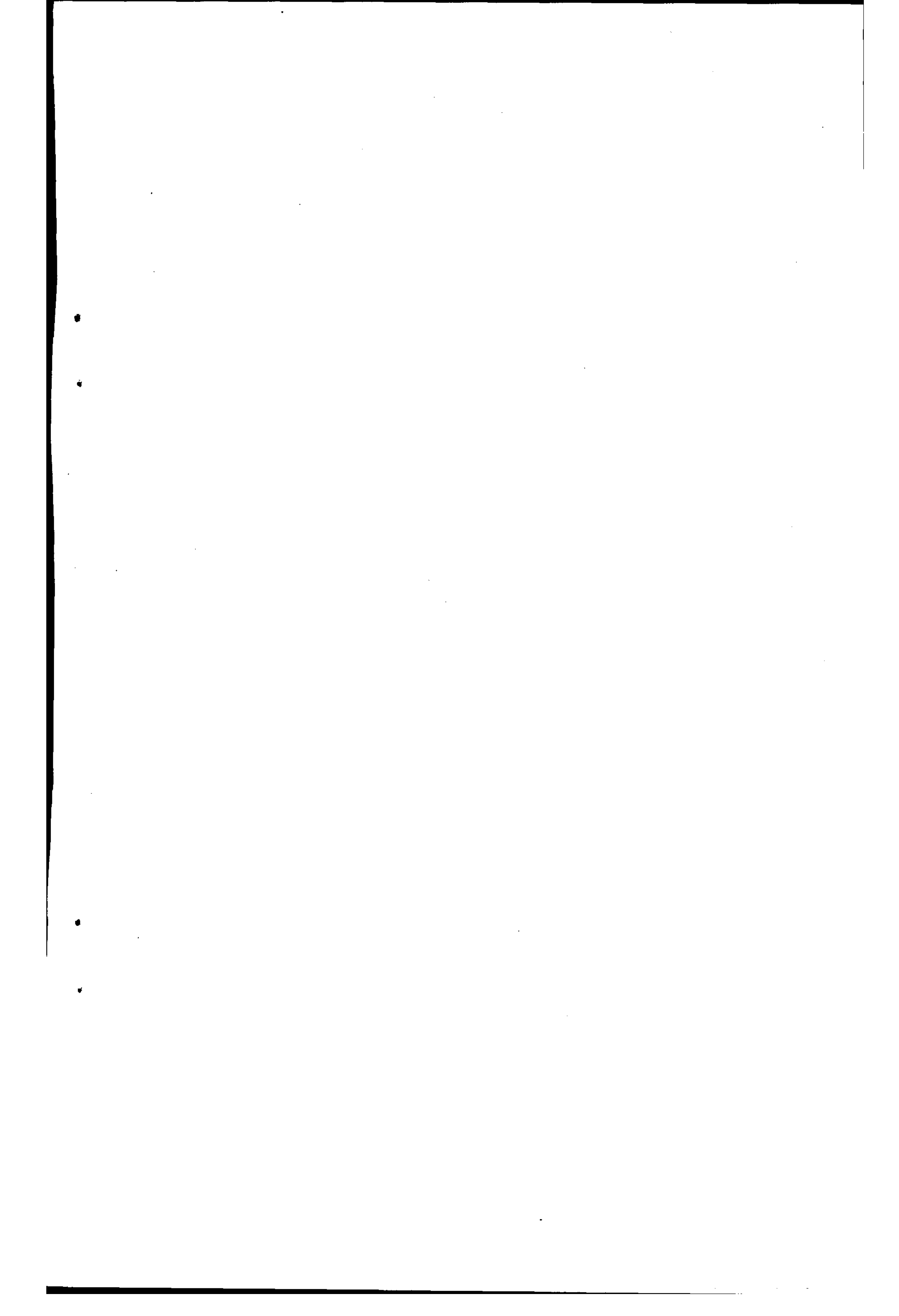
(٤٢) Vern Bengtson and Other : «Time, Aging and The Continuity of Social Structure», in : Journal of Social Issues, Vol. 30, 1974, p. 25.

ومراعاته . كما صار أكثر حرصا على التعليم — وتعليم البنات أيضا — وعماله المرأة ونوالها المكانة المناظرة لمكانة الرجل . وعلاوة على هذا تتعدل نظرة الانسان الى الحياة والعالم ، وتتسع آفاق معرفته ، ويكتسب ثقافة خاصة جديدة(٤٣) . ولذلك يساعده انفتاحه على العالم الخارجى ، على التعامل مع مواقف الحياة الاجتماعية والثقافية من منظور ثقافته الجديدة المكتسبة ..

* * *

---

(٤٣) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٦١ .



الفصل الخامس

الاتصـــال الثقـــافي

بين الثقافتين الجزائرية والفرنسيـــة

الفصل الخامس

الاتصـــال الثقـــافى

بين الثقافتين الجزائرية والفرنسيـــة(*)

* * *

مقـــدمة :

حظى موضوع الاتصـــال الثقافى باهتمام متزايد من قبل الباحثين الانثروبولوجيين ، وذلك لأهمية الموضوع من جانب ، ولتقدم البحث فى الانثروبولوجيا من جانب آخر ، وفى غضون ذلك زاد الاهتمام بديناميات التغير الثقافى ، والتأثير المتبال بين الثقافات المختلفة ، وهى موضوعات احتلت مكانة بارزة فى البحث فى الدراســات الأنثروبولوجية الحديثة ، والأنثروبولوجيا الثقافية بوجه خاص ، ويرى « ملفيل هيرسكوفيش » أن ذلك الاهتمام قد جاء كرد فعل ازاء افراط الانثروبولوجيين فى الدراسات التطورية والتاريخية والتى استحوذت على اهتمام علماء الانثروبولوجيا لسنوات طويلة فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

كما جاء الاهتمام بالموضوع فى ثنايا الجهود الحديثـــة التى بذلها الأنثروبولوجيون فى محاولتهم لفهم الانتشار الثقافى Cultural Diffusion ، والتكيف الثقافى Cultural Adaption ، والتمثيـــل الثقافى Cultural Assimilation ، والتغير الثقافى .

ولقد ظهر واضحا أن صعوبة الدراسة فى هذا الموضوع لا تكمن فى

(*) هذا الفصل هو عرض للدراسة التى أجراها محمد حافظ دياب وموضوعها الاتصال الثقافى بين الجماعات الاثنية : دراسة للجالية الجزائرية بمدينة مرسيليا ، رســالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القــاهرة ، ١٩٧٩ .

دوافع الاتصال الثقافى فحسب ، ولكن تكمن فى محاولة فهم شروط هذا الاتصال وعملياته واستجاباته وأثره فى نسق حياة الجماعات والمجتمعات المختلفة •

والدراســـة التى نعرض لها هى احدى الدراســات التى اهتمت بالموضوع حيث أجريت على الجاليـــة الجزائرية التى تعيش فى مدينـــة مرسيليا بفرنسا •

أولا : أهداف الدراسة :

ولقد حدد الباحث هدف دراسته فى تقديم وصف متكامل لمجالات التفاعل الاجتماعى بين الجزائريين والفرنسيين بالصورة التى تساعدنا فى التعرف على عمليات واستجابات الاتصال الثقافى ، والتى تسرع أو تحول دون التكيف ، أو التمثيل الثقافى بين الجانبين •

ويثير الباحث فى مستهل دراسته عديدا من القضايا حول موضوع الاتصال الثقافى بدت كمحددات أو محاور ينطلق منها لدراسة الاتصال بين الثقافة الجزائرية والفرنسية ومنها :

— أن البناء الاقتصـــادى القائم — والذى تشارك فيه الجماعات الاثنية — يؤثر على استجابات الاتصال الثقافى •

— أن معرفة الكيفية التى تتم بها العلاقات الشخصية بين الجماعت الاثنية يمكن أن تفيد الى حد كبير اذا ماأردنا استيضاح عمليات الاتصال الثقافى •

— أن درجة مشاركة الجماعات المتباينة ثقافيا فى مجال النشـــاط السياسى يمكن أن يلقى الضوء على طبيعة ونوعية الاتصال الثقافى •

وقد اعتمد البـــاحث فى دراسته على المنهج الأنثروبولوجى باعتبار

الدراسة تنتمى الى الأنثروبولوجيا الثقافية ، كما استخدم فى التحليل بعض أدوات المنهج السوسيولوجى بأدواته الكمية .

وبعد عرض التراث النظرى حول موضوع الاتصال الثقافى يستخلص الباحث عـــددا من الملاحظات تدور حول طبيعة اهتمام الدراســات الأنثروبولوجية بظاهرة الاتصال الثقافى ، وتتخذ منها الدراســة نقاطا للضوء ، ويمكن عرض هذه الملاحظات فيما يلى :

١ — أن معظم الدراسات التى تمت فى ظل مواقف الاتصال الثقافى جاءت بين الثقافات الأوربية والثقافات البدائية ، خلال ظروف تميزت بوجود سيطرة من الثقافة الأوربية ، ولقد دعا ذلك الأمر الى تركيز هذه الدراسات على تأثير الثقافة الأوربية على الثقافة البدائية باعتبار الأولى أكثر رقيا وتقدما .

٢ — أنه بالرغم من أن دراسات الاتصال الثقافى أضحت تؤلف نسبة لا بأس بها فى الكتابات الأنثروبولوجية ، فان هذه الدراسات قد صاغت عددا من التعميمات التى تلقى بعض التحفظ ، مثل القول بأن الشعوب التى تتصل ببعضها تتبادل اقتبــاس العناصر الثقافية ، أو القول بأن الثقافات المتجاورة تتلاقى غالبا فى عناصر مشتركة أكثر من تلك التى تتلاقى فيها الثقافات غير المتجاورة ، أو القول بأن التغير فى النسق المادى الثقافى أيسر من التغير فى النسق اللامادى .

والواقع أن نتائج الدراسات التى قدمها « ردفيلد » و « ليندجرين » تنفى الأخذ بمثل هذه التعميمات ، كما أن نتائج الدراسات الحديثة قد أثارت الشكوك حول صحة الرأى القائل بسرعة تغير عناصر الثقافة المادية بشكل أسرع من اللامادية .

٣ — أن بعض هذه الدراسات قد ركزت الاهتمام علي التغير الذى

يطرأ على المحتوى الثقافى ولم تزودنا الا بالقليـــل عن التغيرات البنائية فالتغيرات الاحلالية قد تؤدى فى الواقع الى احداث تغير بنائى ضئيل •

٤ ــ ان اهتمام كثير من الدراسات الخاصة بالاتصال الثقافى كان منصبا على دراسة استجابات هذا الاتصال الايجابية على بعض جماعات الصفوة فى الثقافة المختلفة غالبـــا ، وهى الجماعات التى تبدى ترحيبا قويا بالمؤثرات الخارجية الوافدة من الثقافة المتقدمة ، وتتعهدها وتعمل على الترويج لها وترسيخها فى الأوساط الاجتماعية الأخرى • وقد نتج عن هذا الابتعاد عن محاولات علاج موضـــوع اتجاهات الاتصال الثقافى وتأثيراتها واستجاباتها فى الأوساط الاجتماعية الأخرى •

٥ ــ الخلط الواضـــح فى استخدام المفاهيم ، وبالذات مفهومات الاتصال الثقافى والتكيف الثقافى ، والتنشئة الثقافية •

وينتهى الباحث الى أنه بالرغم من هـــذه الملاحظات ، الا أنه يمكن القول بشكل عام أن دراسة موضوع الاتصال الثقافى قد جعلت التحليل الأنثروبولوجى يميـــل الى أن يتخذ طابعا أكثر ديناميـــة • فلم يعد الأنثروبولوجيون ينظرون الى الشعوب البدائية باعتبارها شعوبا سلبية تتقبل الثقافة الواردة فى خضوع واستســـلام ، بل بدأوا يهتمون خاصة بموقف الثقافات والنظم التقليدية من الثقافة الجديدة الطارئة ورد فعل واستجابات هذه الشعوب •

مفهوم الاتصـــال الثقافى :

تبنى الباحث مفهوما للاتصال الثقافى يشير الى أن العمليـــة التى تتصل عن طريقها ثقافتان اتصالا وثيقا ، ومايترتب على ذلك من تغيرات

---

(١) انظر : محمد حافظ دياب ، المرجع السابق ، ص ٤٨ •

يكون من نتيجتها ازدياد التشابه بين الثقافتين ، ويرى أن تحديد المفهوم بهذا الشكل يســاعد على التمييز بين مفهوم الاتصال الثقافى وغيره من المفاهيم كالتغير الثقافى والتكيف الثقافى والتمثيل الثقافى والانتشار الثقافى، وهى فى مجموعها مفاهيم ترتبط بالثقافة .

ثانيا : الاستجابات المتوقع حدوثها من الاتصال الثقافى(٢) :

عندما تتصل جماعة بأخرى فهناك عدة استجابات متوقعة منها :

١ ــ القبــول :

ويرى كل من « ردفيلد » و « ولنتون » و « هيرسكوفيتش » أن أول استجابات للاتصال الثقافى هى القبول ، ومن خلاله يحدث الأخذ بعنصر ثقافى أو جزء من ثقافة أو ثقافة بأكملها ، وقد يفرض هذا القبول بواسطة جماعة حاكمة ، وقد حدثت حالات من هذا النوع كتلك التى حدثت فى ثنايا الاستعمار الأوروبى لبعض البلدان . حيث بدأت بعض الدول الاستعمارية بفرض بعض عناصر ثقافتها بقرارات سياسية . وقد يحدث القبول طوعا أو تلقائيا ، ولعل هذا النوع من الاتصال الثقافى هو القاعدة الشائعة الآن فى المرحلة الراهنة من مراحل تطور المجتمعات النامية . وتنعكس آثار ذلك الاتصال فى كثير من الجوانب التكنولوجية وغيرها من الأنماط السلوكية فى الملبس وأسلوب الحياة .

٢ ــ التــكيف : Adaptation :

ويعنى التكيف تحقيق توازن بنائى داخلى وخارجى جديد بواسطة أحكام العنصر الثقافى الذى تم قبــوله لكى يتواءم مع نظائره فى ثقافة

---

(٢) أنظر مخطوط الرسالة ، ص ٦٤ ومابعدها .

المستعير ، ويتم ذلك من خلال مجموعة من العمليات كالاضافة لسمات أو مركبات أو نظم ثقافية جديدة الى العناصر القائمة دون فقدان العناصر القديمة ، أو التجديد حيث تحدث اضافات جديدة أو بناءات ثقافية جديدة ليس لها جذور فى الثقافتين ، أو يحدث اندماج عندما تفقد ثقافة معينة استقلالها ولكنها تظل قائمة كثقافة فرعية حيث تشكل طبقة مغلقة .

٣ ـ رد الفعل Reaction :

وهى الاستجابة المتوقعة للاتصال الثقافى ، وتحدث عندما تكون التغيرات المطلوب احداثها من الشدة والسرعة بحيث لايستطيع عدد كبير من الأفراد تقبلها . وفى مثل هذه الحالة تبذل الجهود لمقاومتها ، وهى جهود تتخذ شكل محاولات العودة الى الماضى ، أو الاغتراب الاجتماعى .

ثالثا : التعريف بالجماعات الاثنية :

يلقى الباحث الضوء على الخلط الشائع فى مفهوم الجماعات الاثنية Ethnic group والذى ظل سائدا لفترة طويلة فى مجال الدراسات الاثنولوجية والأنثروبولوجية ، ويؤدى هذا الخلط الى تشابك العلاقة بين هذا المفهوم وغيره من المفهومات الأخرى أو المصطلحات الأخرى كالسلالة Race والثقافة ، كما شاع استخدام ذلك المصطلح بشكل متسع ، حيث استخدم ليشير الى بعض الجماعات المنعزلة جغرافيا ، والمتشابهين فى الخصائص أو الملامح الفيزيقية ، كما استخدم المفهوم للاشارة الى الجماعات التى تنحدر من أصول قومية مشتركة أو الذين لهم أصول دينية مشتركة .

ويوضح فردريك بارث F. Bath مفهوم الجماعات الاثنية بأنها جماعة تمتلك ملامح محددة تميزهم عن الجماعات الاجتماعية الأخرى ،

وهذه الملامح تشمل الوضع الخاص والشعور بالنوع ، والمشاركة فى قيم وسمات محددة .

ويرى بارث أن الحدود الاثنية Ethnic Boundaries ثابتة نسبيـــا رغم التفاعل بين الجماعات عن طريق تدفق الأشخاص من جماعة لأخرى والناتجة عن الهجرات ، والغزوات ، والتفاعلات الاجتماعيـــة ، والتجارة والسيطرة .

كما يوضح « كارل ايزيكوفيتش » الحدود الاثنيـــة فى الجوانب التاليـــة :

— الاختلافات فى أسلوب التعبير سواء أكانت اللغة أو اللهجة أو الاتصـــال والتصرفات والاشارات وآداب الســلوك والعادت والعرف السائد .

نسق القيـــم والتى هى نتاج النظرة الى الحياة ، وطبيعة البناء الاجتماعى ، وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بأساليب التغير .

— التوحد الذاتى Self identification ، ويقصد به درجة الانتماء الى الجماعة ، وينبغى هنا أن ندرك الجانب السلبى أى الانتماء الى الجماعة المجاورة ، حيث يكون الانتماء أو المطابقة مع الجماعة الخاصة محدودا أو فى مواقف معينة[٣] .

رابعا : مجال التفاعل الاجتماعى بين الجماعات الاثنية :

يرى براون W. Brown أن العلاقات الاجتماعية بين الجماعات الاثنية تمر بالمراحل التالية :

— الاتصال الأولى ، ويمثل حدا أدنى من الاتصالات الاجتماعية الفعلية ، ويتميز بأنه مشوب بعداء واضح وخوف واستغراب .

---

(٣) انظر مخطوط الرسالة ص ١٠٤ .

ــ ظهور بوادر الصراع حيث تتضارب وتتعارض الآراء فيما يتعلق بالمصالح •

ــ التوافق المؤقت ، حيث يسود التفاهم والتبعية بالنسبة للأضعف، واذا كان حجم الجماعة الأضعف صغيرا فمن المحتمل أن تستغرق داخل الجماعة المسيطرة •

ــ الكفاح من أجل المكانة ، حيث تبدأ ثقافة الجماعة الأدنى فى التفكك ونادرا مايحاول نسق اجتماعى العيش من خلال الخضوع والتبعية المطلقة •

ــ أما المرحلة الأخيرة فهى اما أن تكون العزلة التامة ، أو الخضوع والاندماج وهو أمر من المتعذر تجنبه(٤) •

ويحدد الباحث فى هذه الدراسة عددا من المجالات لقياس مدى التفاعل بين الجماعة التى يدرسها وبين المجتمع الفرنسى • ومن هذه المجالات :

١ ــ المجال الاقتصادى :

ومن خلال هذا المجال يمكن الكشف عن الدور الذى تلعبه الجماعة الاثنية فى النشاط الاقتصادى ، والمهن التى يشيع ممارستها ، وطبيعة تقسيم العمل بين الجماعة الاثنية والجماعات الأخرى ، وأشكال التمييز فى الأجور •

٢ ــ المجال الشخصى :

ويتضمن هذا المجال الزواج والجوار والصداقة • فبالنسبة للزواج فقد تقف القيم السائدة بين بعض الجماعات عائقا فى مجال التزاوج بين

---

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٤ •

الجماعات ، وبالتالى فان ذلك يعوق بدوره من عملية الاتصال الثقافى ويقلل من سرعة تأثيرها •

أما الجـوار فيمكن أن يؤدى دورا هاما فى علاقات التفـاعل بين الجماعات ويتوقف ذلك على ماإذا كانت الجماعة المستقبـلة تقبل وجود الجماعة الاثنيـة الوافدة ولاتعمل على عزلتها مكانيا ، ومن جانب آخر ألا تكون الجماعة الاثنيـة قد اتخذت لنفسها منطقة محددة انغلقت فيها على نفسها ، حيث يعوق ذلك الانغلاق المكانى أو يحد من سرعة تشرب بعض القيم ، وتظل الجماعة الاثنية محتفظة بقيمها لفترة أطول •

٣ ـ المجال السياسى :

ومن خلال هذا المجال يمكن الكشف عن طبيعة الاتصال الثقافى بين الجماعة الاثنية وبين المجتمع الأصـلى ، فمن خلال اكتساب الجنسية وتنظيم الروابط الاجتماعية للجماعات الاثنية يمكن فهم الكثيرمن الجوانب حول مدى تمثل بعض الأفراد فى هذه الجماعات الاثنية لثقافة المجتمعات الجاذبة •

خامسا : الجماعات الاثنية بفرنسا :

كانت تشكل الجماعات الاثنية فى فرنسا وقت اجراء هذه الدراسة نسبة كبيرة من السكان حيث وصـلت نسبتهم ٨ر٧٪ من اجمالى السكان أى حوالى ٢٦١ر١٥٣ر٤ وذلك حسب تعداد ١٩٧٧ • ويشـكل هؤلاء الأجانب خليطا من جنسيـات مختلفة هم الاسبان ، والايطاليـون ، والبرتغاليون ، والبولنديون ، واليوغسلافيون ، والجزائريون ، والمغاربة ، والتونسيـون ، والسنغاليون ، والأفارقة ، والفيتناميـون ، والأتراك ، واليونانين ، وأقليات أخرى من جنسيات مختلفة •

أما عن الجماعة الجزائرية التى شكلت محورا لهذه الدراسـة فان

هجرتها الى فرنسا هى هجرة تاريخية قديمة ، بدأت فى حوالى عام١٨٧١ ، وقد بلغ عدد الجزائريون فى يناير١٩٧٧ حوالى ٧٨٢٩٣٤ ، وتعد من حيث العدد من أكبر الجاليات المهاجرة فى فرنســا ، حيث تبلغ نسبتهم ١٨٫٨ من اجمالى حجم الهجرة الى فرنسا • ومن حيث التركيب النوعى للجماعة الجزائرية يلاحظ زيادة فى عدد الذكور عن الاناث فيها ، حيث تمثل نسبة الذكور ٧٣٫٩٪ والنسبة الباقية يشغلها الاناث ، ومن حيث فئات العمر ، فقد كانت النسبة العظمى تقع فى الفئة العمرية من ٢٠ — ٢٤ سنة حيث بلغت نسبة هذه الفئة ٤٣٫٣٪ من الجمالى الجماعة الجزائرية ، وهو سن العمل والجهد والعطاء ، ولعل الدافع وراء هذه الهجرة هو سوء الأحوال بالجزائر وانخفاض الأجور وقلة فرص العمل بالقياس الى فرنسا ، وذلك فى أعقاب الاحتلال الطويل من فرنسا للجزائر ، وماترتب عليه من آثار اجتماعية واقتصادية ، انهك خلالها الاقتصاد الجزائرى ، واستنزف فى غضون حرب الاستقلال وتعرض للاستغلال •

ومن الملاحظ أيضا حول خصائص الجماعة الجزائرية المهاجرة الى فرنسا أن معظمهم قد هاجروا من المناطق الريفية اذ بلغت نسبتهم ٦٠٫٨ والنسبة الباقية والتى مقدارها ٣٩٫٢٪ قد وفدوا من المناطق الحضرية •

كماكان مايقرب من نصف المهاجرين — الجزائريين من العذاب حيث بلغت نسبتهم ٥٧٫٧٪ أما المتزوجون منهم فقد بلغت نسبتهم ٣٥٫٢٪ كماأنتشرت الأمية بين الغالبية العظمى من أفراد الجالية الجزائرية حيث كانت نسبتها ٨٧٫٨٪ ، ونسبة ١٢٫٣٪ تعرف القراءة والكتابة ، ونسبة ضئيلة مقدارها ٤٫١٪ كانت حاصـــلة على مؤهلات متوسطة • ومن ثم التحقت غالبية العمال فى قطاعات النشاط الاقتصادى التى تتطلب جهدا بدنيا كالبناء ، والأشغال العامة ، ومهن معينة داخل قطاع الصناعة ، وغيرها من المهن التى لا تحتاج الى مهارة •

سادسا : الخصائص الايكولوجية لمجتمع الدراسة :

تقع مدينة مرسيليا على البحر الأبيض المتوسط فى الساحل الجنوبى لفرنســا ، ولعل ذلك الموقع المتميز هو الذى جعــل منها منطقة جذب للمهاجــرين وبشكل خاص الوافدين من الشمال الأفــريقى • كما تعد مرسيليا الميناء الفرنسى الأول والمدينة الثالثة من حيث الحجم بعد باريس وليون ، وقد أدى ذلك الموقع الجغرافى المتميز الى احتكار مرسيليا لجزء كبير من التجارة الفرنسية مع الشرق ، كما تضم العديد من الصناعات التى اعتمدت على واردات البترول • وغــير ذلك من الصناعات كصناعة الصابون والزيوت ، بالاضافة الى شهرتها فى صناعة السفن ، والمنتجات الكيماوية والأغذية والملابس والأثاث والتبغ •

ويتمركز المهاجرون فى مناطق معينة ، وتكاد تكون هذه ظاهرة عامة لكافة المدن التى تستقطب المهاجرين • والملاحظ أن معظم هذه الجماعات الاثنيــة تشترك فى مشاكلها من حيث الحاجة الى توفير المسكن الصحى الملائم ، والشعور بالطمأنينة والأمن ، والحاجة الى اكتساب قيم وثقافة المجتمع الفرنسى حتى يتحقق التكيف للمهاجر فى المجتمــع الجديد الذى وفد اليه •

سابعا : التفاعل بين الجالية الجزائرية والمجتمع الفرنسي بمرسيليا :

اتخذ الباحث مجموعة من المؤشرات لقياس مدى ذلك التفاعل أو الالتقاء بين الثقافتين الفرنسية والجزائرية ، ومن هذه المؤشرات كما سبق أن ذكرنا الجيرة والصداقة والزواج •

وتتناول هذه المؤشرات كماأفصحت الدراسة الميدانية عنها :

١ — الجيرة :

لوحظ أن أفراد الجالية الجزائرية يميلون الى الاقامة فى جوار أفراد ينتمون الى نفس الجماعة الاثنيـة لأسباب عديدة منها الدعم النفسى ، والمساعدة الاجتماعية والاقتصادية التى يمكن أن تقدم اليهم من أعضاء الجماعة . كمالوحظ أن ثمة عزلة نسبية تميز العلاقات بين الجماعة الاثنية الجزائرية وبين الفرنسيين ، فالعلاقات الاجتماعية بينهما محدودة ، بل يمكن القول أن النمط السائد من الجيرة يتصف بالجوار المكانى ، فالعزلة متسعة ، والاتصـال محدود للغاية وقاصر على مجالات العمل ، بما فيه من صراع واضح حيث التمايز المهنى ومايترتب عليه من تمايز فى الدخول ، قد دعم الشعور بالتعصب . مماخلق نوعا من النفور والاستياء أدى بدوره الى هذه العزلة وعدم الرغبة فى الاختلاط .

فالاختلافات الثقافية والاحسـاس الايجابى بالهوية الاثنية لدى الجماعة الجزائرية ، وماتبع ذلك من مشاعر التعصب ، قد حالت جميعها دون توثيق العلاقات الاجتماعية بين الجماعة الجزائرية والفرنسية .

٢ — الصـداقة :

تعد الصداقة مؤشرا هاما للقبول الاجتماعى ، بل انها اذا ماتوطدت فمن الممكن أن تمهد الطريق الى التمثيل الثقافى ، وقد تقوم بين الأفراد أيا كانت هويتهم الثقافية . وقد كشفت الدراسة الميدانية — التى نحن بصددها — أن ٣٪ من العينة التى أجريت عليها الدراسة والبالغ عددها ٢١٨ جزائريا هم الذين تربطهم علاقات صداقة مع الفرنسيين ، أماالنسبة الباقيـة والتى مقدارها ٩٧٪ لاتربطهم بالفرنسيين مثل هذه العلاقة . كماأفصحت الدراسة الميدانية أن العلاقات التى يقيمها الجزائرى بمرسيليا

تتحدد بحدود بنى وطنه المقيمين بفرنسا • حيث أجاب ٨٧٪ من أفراد العينة أن أصـدقائهم من غير الأقارب فى فرنسا هم جزائريون ، وأجاب ١١٪ بأن أصدقاءهم من الجماعات التونسية والمغربية والعربية ، ونسبة ٢٪ فقط هى التى تقوم بينها وبين الفرنسيين علاقات للصداقة •

كما كشفت الملاحظات الميدانية للباحث فى هذه الدراســة فى مركز للتعليم الفنى الثانوى يضم جزائريين وفرنسيين ، أن اقوال المدرسين ، وكذلك ماتتضمنه البرامج المدرسية المقررة ، تكشف عن انعكاسات واضحة لأنماط من الصراع والتوتر القائم بينهم ، وتبدو هذه المشــاعر فى سلوك التلاميذ الفرنســيين تجاه زملائهم الجزائريين ، المتسم بالعداء ، وفى التعبيرات اللفظية التى يخاطبونهم بها والتى تنم عن التعصب •

وثمة عدد آخر من المظاهر تســاعد بدورها على عدم قيام علاقات شخصية وثيقة بين الجزائريين والفرنسين يوضحها الجدول التالى :

مظاهر المضايقات التى يعانيها أفراد العينــة
من المجتمع الفــرنسى(٥)

المضايقات	العدد	النسبة٪
احتقار الجزائريين	٣٦	١٦ر٥
رفض اسكان الجزائريين	٩	٤ر٥
عدم مســاواة العامل الجزائرى مع نظيره الفرنسى	٨٧	٤٩ر٩
تشغيل الجزائريين فى أعمال هابطة	٢٧	١٢ر٤
اعجاب الفرنسيين المبــالغ بأنفسهم	٧	٣ر٢
كراهية الجزائريين	٢٨	١٢ر٨
مظاهر اخرى	٥	٢ر٣
ليست هناك مضايقات	١٩	٨ر٧
	٢١٨	١٠٠٪

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

٣ ـ الزواج :

ويلعب الزواج كنظام اجتماعى دورا هاما فى تحقيـق التقارب أو التباعد ، باعتبـاره أحد مظاهر القبول الاجتماعى • والزواج على نحو مايرى « ليفى ستروس » تؤثر فيه عوامل شعورية وعوامل لا شعورية ، كالمسافة بين اقامة كل من الزوج والزوجة ، والأصل الاثنى ، والمستوى التعليمى أو التربوى • كما تختلف الثقافات فى تحديد الطريقة التى يتم بها الزواج من حيث كيفية الاختيار وأسسه ، وفى مجتمع الدراسة التى نحن بصدد عرضها كانت علاقات المصاهرة تتم فى أضيق الحدود ، وكانت تتم بين الجزائريين والفرنسيات بنسبة محدودة • حيث أفصحت الدراسة الميدانية على أفراد العينة أن :

٨٠ ٪ متزوجون من أقاربهم الجزائريات •

١٢ ٪ متزوجون من غير أقاربهم الجزائريات •

٧ر٥ ٪ متزوجون من عربيات غير جزائريات •

٠ر٥ ٪ متزوجون بفرنسية •

وفيما يتعلق بالزواج داخل الجماعة الجزائرية فقد كانت ترتبط به مجموعة من القيـم وأنماط السلوك تميز هذه الجماعة ثقافيا عن المجتمع الفرنسى ، فالأسرة لها دور أسـاسى فى الاختيار مع الشاب لزوجته ، وتلعب القرابة دورا هاما فى ذلك الاختيار ، حيث يفضل الاختيار من دائرة الجماعة القرابية ، وللأب الكلمة النهائية فى هذا الاختيار •

وعلى العكس من ذلك فان الاختيار للزواج بالمجتمع الفرنسى مرتبط بنمو الفردية والاستقلال الاقتصادى والفكرى • وتحدد الدراسة عوامل انخفاض معدل الزواج بين الجماعة الجزائرية والفرنسيات الى مايلى :

١ — الاختلاف الثقافى الواضـــح بين الجماعتين الاثنيتين ، والذى يتمثل فى طريقة المعيشـــة والتفكير والنظرة الى الحياة ومجموعة القيم والمعايير والأنماط السلوكية السائدة •

٢ — التمايز القائم فى مجالات التقســيم المهنى وتوزيع الدخول وماتركه ذلك التمايز من انعكاسات بينهما •

٤ — التجنس :

كانت الحكومة الفرنســية تعطى العديد من التسهيلات للمهاجرين الجزائريين ، للحصول على الجنسية الفرنسية ، وبخاصة أصحاب العائلات• وبعد استقلال الجزائر خصصت فرنســا ثلاث سنوات يحق فيها لكل جزائرى يعمل فى أرضها اجراءات للتعجيل بتجنيس الجزائريين ، الا أن الجزائر فى ذلك الوقت لم تكن تعترف بهذا التجنيس وتعتبر الجزائريين المجنسين من مواطنيها وليسوا فرنسيين ، وتزداد المشكلة تعقيدا عندما تطرح قضية أطفالهم الذين يولدون بفرنسا من أب جزائرى وأم فرنسية حيث كانت الجزائر تعتبــرهم جزائريين ، أما فرنســا فكانت تعتبرهم فرنسيين حتى سن الحادية والعشرين ، حيث يستطيــع بعدها أن يقرر فيما اذا كان يقبل أن يبقى فرنسيا ، أو يختار جنسية أبيه الجزائرى ، وبالرغم من هذه التسهيلات التى منحتها الحكومة الفرسية لأعضاء الجالية الفرسية فأن نسبة كبيرة من أفراد العينة حوالى ٥٥٫٦٪ أكدوا رغبتهم فى العودة الى الجزائر ، بل ونجد أن الغالبيــة العظمى من أفراد العينة يراودهم الحنين الى وطنهم الجزائر ، وينعكس ذلك الحنين فى عبارات أحد أفراد العينة بقوله « اننى أبعث كل أسبوع برسالة الى ابنتى وأطلب منها أن تكتب هى الأخرى بخط يدها وتطلعنى على أحوالها وعلى تقدمها فى الدراســة ، وعندما أبدت رغبتها فى القدوم الى فرنســا مع والدتها عارضتها فى ذلك لأن بقاءها فى أرض الوطن يساعدها على مواصلة تعليمها

بلغتنا الوطنية ، كما أننى أعلم أنها اذا ماقدمت الى فرنسا فسوف تذوب شخصيتها الجزائرية فى الشخصية الفرنسية .

كما يعبر فردا آخر من أفراد العينة بقوله « اننى أفضل أن أعيش فى منزلى البسيط بالريف على الاقامة فى فرنسا ، فهناك فى مسقط رأسى يمكن أن أنعم بحياة هادئة ، أما فى مرسيليا فنعيش هنا سلسلة من المشاكل الصحية والعصبية وغيرها » .

وبشكل عام فقد ظهر من الدراسة أن علاقة الجزائريين بالفرنسيين تنتمى الى ذلك النـوع من العلاقات التى تعرف بالعلاقات التكافلية أكثر منها علاقات اجتماعـية ، فهما يعيشان فى تجاور مكانى ولكن على درجة متفاوتة من حيث عزلة السلوك الاجتماعى .

فعلى الرغم من أن أغلبية أعضاء الجالية الجزائرية يتحدثون الفرنسية نتيجة طول فترة بقاء الفرنسيين بالجزائر ، الا أن ثمة اختلافات كثيرة تفصل بينهما ، منها تمسك أعضاء الجالية بالتقاليد والعادات الجزائرية مثل تفضيل الذكر على الأنثى عند الميلاد ، واتمام اجراءات الزواج حسب الشريعة الاسلامية والتقاليد الوطنية ، وعدم السماح لاشتراك المرأة فى الحفلات العامة ، واختيار أسماء عربية للأطفال .

ويخلص الباحث الى أن التفاعل بين الجزائريين والفرنسيين ينتظم فى مجالين :

الأول : هو المجال العام حيث العلاقات بين الجماعتين قائمة من أجل المصلحة المتبادلة فيما يتعلق بتحقيق أهداف النشاط الاقتصادى ، ويمكن القول هنا أن هذه العلاقة تتسم بالتعاون فى العملية الانتاجية وان كان ذلك لا يعنى أن العلاقات تقوم على الاتفاق التام .

الثانى : ويمكن تسميته بمجال الجزائريين المغلق ، حيث ثمة دائرة محدودة لعلاقات تكاد تقتصر عليهم ، والتى تبدو فى اتصالاتهم وزيجاتهم وحفلاتهم ، وتسوده مجموعة من الأفكار والمعتقدات والتوقعات تحدد أسلوب المعاملة الخاصة بهم دون غيرهم .

أمابشأن الاتصال الثقافى فقد أظهرت الدراسة أنه ليس هناك مجال للاتصال بين الجزائريين والفرنسيين يمكن أن يؤدى الى التكيف أو التمثيل الثقافى بينهما . بالرغم من أن هناك اكتسابا لعدد من الخصائص والسمات التى امتدت لتشمل جوانب من حياة الجماعة الجزائرية ، مثل ما يتعلق باستخدامهم للأدوات المنزلية الحديثة ، وبعضا من التأثيرات المحدودة فى جوانب الثقافة غـير المادية مثل نظرتهـم للتعلم وللتكوين المهنى ، وللاستمتاع بالحياة . الا أن هذه السمات لم تؤد فى الواقع الى نوع من التقارب بين الثقافتين الفرنسية والجزائرية . بل يمكن القول ان النمط الانسحابى هو النمط السائد بين أغلب أعضاء الجماعة الجزائرية : والذى ينطوى على عدم قبول قيم ومعايير المجتمع الفرنسى ، وهو مايظهر عند معظم أعضاء هذه الجماعة فى الرغبة والحنين للعودة الى الوطن .

* * *

الفصل السادس

الثقافة المصرية

والتنشئة الاجتماعية

الفصل السادس

الثقـــافة المصـــرية

والتنشئـــة الاجتماعيـــة(*)

تقـــديم :

مثلت دراســـة التنشئة الاجتماعية ميدانا للالتقـــاء المعرفى بين الأنثروبولوجيا وعدد من العلوم الأخرى التى تهتم بدراسة الانســـان والمجتمع ، ومنها علم النفس والاجتماع ، وعلم التربية ، وأدلى كل فرع من هذه الفروع بدلوه فى معالجة هذا الموضوع الهام • ولقد بات مؤكدا أن تعقد هذا الموضوع يتعذر معه المعالجة من منظور واحد ، كما نما هذا الفهم بعد أن قدم الأنثروبولوجيون من الرواد الأوائل مثل مالينوفسكى ، ومارجريت ميد وغيرهما الكثير من الحقائق حول أنماط التنشئة الاجتماعية لدى بعض الجماعات البدائية ، والتى تفرز صياغات للشخصية تتجاوز الكثير من المســلمات التى طرحها علماء النفس حول الشخصية بصفة عامة ، وحول خصـــائص النمو بالمراحل العمرية المختلفـــة ، باعتبارها خصـــائص عامة ومطلقة ولابد أن يمر بها الشخص فى كافة المجتمعات الانسانية • وفى هذا السياق ظهرت أهمية الثقافة كاطار اجتماعى يوجه العديد من العمليات النفسية ، فالتنشئة هى قناة الاتصال الفعالة فى صياغة الفرد منذ نعومة أظفاره ، ومن خلالها تنتقل أنماط السلوك ، والمعايير والقيم من الجماعة ، كما أنها تقدم — أى الجماعة من خلال هذه العملية — الكثير من الأساليب التى تحقق للفرد التكيف داخل البيئة التى يعيش

(*) هذا الفصل هو عرض لدراســـة نجوى عبد الحميد وموضوعها دراسة انثروبولوجية مقارنة لأنماط التنشئة الاجتماعية فى مجتمع محلى بدوى ومجتمع محلى ريفى فى مصر ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٦ .

فيها : وبهذا المضمون يصبح لكل جماعة من الجماعات وسائلها فى نقل هذه الأساليب •

ولقد أدركت الباحثة — التى نحن بصدد عرض دراستها — هذه الحقائق ، ومن ثم حرصت على الاستفادة من اسهامات عدد من الفروع المعرفية التى تناولت موضوع التنشئة الاجتماعية ، وليس ذلك فحسب بل واستفادت من عديد من الاتجاهات النظرية فى الأنثروبولوجيا وهى بصدد دراســة موضوع التنشئة الاجتماعية ، ولذلك فقد تميزت هذه الدراسة بالعمق والشمول ووضوح الرؤية فى التناول والتمكن من استخدام المنهج الأنثروبولوجى فى التحليل والمعالجة النظرية والتطبيقية •

وسوف نقتصر فى عرضنا للدراسة على بعض الجوانب التى تتعلق بالتنشئة كعملية ثقافية يتشرب من خلالها الفرد ثقافة مجتمعه ، وكيف يتحقق ذلك من خلال نموذجين للتنشئة فى ثقافتين فرعيتين — ان صــح هذا التعبير — وهما مجتمع محلى بدوى وآخر ريفى ، يحمل كل منهما سمات ايكولوجية واجتماعية متفردة ، وفى الوقت ذاته فكلاهما جزء من وعاء ثقافى أكبر وهو المجتمــع المصرى • وفيما يلى عرض لجوانب الدراسة •

أولا — تساولات الدراسة[١] :

انطلقت هذه الدراسة من تصور مؤداه أن المجتمعات الانســانية تتباين فى ثقافتها وبنائها الاجتماعى والاقتصادى ، ومن ثم فهى تتباين أيضا كمحصلة لذلك فى أنماط التنشئة الاجتماعية ، وتهدف الدراسة الى الاجابة على التساؤلات التالية :

---

(١) سوف نكتفى بتناول جزء من التساؤلات لضيق الحيز •

— الى أى مدى يؤدى الاختلاف والتمايز السكانى والثقافى والاجتماعى بين مجتمعات الدراسة (ريف — بدو) فى منطقة من مناطق المجتمع المصرى الى اختلاف أنماط التنشئة الاجتماعية ؟

— الى أى مدى يؤدى التباين الطبقى داخل البناء الاجتماعى والثقافى للمجتمع الى تباين فى أساليب التنشئة المتبعة فى كل طبقة ؟

— الى أى مدى يؤدى التنوع فى أنماط النشاط الاقتصادى بالمجتمع الى تباين فى أساليب التنشئة المتبعة فى المجتمع ؟

— كيف يؤدى التباين فى الأنماط الأسرية (الوحدات المعيشية ، نووية مركبة ، ممتدة) الى التباين فى أساليب التنشئة المتبعة(٢) .

ثانيا — خصائص مجتمعات الدراسة :

اختارت الباحثة مجتمعات محلية ثلاثة أحدهما ذو خصائص ريفية ، والثانى مجتمع بدوى والثالث هو مجتمع بدوى متريف أو تسللت اليه بعض الخصائص الريفية وذلك للاجابة على ما طرحته من تساؤلات .

١ — المجتمع الريفى :

وتمثل هذا المجتمع فى قرية ترسا التابعة لمركز سنورس بمحافظة الفيوم ، باعتبارها احدى القرى التقليدية ، كما أنها ذات خصائص انتاجية تقليدية ، حيث مازالت تنتج المحاصيل التقليدية ، كما تتميز هذه القرية بسيادة النمط الأسرى الممتد فى المعيشة ، حيث تضم الأسرة الى جوار الأب والأم أجيالا أخرى من الأبناء فى اطار معيشى واحد . ويبلغ تعداد سكان هذه القرية حوالى ١٠٤٦٦ نسمة وفقا لتعداد ١٩٧٦ ، منهم ٥١٦٣ من الذكور و ٥٣٠٣ اناث . يعمل معظمهم فى الزراعة فى ملكيات

---

(٢) انظر المرجع السابق صص ٧٩ — ٨٠ .

تتراوح ما بين ١٠ أفدنة الى فدان واحد . بالاضـافة الى العـديد من الأنشطة الأخرى كصناعة الطوب وغيرها من الصناعات البيئية كالحصر والحبال والأقفاص ، وتتم معظم هذه الصناعات داخل البيوت بالقرية ، وتمثل الى جوار الزراعة الدخل الأساسى لمعظم الأسر .

وتضم القرية العديد من الخدمات الطبية والتعليمية والاجتماعية والزراعية بالاضافة الى توفر بعض المرافق كالمياه النقية والكهرباء .

٢ ـ مجتمع الغرق :

ويمثل هذا المجتمع الجزء البدوى المتريف فى عينة الدراسة ويتبع مركز اطسا اداريا ، وهى تقع فى الجزء الجنوبى الشرقى من ذلك المركز والذى هو أحد مراكز محافظة الفيوم . ويبلغ تعداد سكان الغرق حوالى ٨٢٩٢ نسمة حسب تعداد عام ١٩٧٦ ، وينقسم مجتمع الغرق الى بدو المشارقة وبدو المغاربة ، وترجع التسمية الى الأصول العرقية والجغرافية التى وفدوا منها الى هذه المنطقة ، والاستقرار فيها والتحول الى النشاط الاقتصادى الزراعى ، حيث بدأت تتلاشى الخصائص البدوية من سكان هذا المجتمع ، وان كان الأفراد ما يزالون يتمسكون بأصولهم وانتماءاتهم ويفخرون بها .

ويضم مجتمع الغرق العديد من الخـدمات التعليمية والصـحية والاجتماعية .

٣ ـ بدو كيمان فارس :

ويمثل فى عينة الدراسة المجتمع البدوى ، ويقع مجتمع بدو الكيمان فى الشمال الغربى لمدينة الفيوم ، وبالرغم من القرب من المدينة الا أن لهم خصائصهم المميزة لهم كبدو ، فاقامتهم مازالت داخل الخيـام

المصنوعة من الصـــوف ومن شعر الماعز ، وتتناثر خيامهم على مســـاحة محدودة بعد زحف العمران الحضرى لمدينة الفيوم على مناطق اقامتهم ، ويتكون المجتمع من ٢٥ أسرة أى حوالى ٢٠٠ نسمة حيث يرتفع متوسط عد الأسرة ما بين ٨ أفراد ١٢ فردا •

وتبدو معالم البداوة فى حياة هؤلاء الأفراد من تمسكهم بالعمـــل الرعوى ورفضهم للمهن الأخرى ، كما يسود المجتمع مجموعة من القيم المتعلقة بالعمل تعكس خصائص البداوة •

ونظرا لطبيعة هذا المجتمع محدود النطاق ، فنجده يكاد يخلو تماما من الخدمات ، ومازالت هناك الكثير من الأساليب التقليدية التى تستخدم فى مجال العلاج ، أما باقى الخدمات الأخرى فان أفراد المجتمع يحصلون عليها من الأماكن المجاورة •

ثالثا — عرض لبعض نتائج الدراسة :

١ — التنشئة الاجتماعية فى مرحلة المراهقة :

(أ) الذكور :

تشير الدراسة الى أن المراهقة تمثل مرحلة من المراحل الهامة فى حياة الفرد ويترتب عليها الكثير من التبعات التى يتوقعها المجتمع سواء من الذكور أو الاناث • ومع أن وجهة نظر علماء النفس تؤكد أن مرحلة المراهقة تعد من المراحل المربكة ، والحافلة بالمشاكل النفسية الناتجة عن التغيرات الفسيولوجية ، الا أن الواقع الامبيريقى أكد عدم وجود هذه المرحلة بالمعنى الذى يصوره علماء النفس وذلك بسبب المعايير الثقافية لمجتمعات البحث والتى عملت على الربط بين هذه المرحلة وبين الزواج المبكر وتكوين الأسرة من جهة ، والقدرة على تحمل المسئولية من جهـــة

أخرى • وتبدو ملامح ذلك فيما يتوقعه المجتمع من أبنائه الذكور حيث يتوقع منهم استعدادهم للقيام بالعديد من الأدوار التى يضطلع بهـا الكبار فى المجتمع ، ومشاركتهم فى النشاط الاقتصادى فى اطار الوحدة المعيشية ، وبعبارة أخرى فان هذه المرحلة بالنسبة للذكور فى مجتمعات الدراسة تعنى الانتهاء من عملية التدريب والاعداد ، وأن يصبح بموجبها الفرد عضوا منتجا حتى يتسنى له تحقيق المشاركة المتوقعة منه للاخرين• ويضاف الى الأدوار الاقتصادية بعض الأدوار الاجتماعية كقيام الابن الذكر بدور الانابة عن الأب ، بعد أن كانت أدواره فى مرحلة الطفولة تقتصر علي دور المعاونة الاختيارية للكبار • ولقد أكدت الدراسة أن هذه الأدوار ما كان لها أن تتحقق لولا التوجهات الثقافية غير المعلنـة والتى يتم نقلها للأبناء فى مرحلة الطفولة والتأكيد عليها خلال المواقف اليومية المختلفة ، وما أن تنقضى مرحلة الطفولة حتى يصبح المراهق مهيأ لتحمل تبعات المرحلة التى يعيشها ، تلك التبعات التى تتحدد وفق طبيعة كل مجتمع ، فالمجتمع الزراعى يقرر العديد من القيم المتعلقة بالعمل الزراعى تنعكس خلال الاعداد والتنشئة المختلفة ويتشربها الأبناء ، وفى المجتمع البدوى تعمل التنشئة على نقل العديد من المعايير والقيم المتعلقة بالنشاط الاقتصادى الى الأبناء ، والتى تحمل خصائص المجتمع البدوى والقيم والمعايير السائدة فيه •

ويكاد يتفق الأفراد بالمجتمعات التى أجريت فيها الدراســة على اعتبار مرحلة المراهقة هى مرحلة يتهيأ فيها الابن الذكر للزواج حيث يفضل الزواج المبكر وبشكل خاص فى المستويات الطبقية الدنيا ، أما الوسطى والعليا فان الأمر يختلف ، حيث يتمتع المراهق بقدر من الحرية فى عطلات الدراسة للالتقاء مع الأصدقاء • ومن ثم فان مفهوم المراهقة أو البلوغ يعنى من وجهة نظر المجتمع الريفى والبدوى تعلم الذكر كيف

يصبح رجـــلا بوضـــع ومكانة الآخرين لتحقيق التوحد مع الشخصيات المجردة لصورة الأب كالأعمام والاخوة الكبار ورفاق العمر الأكبر سنا ، مستدمجا اتجاهاتهم وقيمهم من خلال الاحتكاك المستمر فى سن مبكر • وما أن يصل الى مرحلة البلوغ حتى يكون قد تشرب المعايير الاجتماعية النابعة من ثقافة مجتمعه ، وبذلك يمكنه أن يؤدى الأدوار المتوقعة داخل أسرته وداخل مجتمعه ، ومن هذه المعايير على سبيل المثال :

ـ مبدأ احترام السن :

فبقدر ما ينظر المجتمع الى هذه المرحلة نظرة تحمل المسئولية كاملة واعتبار المراهقة فى طور الرجولة ، الا أنه يضع الحدود التى تتطلب منه أن يراعى فى تصرفاته احترام الآخرين من كبار السن ، فاذا ما تحدث اليه الكبير فعليه الاصغاء ، وعدم التدخل بمقاطعة الحديث أو ابداء بعض الاشارات التى تدل على المعارضة ، وكذلك عليه الا يشترك فى الحديث مع الكبار دون استئذان ، ومراعاة اللياقة فى الحديث وعدم التدخين فى حضورهم •

التحاشى للجنس الآخر :

حيث يتوقع منه المجتمع عدم الجلوس فى مجالس النســاء وأن يراعى الكثير من القيم نحو الاناث فى معاملتهن ، كأن يقدم طلب الأنثى على طلبه ، وألا يدخل فى مشاجرة مع أية امرأة مهما كانت الأسباب •

أنماط أخرى من السلوك المتوقع :

حيث يتوقع منه المجتمع الانخراط فى الأدوار الاجتماعيـــة التى يؤديها الكبار كأداء الواجب فى المناسبات المختلفة ، والبعد عن الأساليب الطفولية فى التعامل ، واحترامه لذاته ، والمشاركة الفعلية فى أوجه النشاط المختلفة والتصدى للمشكلات التى تواجه الأسرة •

(ب) الاناث :

أظهرت الدراسة أن مرحلة المراهقة لدى الأنثى فى مجتمعات البحث ــ الريفية والبدوية ــ تعنى فرض المزيد من القيود الثقافية بشكل يفوق الذكور ، كما تعنى تحمل المسئولية والمشاركة فى دعم اقتصاد الأسرة المعيشية سواء ببذل المزيد من الجهد داخل المنزل أو فى أنشطة الأسرة الخارجية ، كالعمل فى حقول الأسرة والرعى والتجارة الصغيرة بالنسبة للمستوى الطبقى الأدنى ، بينما يختلف الأمر بالنسبة للاناث فى الطبقة الوسطى والعليا حيث يرجىء مشاركتهن لحين الانتهاء من التعليم بمراحله المختلفة •

وتتفاوت القيود المفروضة على الاناث فى هذه المرحلة من مجتمع الى آخر ومن مستوى طبقى الى مستوى آخر داخل المجتمع الواحد ، الا أنه برغم ذلك فانه بالامكان القول أن مرحلة البلوغ أو المراهقة للأنثى تعنى استعدادها للقيام بدور الزوجة والأم ، ويصاحب ذلك احساس بالمزيد من القلق عليها وتقييد حريتها وحركتها ، والحرص عليها ، ومراعاة عدم خروجها فى غير أوقات النهار أو لأسباب واضحة ومقنعة • وتدعم التنشئة الاجتماعية مجموعة من القيم المتوقعة والمطلوبة من الاناث عند بلوغهن هذه المرحلة العمرية منها :

ــ البعد عن مظاهر السلوك التى تسىء الى سمعة البنت كالتحدث مع الشباب فى الطريق العام للقرية ، حيث يفسر المجتمع هذا السلوك بأنه خروج عن معايير الآداب الاجتماعية •

ــ يمثل التزين بالنسبة للأنثى فى هذه المرحلة خروجا عن قواعد اللياقة والأدب ، ويعرضها للعقاب من والديها ، كما يؤكد ذلك السلوك من البنت أن التنشئة الاجتماعية لم تؤد دورها فى اعدادها اعدادا جيدا •

وبذلك يمكن أن تعاقب لتصحيح بعض المفاهيم وأنماط السلوك الخاطىء التى تقوم به •

— كما يمثل تعمد وقوف الانثى أو جلوسها المتعمد مع النساء المتزوجات لسماع أحاديثهن سلوكا خارجا عن قواعد الآداب • ومن ثم فتدعم قنوات التنشئة تجنب أشكال السلوك غير المرغوبة •

يضاف الى ذلك ما تنفرد به الثقافة البدوية من تحريمات أخرى وقيود تفرضها على البنت منذ بلوغها سن التاسعة ، فلا تخرج للرعى الا مع شقيق لها أكبر منها ، كما لا يفضل المجتمع تعليمها خوفا عليها من التمرد على قيم المجتمع البدوى •

٢ — بعض القيم التى تدعمها التنشئة :

أكدت الدراسة الميدانية لمجتمعات البحث (الريف — والبدو) على أن قيمة الطاعة من القيم اللازمة والضرورية لتنشئة الانثى ، فى مقابل تنشئة الذكر على قيمة السيطرة ، والتى لاترتبط بمرحلة عمرية معينة ، ولتعميق هذه القيمة لدى البنت ، فنجد الأسر تحرص فى تنشئتها فى سن مبكر وتعويدها على تنفيذ كل ما يطلب منها من طلبات تكلف بها من قبل أعضاء الأسره اناثا أو ذكورا ، وتتعمق هذه القيمة — أى قيمة الطاعة — فى نفس الانثى خلال مواقف الحياة اليومية حيث نجد أن أولى عمليات التنشئة لها منذ نعومة أظفارها هى أن تكون مطيعة لمن يكبرها فى السن ، ومن جانب آخر فعليها احترام اخوتها من الذكور صغارا أو كبارا بشكل يتسق وقيمة الابن الذكر بالأسرة ، كما تقرن الأسرة قيمة التمسك بهذه القيمة بمستقبلها كزوجة باعتبار أن هذه الصفة من أهم الصفات فى علاقتها المستقبلية بزوجها والتى تتشربها من خلال تنشئتها فى أسرة والديها •

المهـــارة :

تحرص أساليب التنشئة الاجتماعية بمجتمعات الدراسة على قيمة المهارة بالنسبة للأنثى باعتبارها من أهم أركان الحياة الزوجية ، حيث اتفقت مجتمعات الدراسة على أن قيمة المهارة من القيم المرغوبة والتى لابد من وجودها لدى الأنثى ، ومن ثم فتتعمد جميع أساليب التنشئة الاجتماعية بلورة هذه القيمة فى نفوس الاناث خلال المراحل العمرية المختلفة ، وتصبح الأنثى فى وقت مبكر من عمرها قادرة على أداء الكثير من الأنشطة التى تحتاجها وحدة المعيشة داخل المنزل وخارجه ، وبشكل متقن ، فالبيت بالمجتمع الريفى ظل الى وقت قريب وحدة معيشية تحقق لأفرادها الكثير من متطلبات الحياة ، ويعتمد على الاناث فى القيـــام بالعديد من الأنشطة ، وبذلك تصـــبح مهارات الخبيز والطهى وحلب الحيوانات ، والاهتمام بشئون البيت من أهم المهارات التى تميز البنت ، والتى تلعب التنشئة الاجتماعية دورا هاما فى نقلها اليها سواء بالتدريب المنظم أو المتقطع • وما أن تبلغ البنت سن الحادية عشرة الا وتصبح مدربة تماما على القيام بهذه الأدوار ، ويتأكد مدى أهمية هذه الأدوار سواء لدى مجتمع البدو أو الريف عندما نجد الأم توصى ابنتها قائلة لها : « عايزاكى تكونى ست تستر أهلها » ، فنقص المهارة فى أحد هذه الأدوار تعنى قصورا وخللا فى التنشئة الاجتماعية من قبل الأم بالذات ، كما توصيها أيضا قائلة : « اوعى تخسرى خبيزك أو طبيخك علشـــان ما تجبيش الاهانة لأهلك ، ويقولوا ان أمها ســـت خايبة ومعلمتهاش حاجة » •

وليست هذه هى المهارات المطلوبة من الأنثى فحسب بالمجتمـــع الريفى والبدوى ، ولكن هناك بعض المهارات الخاصة بأداء الأنشـــطة الاقتصادية وبشكل خاص من المستويات الطبقية الدنيا التى تعتمد على

عائد جهد أبنائها وبناتها من العمل والنشاط الاقتصادى •

وبذلك فسنلاحظ أن المهارات المطلوبة للبنت فى المستويات الطبقيه الوسطى والعليا تختلف عنها لدى اناث الطبقة الدنيا والأدوار المتوقعة منهن •

وجدير بالذكر أن ما سبق طرحه حول القيم التى تدعمها الثقافة من خلال التنشئة الاجتماعية بالنسبة للذكور والاناث تتسق الى حد كبير مع صياغة الثقافة لمفهومى الذكورة والأنوثة كمفاهيم عامة ، حيث يلاحظ أن ثقافة الريف والبدو على حد سواء ، أو القيم الثقافية بالمجتمعات الشرقية تضع للذكر مكانة أعلى من مكانة الأنثى ، فالابن الذكر يعكس قيمة العزوة للوالدين وللأسرة ، كما أن عليه تقع مسئولية فتح البيت أو القوامة كما انه يعد سندا للأبوين اذا ما تقدم بهما العمر ، وحاملا لاسم العائلة •

وتعمل روافد التنشئة الاجتماعية بشكل دائم ومستمر على تلقين الأبناء هذه القيم واجلائها فى نفوسهم منذ طفولتهم بشكل معلن تارة وغير معلن تارة أخرى • أما الابنة فانها بمنظور الثقافة تنتقل الى بيت زوجها وأمام ذلك فنجد أن بعض المجتمعات تنظر الى ذلك باعتباره من الأمور المكلفة . ويسود ذلك بشكل خاص كما تؤكد الدراسة ــ التى نحن بصدد عرضها ــ فى الطبقات الدنيا لبعض المجتمعات الريفية •

٢ ــ التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى :

تساهم الجماعات القرابية فى مجتمعـــات الدراســـة بدور هام فى عمليات الضبط الاجتماعى لأعضائها وذلك من خلال ما تلقنه للأبناء خلال مراحل الاعداد ، وعبر المراحل العمرية المختلفة ، والتى تتضمن قواعد السلوك والآداب العامة . والمعايير الاجتماعية والعرفية والخاصة بطبيعة

كل مجتمع سواء كان مجتمعا ريفيا أو بدويا • ولا يقتصر دور الجماعات القرابية على هذا الدور فحسب بل يتجاوزه الى مراقبة أفراد الجماعة من الصغار والكبار ومتابعتهم للتأكد من التزامهم بهذه القواعد . وتلعب الظروف الايكولوجيـــة دورا هاما فى تحقيق ذلك ، فالتقارب المـكانى والتجمع القرابى هو سمة عامة للاقامة والسكنى بهذه الجماعات التى أجريت الدراسة عليها •

وجدير بالذكر أن ذلك الدور ينحسر فى بعض المناطق الريفية التى تشهد تغـيرات ايكولوجية فى نمط المسكن • ويضطلع بدور الضـــبط مؤسسات رسمية فى ظل الاتساع المكانى وانفراط عقد الارتباط القرابى•

وتساهم وسائل الضبط غير الرسمى فى مجتمعات البحث والمتمثلة فى مجالس التحكيم بالريف ، والمجالس العرفية أو مجالس العرب فى مناطق البادية ، دورا هاما فى تحقيق الضبط الاجتماعى ، وتنعكس هذه الأدوار فى توقيع الغرامات على كل مخالف حسب نوع المخالفة •

وتنقل الأسرة خلال عمليات التنشئة الاجتماعية الكثـــير من القيم المتعلقة بالمحافظة على حقوق الآخرين واحترامهم ، كمـــا تحث الأسر أبناءها فى مراحلهم العمرية المختلفة حضور هذه الجلسات ، والتى تكون بمثابة حلقة تعليمية فى تحديد الحقوق والواجبات والقصاص ، كما يتعلم فيها الأبناء الذكور الكثير من الاجراءات الشكلية التى تعتبر أساسا هاما فى تشكيل هذه المجالس ، واجراءات توقيع العقوبات • ويشب الأبنـــاء وهم حاملون لكثير من القيم والتى يلتزمون بها كقيم الشرف والأمانة وغيرها •

ومن الملاحظ أن أساليب الضبط الاجتمـــاعى تعكس الخصـــائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذى تقوم فيه ، فالمجتمع البـــدوى له

وسائله الخاصة به ، والتى تتسق وطبيعة هذا المجتمع ، وبشكل تحافظ على تماسكه كجماعة تعيش فى اطار ايكولوجى وثقافى متقارب ، ولذلك نجد العقوبات التى يقرها المجلس العرفى تكون عقوبات صارمة وقاسية .

ولا يختلف الأمر بالمجتمع الريفى الذى يعرف هذا النوع من أنواع الضبط غير الرسمى ولايختلف الا فى طبيعة أشكال العقارب والتى تكون هى الأخرى متسقة مع ظروف المجتمع الريفى والاطار البيئى والثقافى الذى أفرز هذه الوسائل ، كماتتناسب مع طبيعة المخالفة ودرجة تأثيرها فى تماسك المجتمع ، والدور الذى تؤديه .

٤ — التنشئة الاجتماعية والعمل :

تعرف الكثير من الجماعات الانسانية طرقا متعددة للتنشئة فى مجال العمل تختلف حسب النشاط الاقتصادى السائد بين الجماعة ، فمجتمعات الصيد والقنص تدرب أبنائها على مهارات الصيد والقنص ويكون ذلك منذ الأشهر الأولى فى عمليات الرضاعة من الأم والتى تؤكد على تنمية مهارات الطفل وحواسه ومداركه واستجاباته اللحظية للمشاهدات وبشكل يجعله أكثر قدرة على ادراكها من شخص آخر فى مجتمع آخر .

ولا يختلف الأمر بالمجتمع الريفى والبدوى حيث تتم تنشئة الأبناء فيه على بعض الأدوار الاقتصادية ، ومن ثم فمن الممكن القول أن الأسرة مازالت تمثل مؤسسة تربوية فى مجال القيم والأنشطة الاقتصادية وغيرها من المجالات ، وسوف نوضح كيف تؤدى الأسرة هذا الدور بالمجتمع الريفى والبدوى ، حيث يبدأ تدريب الأبناء على القيام بالأنشطة الاقتصادية بدءا من سن الرابعة . ويراقبهم الكبار عند أداء هذه الأدوار، والتى تكون ملائمة لظروفهم العمرية والجسمية ، ومنها على سبيل المثال مراقبة الحيوانات أثناء الرعى . وجمع الحشائش من الأرض ،

وقضاء بعض الأشياء التى تطلب منهم من قبل البالغين ، وتعمل التنشئة الاجتماعية على توجيه الذكور نحو الاعمال التى يجب القيام بها أو التى هى من صميم تخصصهم • أما الاناث فيؤدين من الأدوار ما يتسق مع التوجهات الثقافية للمجتمع ، ودورهن المتوقع مستقبلا ، ومن ثم يكون نشاطهن داخل دائرة المنزل مثل احضار الوقود للاعداد للخبيز ، واحضار الماء من الخارج لاستهلاك الأسرة ، وحراسة الطيور ورعايتها ، ومساعدة الأم فى رعاية طفلة أصغر منها • وهناك بعض الأنشطة المعاونة للاناث البالغات تبـدأ الانثى فى تعلمها والتـدريب على أدائها دون الذكور ، ومنها تجهيز الحبوب قبل طحنها وعمليـات الطهى وغسـيل الملابس وغسيل الأوانى ، وفى هذه الأنشـطة يلاحظ قدر عاليا من التخصيص للأعمال التى تؤدى ، حيث يصبح هناك أعمال تؤديها الاناث وأعمـال يؤديها الذكور ، ويبدو ذلك التخصيص أكثر وضوحا فى المجتمع الريفى •

أما المجتمع البدوى فتعمل أساليب التنشئة الاجتماعية على اتقان الاناث للنشاط الرعوى ، واسلوب رعاية الأغنام والماعز وحمايتها من الأضرار التى يمكن أن تصيبها من جراء الاهمـال فى نظام السـقاية وتوقيته ، وابعادها عن الأعشاب الضارة ، وبذلك فان تنشـئة المرأة البدوية لا يقتصر على اعدادها للمشاركة للأنشطة خلال ساعات العمـل اليومية فحسب بل يتعداه الى اعدادها الى الانتقـال خارج المجتمـع والاقامة الكاملة لمدة تتراوح بين ثلاثة أشهر الى ستة أشهر ، وهى ظروف تحتاج الى قدرات بدنية ونفسية تجعلها قادرة على القيام بهذه المهام ، ويلاحظ أن التنشئة الاجتماعية فى المجتمع البدوى الذى أجريت عليـه الدراسة تصيغ مفهوم الدور الذى تؤديه الاناث باعتباره دورا أساسيا ، وعلى العكس من ذلك فى المجتمع الريفى فان الدور بالنسبة للمرأة يكون دورا معاونا •

٥ — التنشئة والدين :

ويقصد بها مجموعة الأساليب التى يتعلم الفرد من خلالها أمور الدين ، فمجتمعات البحث (الريفية والبدوية) تدين بالدين الاسلامى وتعميق الوازع الدينى لدى الانسان يمكن تحقيقه اذا ما تم منذ البدايات الأولى لعمره ، حيث يمكن غرس الكثير من القيم الدينية والتأكيد على بعض المبادىء التى يتضمنها الدين ، ومن الملاحظ أن الدين فى المجتمع الريفى والبدوى على السواء يلعب دورا هاما كأداة للضبط الاجتماعى فى مجال السلوك . ومن ثم فنجد أن الأسر تحرص على نقل الكثير من القيم وغرسها فى نفوس أطفالها فى المستويات الطبقية المختلفة . فمن خلال ملاحظة الكبار يتعلم الطفل معنى الحرام والحلال وتؤكد الدراسة الميدانية على أن الآباء يرددون دائما على مسمع أبنائهم معنى الحرام بقولهم : « الحرام هو أن يقوم الشخص بعمل شىء يغضب الله » والحلال هو أن يحافظ الشخص على النعمة التى أعطاها الله له » . وبنمو الطفل تحاول الأسرة تعميق مفهوم الحلال والحرام لديه باعتباره أساسا فى تشكيل علاقته بالواقع المحيط ، فمن خلال ذلك المفهوم يتعلم الأبناء الا يعتمدوا على حاجة الغير ، وأن يكتسبوا رزقهم من الحلال والمصادر المشروعة للكسب ، ثم يتعلم الفرد أداء العبادات ، وتنقل الأسرة له هذه القيم الدينية خلال مواقف الحياة اليومية .

٦ — أنشطة الترويح والتنشئة الاجتماعية :

من الملاحظ أن لكل مجتمع من المجتمعات مجموعة من الأنشطة الترويحية والمتمثلة فى ألعاب الأطفال وحكاياتهم يتم من خلالها نقل الكثير من القيم والاتجاهات من الآباء للأبناء ، ويشيع فى مجتمعات الريف والبدو الكثير من الحكايات التى تقوم بروايتها الأمهات والجدات حسب نمط الأسرة .

وتستغل هذه الحكايات فى ضبط تصرفات الأطفال وغرس بعض الخصال التى يزكيها المجتمع أو التى يرغبها فى أبنائه ، فعندما يتقدم نمو الطفل وتتسع حركته ، وتصبح الحركة خطرا عليه فى ظروف انشغال أفراد الأسرة عنه ، فنجد أن الحكاية التى تقصها الأم او الجدة على أسماع الطفل تحد من حركته • يضاف الى ذلك أن هذه الحكايات تسهم فى ترشيد سلوك الأطفال تجاه أماكن الخطر التى توجد بالمجتمع الريفى بشكل خاص كالترعة على سبيل المثال ، أو الخروج الى الحقول المجاورة للمساكن ، ولذلك فنجد أن معظم الروايات المتواترة تدور حول مخاطر هذه الأماكن ، وما يسكن فيها من أشباح ، وشخصيات شريرة الحقت الأذى بأطفال لم ينصتوا الى نصح الآباء أو الأمهات فلحق بهم الضرر • ومن هذه الروايات — على سبيل المثال — ما يقصه أهل القرية عن « علوة الجناجر » وهى مكان مرتفع يجذب اليه الأطفال للهو ويعرضهم للمخاطر ويقع فى أطراف القرية وصاغ الخيال الشعبى لأهل القرية حوله قصة لابعاد الأطفال عن ذلك المكان وحمايتهم من المخاطر ، مؤداها أن هذا المكان كانت به طاحونة لطحن الغلال والحبوب ، وتوقفت ذات يوم عن العمل بسبب عطل أصابها • ورغم محاولات الاصلاح المستمرة الا أنها جميعا قد فشلت وظلت الطاحونة معطلة ، الى أن خرج عفريت منها وخطف أحد الأطفال الذى كان يلهو بجوار الطاحونة وقام بذبحه فوق سير التشغيل ، عندئذ زال العطل وتم تشغيلها ، وبعد ذلك اعتاد ذلك العفريت أن يخطف طفلا كلما تعطلت الطاحونة ، ويذبحه فوق سير التشغيل •

وبجانب الحكاية أو الرواية توجد بمجتمعات الدراسة الأغنية والتى تحمل كلماتها تدعيما للكثير من القيم فى مجال العمل والشرف والأمانة •

وهكذا تتفــاعل مجموعة كبيرة من العنــاصر داخل الوعاء البيئى والثقافى تتبناها روافد التنشئة الاجتماعية لتصيغ منها المعايير القيمية التى يحتاجها الفرد ، لكى يصبح عضوا فى جماعة من الجماعات ، يحمل معايير هذه الجماعة . كما أن التنشئة الاجتماعية يتعلم الفرد خلالها المشاركة فى نسق الالتزامات المتبادلة بين الأقارب ، وفى استيعاب عمليات التنظيم الاقتصادى ، وقواعد الضبط الاجتماعى ، وأيضا فهى عملية مستمرة فى كافة المجتمعات ، وتبدأ مع ولادة الفرد وتستمر حتى نهاية عمره ، وتنقل للفرد أنماطا من السلوك يمكنه عن طريقها القيام بالعديد من الأدوار فى مراحل حياته المختلفة .

* * *

الفصل السابع

الثبات والتغير

فى ثقافة مجتمع الخليج

الفصل السابع

الثبـات والتغـير

فى ثقافة مجتمع الخليج(*)

* * *

تمهيـد :

التراث الشعبى هو مجموعة العناصر الثقافية المادية والروحيـة لشعب من الشعوب ، تكونت على مدى الزمن ، وعبر أجيال متلاحقة ، كل جيل ينقلها الى الجيـل اللاحق عبر عمليـات التنشئة الاجتماعيـة والثقافية • ويعرف العلماء التراث الشعبى بأنه عبارة عن « المعتقدات والعادات الاجتماعية الشائعة ، وكذلك الأدب الشعبى » • ويدل التراث الشعبى بصفة عامة على موضوعات الدراسة فى الفولكلور أو دراسـة التراث الشعبى ، أو دراسة الأدب الشعبى »[1] ، ويؤكد هولتكرانس Ake Hultkrantz على ضرورة رؤيتنا للوحدة فى كل هذه الموضوعات فى كونها تجسد جميع جوانب الثقافة الروحية التى يغلب عليها الطـابع الشفاهى الذى ينتقل من جيل الى جيل آخر •

والتراث ظاهرة اجتماعية ينطبق عليه ما ينطبق عليها ، وهو يُحرك كل أفعالنا ، ويقدم لنا خلاصة تجارب وخبرات الأجيال السابقة فى التعامل

(*) سبق نشر هذه الدراسـة فى المصدر التالى : د• على المـكاوى ، سلسلة ندوة التخطيط لدراسـة التراث الشعبى لمنطقة الخليج والجزيرة العربيـة ، العدد الثالث ، ندوة التخطيط لجمع ودراسـة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج ، الدوحة ، ١٩٨٥ ، صص ١٦٥ ــ ٢١٣ •

(١) ايكة هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيـا والفولكلور ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٩٥ •

مع مواقف الحياة اليومية ، ويزودنا بالحلول الجاهزة لمواجهة ما يعترضنا من مشكلات وأزمات • علاوة على انه يعفينا من التفكير فى بعض المواقف اليومية بما يقدمه من خلاصة آراء واتجاهات خبرها السلف وتمثلها الخلف • وبالتالى فالتراث يوفر الجهد الذهنى أحيانا • ويعفى الانسان من عناء التصرف الموقفى فى كثير من الأحيان •

وإذا كان التراث الشعبى هو ماضينا ، والحاضر هو التحدى الذى نواجهه ، فان المستقبل هو مسئوليتنا جميعا ، ففى ضوء الماضى نجد التراث الحى الذى يوجه سلوكنا وأفعالنا ، وفى ثنايا الحاضر نوازن بين الماضى والواقع الحالى ، وهذا يسلم بنا فى النهاية الى تحديد صورة المستقبل بكل ملامحها وأبعادها • ولذلك فنحن المسئولون عن رسم هذه الصورة بما نخطه فيها ، وما نتخذه حيالها •

والتراث الشعبى مجال رحب يضم العديد من العناصر الثقافية المتنوعة ، التى ابتكرها الوجدان الشعبى ، وصاغتها ضمائر الجماعة ، وابتدعتها ، ولذلك فهو يتخلل جميع المظاهر السلوكية ، ويتداخل فى جميع الأفعال الاجتماعية بقدر معين • وعلى هذا الأساس اطلع علم الفولكلور بدراسة هذا التراث دراسة منهجية ونظرية للتعرف على عناصره ومجالاته ، وتحديد أفضل المناهج لجمعه وتدوينه ودراسته ، ومناقشة الاتجاهات النظرية لتفسيره وشرحه • تمهيدا للوصول الى القوانين الاجتماعية والثقافية التى تحكمه • وكذلك ينهض علم الفولكلور باجراء العديد من الدراسات على شتى مجالات التراث الشعبى حتى يقف على جوانب الثبات ومعالم التغير • ويردهما الى عواملهما الرئيسية• ويصرح بوتومور Buttomore فى هذا الصدد بأن « الوظيفة الرئيسية للتحليل السوسيولوجى هى الكشف عن ارتباط عمليتى الثبات

والتغير ببعضهما »[٢] وقد نادى بوتومور بذلك حينما هاله تركيز علماء الاجتماع على ثبات واستقرار الأنساق الاجتماعية والثقافية .

والجدير بالذكر أن التراث الشعبى تاريخى الطابع ، ولذلك فهو مرآة تنعكس عليها كل الأحداث والظروف التاريخية التى عاشها المجتمع. كما أن عناصره تمتد بجذورها فى أغوار الحقب التاريخية منذ قديم الزمان. ولعل فى هذا الطابع ما يوضح رسوخ التراث الشعبى وهيمنته ، حتى أنه يحدد ملامح الشخصية القومية وبنيتها الأساسية[٣] ، ولذلك فاذا كان لنا أن نفهم هذه الشخصية القوميـة ، فلابد أن ندرس التراث الشعبى .

ويؤكد الدكتور أحمد أبو زيد — فى هذا الشأن — على أن دراسة وظيفة العناصر الفولكلورية تتطلب دراسة المجتمع بكل مكوناته ، « أو على الأصح يقتضى ضرورة التعرف على مدى تعبير هذه العناصر الفولكلورية عن العلاقات والقيم السائدة فى المجتمع ، ودراسة العناصر الفولكلورية التى تدخل فى كل من الأنساق الاجتماعية التى تؤلف البناء الاجتماعى ، مما يعنى فهم المجتمع ككل من زاوية فولكلورية بحتة »[٤] ، ويطرح القضية مرة أخرى بقوله : « ومن ينوى ، فقد يؤدى ذلك بنا فى آخر الأمر الى ظهور ما يمكن تسميته بالمدخل الفولكلورى لدراسة

---

(٢) بوتومور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرين ، ط ١ ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٢م ، ص ٤٣٨ .

(٣) الشخصية القومية هى «طراز الشخصية الشائع فى أمة متحضرة» .. أو هى انتظامات العمليـة السيكولوجية ... التى تميز مجموعات معينة من الرجال والنساء ... انظر هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٣٢٨ .

(٤) د. أحمد ابو زيد وآخرون . دراسـات فى الفولكلور ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

المجتمع ، مثلما هناك مدخل أيكولوجى أو مدخل اقتصادى أو غير ذلك عن المداخل التى تتبعها مدارس الأنثروبولوجيا المختلفة فى دراستها للمجتمعات الانسانية »[٥] .

واذا كانت دعوة الدكتور أبو زيد قد ظهرت فى عام ١٩٧٢ م ، الا أننا نجد دراسات للتراث الشعبى المصرى — مثلا — تسبق ظهور هذه الدعوة ودراسات أخرى تعاصرها وتتلوها • ومن الدراسات السابقة دراسات الدكاترة سيد عويس ، وعبد الحميد يونس ، وسهير القلماوى ، ومحمد الجوهرى ، وعلياء شكرى ، وأحمد مرسى ، ونبيلة ابراهيم ، وفاطمة المصرى ، وغيرهم • وهى دراسات تسعى لجمع التراث وتحليله ، والوقوف على التغير الذى طرأ عليه •

وليس هناك شك فى أن عمليات التغير الاجتماعى والثقافى — وما يصاحبها من عمليات قبول أو مقاومة — تفرض على العلوم الاجتماعية أن تدلى بدلوها بالشرح والتفسير • « وقد تصدر علم الفولكلور لحسم هذه المشكلات ، واتخذ من دراسة التراث الشعبى ضرورة لتحقيق هذا الهدف • وكانت أولى الخطوات أن يتم جمع التراث وتدوينه كأساس أول ، وضرورة لتتبع ملامح التغير والتعرف على دينامياته ، ويزداد هذا الأمر الحاحا فى العصر الحاضر بسبب سرعة ايقاع التغير ، وتعرض التراث المتداول لتغيرات حاسمة »[٦] •

ومن هنا ظهرت جهود أقسام الاجتماع والأنثروبولوجيا بالجامعات ومراكز البحوث الاجتماعية ومراكز الفولكلور فى دراسة التراث الشعبى

---

(٥) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٦) على محمد المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى : دراسة ميدانيــة على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٥ .

المصرى وتدوينه[٧] • وكذلك نهضت مراكز دراســة الفولكلور ببعض الأقطار العربية كالسودان[٨] والعراق ، ودول الخليج العربية • ولعل هذه الدراسة الحالية استجابة للدعوة الكريمة التى وجهها مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية للكاتب •

وفى ضوء ما تقدم ، فان هذا البحث يعرض للعناصر التالية :

أولا : موضوعات التراث الشعبى •

ثانيا : معنى الثبات والتغير فى التراث الشعبى •

ثالثا : تعريف العادات والتقاليد والمعارف الشعبية •

رابعا : تصنيف العادات والتقاليد والمعارف والمعتقدات الشعبية •

خامسا : جوانب الثبات ومعالم التغير فى العادات والتقاليد •

سادسا : المعتقدات والمعارف الشعبية بين الثبات والتغير •

سابعا : نظرة ختامية حول مستقبل العادات والمعتقدات والمعارف الشعبية بمجتمعات الخليج •

* * *

أولا — موضوعات التراث الشعبى :

يدرس علم الفولكلور الثقافة التقليدية **Traditional Culture** أو التــراث الشــعبى **Folk Tradition** ، ولذلك يهتم دارسو

---

(٧) أنظر عرضا تفصيليا لهذه الجهود فى الفصل القيم الذى كتبه محمد الجوهرى بعنــوان « حركة الفولكلور المصرى » فى الكتاب التــالى : علم الفولكلور ، جـ١ ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، الفصل الرابع .

(٨) انشأت وزارة الاعلام بالسودان مركز الفولكلور بمدينة الخرطوم بحرى ، وهو يضم أربعة اقسام ، توازى مجالات التراث الشعبى الأربعة ، وقد شارك الكاتب فى دراســة بعض عادات الزواج مع طلبة قسم الاجتماع بآداب القاهرة فرع الخرطوم خلال عام ١٩٨٢م .

الفولكلور المعاصر بكل شيء ينتقل اجتماعيا من الأب الى الابن ، ومن الجار الى جاره ، مستبعدا المعرفة المكتسبة عقليا داخل المؤسسات التعليمية الرسمية كالمدارس والجامعات[٩] .

وتشكل موضوعات التراث الشعبى وحدة متآلفة ومتداخلة معا فى آن واحد ، اذ أن كل هذه الموضوعات متفاعلة فيما بينها بحيث يصعب الفصل بينها فى عالم الواقع . فالعادات الاجتماعية تعكس معتقدات تخص الشعب لممارسة عادة معينة . هذا علاوة على تداخل العناصر المادية مع العناصر الروحية معا ، وتفاعل كل منهما بالأخرى . ولنأخذ مثالا على ذلك النسجيات الشعبية (عناصر مادية) التى تتكرر فيها أشكال زخرفية ووحدات فى الرسوم الشعبية تمثل أشكال طيور ونباتات وأسماك وحيوانات من أنواع خاصة[١٠] وتتحور هذه الأشكال فى أسلوبها الزخرفى تارة على النسيج ، وتارة على الحصير ، وتارة فى التطريز وأخرى فى الحلى الشعبى ، كما يتمثل بعضها فى لعب الأطفال ، ويتردد ذكرها فى الأغانى والمواويل والقصص الشعبى (عناصر لا مادية) . كذلك فان غزل الخيوط وصبغها ، وجدل الحبال ذات صبغة سحرية ، بل كافة أدوات النسيج والغزل نراها تقترن فى أذهان الناس بعوامل قد تسخر للخير أو لأضرار الآخرين ، ومازلنا نرى الى اليوم كثيرا من الناس يحملون قطعة من « شبكة الصياد » ، متوهمين أنها تبطل مفعول السحر[١١] وتأتى الأشكال الخزفية والفخارية هى الأخرى لتبرهن على مدى هذا التداخل بين العناصر

---

(٩) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(١٠) سعد محمد كامل ، فن النسجيات الشعبية الاسلامية » ، مقال بمجلة عالم الفكر ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، يناير — مارس ١٩٧٦م ، الكويت ، ص ٥٣ .

(١١) سعد محمد كامل ، المرجع السابق ، ص ٨١ ، وانظر ايضا : سعد الخادم ، الفن الشعبى والمعتقدات السحرية ، ص ٤٨ .

المادية وعادات الزواج ، إذ أن « القلة » تزين أجمل زينـــة فى الواحات الخارجية بمصر ، ويقال لها « راوية العويس » لشرب الماء حيث تغطى هذه « القلة فى حفل الزفاف بقطعة مستديرة من البخور ، يتدلى منها عدة أنواع من الخيوط المزينة بأنواع من الخرز الملون والعملات النقدية »[١٢]. يضـــاف الى ذلك مايرتبط بالفخاريات من أغان شعبيـــة ورموز وأمثال شعبية ... الخ .

واذا كانت وحدة التراث الشعبى تتجلى فى المجتمع الواحد بهذا القدر من الوضوح ، فى الأمثلة السالفة ، فان هناك وحدة تراثية أخرى على مستوى التراث الشعبى فى بلدان العالم العربى ككل . اذ الملاحظ أن « الأمثال الشعبية الشـــائعة الذائعة فى كل أقطار الوطن العربى ، يرجع الكثير منها الى أصول عربية فصحى . والدارس لهذه الأمثال — دراسة مقارنة — لن يدهشه أن يجد الكم الأكبر من هذه الأمثال بلهجاتها العامية مجرد تحوير للصيغة الأصلية للمثل[١٣] وان كان ذلك لا ينفى وجود أمثال تخص كل بلد دون غيره ، وترتبط بأحداث محليـــة ، أو بظروف بيئية أو اجتماعية خاصة بقطاعات معينة من هذا القطر أو ذاك . كذلك فان القصص

---

(١٢) عبد الغنى الشال ، « الفخار الشعبى فى مصر » مقال بمجلة عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

(١٣) صفوت كمال ، « مناهج بحث الفولكلور العربى بين الأصـــالة والمعاصرة » . مقال بمجلة عالم الفكر ، المرجع السابق ، ص ١٩٨٢ ، وانظر كذلك حول هذا الموضوع المراجع التالية :

— علال الادريسى ، « أمثال عراقية ومغربية مقارنة » ، مقال منشور بمجلة التراث الشعبية العراقية ، العدد العاشر ، السنة الثامنة ، المركز الفولكلورى ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ١٩٣ — ٢٢٦ .

— عبد البارى عبد الرزاق النجم ، «أمثال من موريتانيا» ، مقال منشور بمجلة التراث الشعبى العراقية ، نفس المرجع السابق ، ص ١٥١ — ١٨٠ .

— عامر رشـــيد ، « الأمثال الشعبية الفلسطينية والعراقية » ، مقال منشور بنفس المجلة العدد التاسع ، السنة الثامنة ، بغداد ١٩٧٧ ، صص ١٣٩ — ١٩٠ .

والحكايات الشعبية تتواتر فى أنحاء الوطن العربى باختلاف طرزها ، غير أن عناصرها تتخذ أشكالا جديدة فى بنية هذه القصص عند التواتر • وتنشأ حكايات أخرى جديدة تحتوى على عناصر من حكايات سابقة مع عناصر جديدة ومستخدمة[١٤] •

وقد ظهرت بعض المحاولات العلميـة فى علم الفولكلور لتصنيف موضوعاته ومجالات الدراسة به »[١٥] • واستقر آخرها على التصنيف التالى لعناصر التراث الشعبى :

١ — المعتقدات والمعارف الشعبية •

٢ — العادات والتقاليد الشعبية •

٣ — الأدب الشعبى وفنون المحاكاة •

٤ — الفنون الشعبية والثقافة المادية •

وتجدر الاشارة الى أن هذا التقسيم لايعنى انفصالا بين كل موضوع وآخر ، وانما هو تقسيم تحليلى بقصد الدراسة فحسب • اذ الملاحظ أن التراث الشعبى بكافة عناصره يمثل كيانا حيا تسوده العلاقات الوثيقة والتفاعل الدائم • فالأدب الشعبى بعناصره المختلفة يتلاحم مع عناصر الثقافة المادية ، والعادة تتداخل مع المعتقد فى واقع الحياة الاجتماعية

(١٤) صفوت كمال ، نفس المرجع السابق ، صص ١٨٢ — ١٨٣ •

(١٥) راجع محاولات التصنيف فى المصادر التالية :

— د. محمد الجوهرى وزملاؤه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، صص ٢٨ — ٢٩ .
• الفولكلور ودراسات علم الاجتماع الريفى ... مقال منشور ضمن أعمال الحلقة الدراسيـة لعلم الاجتماع الريفى فى ج.م.ع . المركز القومى للبحوث الاجتماعية القاهرة ، ١٩٧١ . صص ١٧٠ — ١٧٥ .

— ريتشارد دورسون ، نظريات الفولكلور المعاصرة ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٤ •

والثقافية • ولكن مغزى التحليل انه يتيح الفرصة للدراسة المتعمقة لكل مجال على حدة ، ومن ناحيـــة أخرى فانه يواجه عدة مستويات فى حياة المجتمع • فالمعتقدات هى تصـــورات الشعب عن العالمين الطبيعى وفوق الطبيعى ، والعادات والتقاليد تمثل الممارسة الشعبية الحية بشكل متكرر ، بينما يعكس الأدب الشعبى وجدان الشعب ومجالات فلسفته الشعبية نحو مواقف حياته اليومية وتسريته عن نفسه ، على حين توضع الفنون الشعبية ترجمة وجدان الشعب من الشكل اللفظى ، المنطوق الى الشكل الحركى الايقاعى • أما الثقافة المادية فهى تعكس لنا بجلاء النتاج المادى الشعبى الذى يستعين به الشعب فى حياته فيما يتصل بالزى ، والسكن ، والعمل والانتاج ، والانتقال ••• الخ •

* * *

ثانيا : معنى الثبات والتغير فى التراث الشعبى :

من الأمور البديهيـــة أنه لاتوجد ثقافة استاتيكية Static Culture على الاطلاق • اذ مهما اتسمت الضوابط بالشـــدة والصرامة ، ومهما غلب على الجزاءات طابع القســـوة ، فلابد أن يطرأ التغير الثقافى • وتكفى نظرة واحدة يوليها أى باحث لمجتمع ما ، ليدرك مدى التغير • حقيقة قد لا تكون معدلات التغير كبيرة اذا قيست بمجتمع حضرى صناعى كالمجتمع الأمريكى مثلا ، الذى يغرم بالجديد ، ولذلك تتخذ الوسائل الاعلاميـــة من موضوع الجديد وترا حساسا تعزف عليه سيمفونية « الشىء الجديد ، والشىء الأفضل ، والشىء المتطور » وبالتالى تجذب أعضاءه للتغير وتحبذه لديهم •

---

(١٦) Gearege Foster, Traditional Societies and Social Change (2nd Edi. tion), New York, 1973, p. 82.

وعلى ذلك فليس هناك ثبات أو محافظة ثقافية دائمة[١٧] ، وانما هناك تغير يقرر وجوده المتخصصون ، منذ بداية الدراسات الأركيولوجية وحتى الوقت الحاضر كحقيقة أزليـــة[١٨] ، تنطبق على الشق المادى والروحى للثقافة . ولذلك لايستسيغ المسنون تنصل المحدثين من دائرة التراث ، بيد أن جماح الثقافة قد خرج عن طوعهم[١٩] . وهنا تنطوى ديناميـــة الأجيال على أهمية تزداد باطراد فى احداث التغير .

غـــير أن أبناء المجتمع قد لا يدركون حدوث هذا التغير كما يدركه الملاحظ الخارجى ، وذلك لحساسية الأخير فى الادراك وعمق نظرته ، ومن هنا نقول أن التغير قد يكون بطيئا بحيث لا يطفو على السطح ، وقد يكون سريعا فتسهل ملاحظته . وفى كلتا الحالتين نسلم بأن « الثقافة الشعبية قد احتفظت بمقوماتها ومضامينها الأصلية ، وان تبدلت وتعدلت بعض أطرها العامة بعوامل الاحتكاك الثقافى...واستمر الطابع العام لشخصيات هذه الثقافة متوحدا بعناصره الأساسية ومحافظا — ومن خلال المأثورات الشعبية وأشكال الابداع الشعبى — على الشخصية الحضارية للانسان العربى من جنوب الخليج الى جبال أطلس فى المغرب العربى »[٢٠] .

ولكننا نؤكد منذ البداية على أن هذا التغير لا يطرأ على كل عناصر التراث الشعبى ، وان افترضنا أنه طرأ عليها كلهـــا ، فلا يكون بنفس

---

(١٧) المحافظة الثقافية Cultural Conservatism أو التثبيت الاثنوجرافى يعنى « وصول التماســـك الثقافى الى نقطة الركود . وهى حالة من التوازن الثقافى تصبح غير حساســـة للنشاط الاختراعى أو المؤثرات الصادرة من ثقافات أخرى ... » . انظر .

هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ومرجع سابق ، ص ٧٢ ، ٣١٨ .

(١٨) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٣٥٢ .

(١٩) M. Herskovits : Cultural Anthropology, (Indian Edition), Bombay 1969, pp. 441-43

(٢٠) صفوت كمال ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ — ١٧٥ .

الدرجة فى جميع العناصر،اذ هناك عناصر تتعرض للتغير السريع كالاحتفال بالأعياد الشعبية مثلا ، وعناصر تستعصى على التغير كالمعتقدات والمعارف الشعبية المتصلة بالسحر • ومن ناحية أخرى قد يحدث التغير حقيقة ولكنه يطرأ على شكل العنصر دون المضمون(٢١) •

ومن ناحية أخرى فان ثبات عناصر التراث الشعبى ومقاومتها للتغير، مسألة نسبية ، اذ أن أبناء المجتمع ينظرون الى التراث على أنه ثابت لا يتغير ، على حين يدرك الغرباء مدى هذا التغير • ومما يدفعنا للالحاح على هذه القضية الآن ، أن هناك مساجلات علمية تدور حول التراث (الأصالة) والتغير (المعاصرة) ، وبعضها ناقم عليه وثائر ، وبعضها الآخر متوحد معه ، على حين يدعو آخرون الى ضرورة تنقيته و«غربلته»(٢٢) لاستخلاص مايفيدنا فنبقيه ونحافظ عليه ، ونوظفه فى تنمية مجتمعنا والنهوض به •

ولعل تناولنا هذا الموضوع يتطلب الاشارة الى العوامل الثقافية والاجتماعية التى تحدث التغير فى عناصر التراث الشعبى ، وهى عوامل داخلية وخارجية • ومن المعروف أن مجتمعات الخليج العربى قد شهدت تحولا ملحوظا نحو البترول الذى أحدث تغيرا فى العلاقات القانونية والدولية ، ومارس دوره فى التطور الاقتصادى فى العالم • وبالتالى فقد أثر على العلاقات بين الشعوب(٢٣) ، وأبرز أهمية بلدان الخليج فى الساحة

---

(٢١) سيورد الكاتب أمثلة على ذلك فى الفقرتين « خامسا » و « سادسا » .

(٢٢) على المكاوى المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٦ .

(٢٢) على المكاوى المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ،ص ٦ .

(٢٣) د. محمد غانم الرميحى ، النفط والعلاقات الدولية : وجهة نظر عربية ، العدد٥٢ عالم المعرفة ، الكويت ، ابريل١٩٨٢ ، صص ٢٤٢ـ٢٤٣ .

النفطية • كذلك فقد خلق النفط تحالفات جديدة ، وفك تحالفات قديمة ، وأثار صراعات وثورات وهو مازال يفعل ذلك حتى الوقت الحاضر[٢٤] وقد رافق هذا التحول ارتفاع مستوى معيشة مجتمعات الخليج ، وكان انتشار التعليم — كطريق الى الوظيفة الحكومية — عامل تهديد أول لكيان العمالة الزراعية[٢٥] • واذا كنا ندرك صعوبة الزراعة ومشاقها • فاننا نؤكد على تعرض التراث الشعبى المتعلق بالزراعة للتغير ، وخاصة فى عناصر الزرع والحصاد ، وعادات الاحتفال بالمحصول ، والاستخدامات التراثية للنبات ، وأغانى العمل الزراعى والأمثال المرتبطة به وغيرها • كما توقف النشاط الزراعى والرعوى والاشتغال بالصوف من قرى « بنى كبير » بالمملكة العربية السعودية[٢٦] •

علاوة على ذلك فقد واكب التحول الاقتصادى نهضة شاملة فى كل المرافق كانشاء المدارس وبناء المستشفيات ، وانشاء وحدات البلدية والحكم الادارى المحلى ، وانشاء وحدات الشرطة والخدمات الأمنية كالمرور وغيرها ، وتنظيم الشئون البلدية وانشاء المصانع وشق الطرق وتعبيدها ••• الخ[٢٧] •

وقد اعتمدت مجتمعات الخليج على العمالة الأجنبية للقيام بهذه

---

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٢٤٢ •

(٢٥) د• علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، ط ١ ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٨ •

(٢٦) نفس المرجع والصفحة •

(٢٧) انظر حول هذا التغير : سعيد فالح الغامدى ، البناء القبلى والتحضر فى المملكة العربية السعودية : دراسة انثروبولوجية عن قبيلة (بنى كبير) رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨١ • وانظر كذلك حول الزراعة والتراث فى الخليج المرجع التالى : حسين الجليلى ، « الزراعة والأدب الشعبى » مقال بمجلة التراث الشعبى العراقية ، العدد ٩ ، السنة الثامنة ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ٨٣ — ٩٤ •

المهام ، نظرا لنقص الكفاءات المحلية ، فتعرض الخليج للاحتكاك الثقافى مع ثقافات وافدة متنوعة ومتباينـــة وقد عضد دخول وسائل الاتصـــال الجماهيرى داخل البيوت فى المجتمعات الخليجية عمليات التثقف • حيث تعرض أبناؤها لتأثير الاذاعة والتليفزيون ، والفيـــديو والبرق والهاتف والبريد ، مما أحدث تغيرا ثقافيا اجتماعيا عنيفا ، وزاد عتقه فى الجانب المادى للثقافة دون الجانب الروحى اللامادى •

ان وسائل الاتصال الجماهيرى ، واتصال القرية بالمدينة وبالمجتمعات المتقدمة عبر هذه الوسائل يؤدى الى حدوث هذا التغير كما حدث فى مصر وقراها ، وفى يورك York وياكيما Yakima بالهند(٢٨) ، وفى مجتمعات الخليج هى الأخرى • وتكفى الاشارة الى أن مجتمع «بنى كبير» بالسعودية لم يكن يعرف السيارة حتى عام ١٩٥٥ • « وكان القوم يسيرون لمسافات طويلة (للفرجة) على السيارات التى كانت تصل الى مناطق قريبة نسبيا من المنطقة ، وخصوصا فى (بالجرش) • وكانت رؤيتهم للسيارة — و هذا المخلوق الجبار » كماكانوا يسمونه — متعة ليس لها نظير • ويعود الرجال من هناك ليحكوا القصص عن هذا المخلوق ، والذى سيسير بسرعة تفوق سرعة الجمل ، بل ويستطيع أن يحمل مايحمله عشرون جملا ، ويستطيع أن يسير فى الظلام الدامس بواسطة عينيه السحريتين القويتين ، والتى تجعل الليل أمامه نهارا •• »(٢٩) وتشير نفس هذه الدراسة الى أن أبناء بنى كبير لم تكن تعرف الراديو الا منذ عام ١٩٥٢ فقط • وبعدها انتشر المذياع والتليفزيون منذ عام ١٩٦٧م فى الحضر حيث دخلت الكهرباء ، وعام ١٩٧٧ فى باديتهم(٣٠) • وتلا ذلك انتشار الصحافة وشبكات الطرق

---

(٢٨) George Foster : Traditional Cultures and Technological Change, New York 1973, p. 1122. See Also in Arabic :
على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص٣٥٢ ومابعدها .

(٢٩) سعيد الغامدى ، مرجع سابق ص ١٧٢ .

(٣٠) نفس المرجع ، ص ١٨١ .

والبرق والهاتف وغيرها حتى صار سكان المنطقة على علم تام بما يدور فى العالم بالصوت والصورة • وقد أحدث ذلك تغيرا طارئا وسريعا فى عدد من أنماط الحياة الاجتماعية ، ومن ثم كان له تأثيره الواضح على التراث الشعبى •

ومن ناحية أخرى فقد لعبت الخدمات الصحية الحديثة دورها فى تغيير بعض عناصر التراث الشعبى المتعلق بالعلاج والتداوى كالسحر والطب الشعبى • اذ تدل بعض الدراسات على المجتمع السعودى أن الساحر (الشيخ)(*) كان يطلع بعلاج الأمراض النفسية والعصبية من خلال تسخير الجن فى هذا العلاج • وتجدر هنا الاشارة الى أن أبناء مجتمع الدراسة لم يكونوا يطلقون على المصاب بهذه الأمراض بأنه مريض نفسيا أو عصبيا ، وانما كانوا يسمونه مجنونا[٣١] • كذلك فقد طرأ التغير على بعض عناصر الطب الشعبى ، حيث لم يعد يلجأ الشعب للوصفات الشعبية فى علاج كل الأمراض ، كما صاروا يلجؤون مباشرة للطب الحديث بعد شمول هذه الخدمات الصحية لكل مجتمعاتهم المحلية ، وسهولة الحصول عليها • فقد سحبت البساط من تحت أقدام المطببين الشعبيين كمعالجى أمراض العيون ، والعظام والنفسية والعصبية والجلدية ، والمعالجين بالكى والكحل ، والقاشى (الذى يعالج ابيضاض سواد العين بمجتمع بنى كبير بالسعودية) •

ونتيجة لكل ما سلف ، صارت مجتمعات الخليج تشهد تغيرات

(*) هناك كلمات أو مسميات تطلق على الشخص الذي يمارس السحر فى هذه الأغراض وغيرها ، وهى مسميات تختلف باختلاف المجتمع والثقافة . ففى قرى مصر يسمى «بالشيخ» وأحيانا «بالساحر» ، وفى السودان يسمى «بالفقير» خاصة فى الخرطوم وأواسط السودان . على حين يسمى «بالفقيه» فى بعض المناطق السعودية .

(٣١) سعيد الغامدي ، مرجع سابق ، ص ١٨٦ •

اجتماعية ثقافية عنيفة ، اذا انفتح أبناؤها على العالم الخارجى ، وصار أبناء القرى طلابا بالتعليم الجامعى ، والتحقت البنات بالمراحل التعليمية المتعددة حتى الجامعة • وصرنا نشهد أبناء القرى والقبائل « يقضون عطلة الصيف فى سويسرا أو مصر أو لبنان • لغات جديدة وأزياء جديدة وعادات جديدة ••• ثم عودة مرة أخرى الى حصن القرية حيث القبيلة كما هى مازالت تتشبث بأسباب الحياة ••• »[٣٢] • لقد تدهورت الزراعة وضاع الرعى أو كاد ، وضعف الانتاج فتقلص العمل الرعوى والزراعى وأصبحت الحاجة ماسة الى منتجات من خارج المجتمع[٣٣] • ومما زاد من هذه الحاجة أن معظم مجتمعات الخليج شهدت انتشار شبكة طرق برية ، وازدهارها عمرانيا ، ودخول الكهرباء وزيادة موجات الهجرة الى المناطق الجديدة ، وتعليم المرأة ، والتحاق البنات بالوظائف الحكومية وانتشار السيارات والأجهزة الكهربائية والحاجة الى صيانتها • وهنا عجزت الأجهزة أو السلع التقليدية عن الوفاء بالحاجة ، ممازاد من الاعتماد على السلع الجاهزة من الخارج • لقد اختفت بالتالى الصناعات الشعبية بتغير الاطار الذى كانت تستخدم فيه ، وهجر الصناع لها • ومن ثم يتضح مدى عنف التغير وشدته ، اذ من المعروف أن هذه الصنائع والحرف الشعبية « تتوارثها الأجيال على مر الزمن وتضاف اليها بعض المبتكرات الجديدة ، وتتحرر من بعض التقاليد القديمة ، ويرتفع بعض هذه الفنون ، ويتدهور البعض الآخر ، متأثرا فى ذلك باحتياجات الحياة المتغيرة باستمرار[٣٤] • ولذلك فالتغير فيها يعد مقبولا ، والسبب أنها تكشف عن ملكات الشعب ، ومواهبه وحيويته ، وتعبر عن نفسها وبصورة واضحة فى ذوقه الذى يتجلى عند صنعه للأشياء التى يستخدمها فى حياته اليومية • وفى مجال

---

(٣٢) د• علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ٣٩ •
(٣٣) سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ •
(٣٤) سعد محمد كامل ، مرجع سابق ، ص ٤٨ •

الفنون والصنائع الشعبية نقف على مدى التوحيد بينها وبين الانسان • فلقد كان التوحد بين الفن والصنعة سائدا فى مجالات كبيرة أخرى • وكان ذلك سمة من سمات عديد من الفنون الشعبية • فشاعر الربابة ، كثيرا ماكان يصنعها ، بالاضافة الى أنه كان ينشد القصص البطولى ، وقد يقدم لحظات من التعبير الدرامى أثناء الانشاد[٣٥] • وكذلك فالعازف بآلات النفخ كان يصنعها ويثقبها ، ويختار القصبة التى تصلح أن تكون صفارة أو « أرغولا » ، أو « سلامية » ••• الخ •

وبالاضافة الى تأثير وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة على سلوك الناس وأثرها المتزايد فى تبنى أساليب الحياة الحديثة ، فان عوامل المخالطة البشرية المتمثلة فى الهجرة والاستيطان والسـياحة أصبحت فى مقدمة دواعى التغير الناشطة بالنسبة لمختلف الثقافات[٣٦] •

واذا كان التغير المشار اليه هنا يرجع الى عمليات داخلية فى المجتمع الخليجى نفسه بحكم التحولات الاقتصـادية والاجتماعية السريعة التى طرأت عليه ، الا أننا نجد نمطا آخر من التغير الناجم عن مجموعة العمليات الثقافية الوافدة اليه من خارجه مثل الاتصال الثقافى Cultural Contact والتثقف Acculturation والاستعارة Borrowing والانتشار Diffusion [٣٧] ، وغير أنه يمكن اجمال هذه العمليات تحت فئتى الانتشار والتثقيف فقط • فلو تركت كل جماعة انسانية تحبو بمفردها فى طريق التقدم بلا عون من

(٣٥) احمد رشدى صالح « الفولكلور والتنمية » . مقال فى مجلة عالم الفكر الكويتية مجع سابق ، ص ٢٩ .

(٣٦) أحمد رشدى صالح ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣٧) على المكاوى ، مرجع سـابق ، ص ٣٥٦ ، وانظر حول هـذه المصطلحات . هولتكرانس ، مرجع سـابق ، صفحات ١٤ ، ٤١ ، ٧٣ ، ٤٤ ، ٢٦٠ .

أحد ، ولااتصال بغيرها ، فلابد أن يتباطأ تقدمها ، ومعنى ذلك أن الاتصال ووسائله هما وسيلة النهوض بالمجتمعات[٣٨] كذلك فان الاتصال وتكراره يؤديان الي التعجيل بالتغير بين المجتمعات وزيادة معدلاته[٣٩] فقد أدي هذا الاتصال بين الأوربيين والأفارقة — فى مجال الطب والعلاج — الى تعرف الأخيرين على الأمراض وآثارها ، وكيفية علاجها ، والوقاية منها ، مما عجل بأحداث التغير فى التراث الشعبى القائم[٤٠] • ولعلنا نلمس هذا الحال من التغير فى الطب الشعبى فى مجتمعات الخليج العربية •

وخلاصة هذه المناقشة أنها تستعرض موقف التراث الشعبى فى مواجهة عوامل التغير الداخلية والخارجية معا ، وفى هذا الصدد يسوق رشدى صالح قانونين أساسيين هما قانون الاستمرار وقانون نشوء البدائل[٤١] • أما قانون الاستمرار فانه يعنى أن الابداع الشعبى يظل يودع مأثوره الدارج خلاصة تجاربه ، وذخائر قوله وفنه ، وضوابط سلوكه وأخلاقه ومعتقداته • ويظل يوظف هذا المأثور الشعبى لكفاية حاجة تكون قائمة فى حياته ، ويظل يذيعه ويتناقله ويردده ، وقد يقتدى به ، ويتناقله ويردده ، وقد يقتدى به ، ويتناقله من بيئة الى بيئة ، ومن جيل الى جيل[٤٢] • وتصدق هذه النظرة على التراث الشعبى فى مختلف عصوره

---

(٣٨) Floyed Shoemaker and Evertt Rogeers : Commu-nication of Innovations, The Free Press, New York 1971, p. 1.

(٣٩) Alexander Alland : Adaptation in Cultural Evo-lution, Colombia Univ. Press, Neew York 1970, pp. 156-58.

(٤٠) على المكاوى ، « الطب السحرى » ، دراسة منشورة فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع باشراف الدكتور محمد الجوهرى العدد الرابع ، دار المعارف ، القاهرة ، ابريل ١٩٨٣ ، صص ٤٧٦ — ٤٨٢ .

(٤١) أحمد رشدى صالح ، الفولكلور والتنمية ، مرجع سابق ، ص١٤ .

(٤٢) نفس المرجع والصفحة .

ومراحل تاريخه الماضية والحاضرة وحتى المستقبلة • ومن الأدلة على ذلك الاستمرار مانعايشه من عادات ومعتقدات ومعارف شعبية تمتد بجذورها الى آلاف السنين فى أعماق تاريخنا الثقافى فى العالم العربى والاسلامى ، وتحكمها عوامل نفسية واجتماعية[٤٣] • وكذلك تؤكد الأمثال الشعبية والقصص الشعبى على استمرارية هذا التراث على مدى الزمن ، رغم ما مر عليه من تاريخ ، وما طرأ عليه من عمليات تغير •

ويتمثل القانون الثانى فى قانون نشوء البدائل فى المأثورات الشعبية بمعنى أن استمرارية هذا الابداع الشعبى تماثل استمرارية الحياة نفسها، فهى جزئيات تموت وجزئيات تولد ، وفيها نماذج تفقد وظائفها ودلالتها وتختفى ، ونماذج أخرى تكتسب وظائف جديدة أو دلائل جديدة ، وفيها أنماط تتحول ، وأنماط تتجمد ، وفيها مأثورات ينكمش مدارها ومأثورات تقيم وتحل محل مأثورات أخرى ، وفيها مأثورات تهاجر وتستقر فى مواطن استعمال جديدة[٤٤] •

وهذا السيل من المد والجزر ، ومن النشوء والاختفاء ، ومن الاستقرار والهجرة ومن التوليد والتجميد ، ومن الاشتقاق والانطواء ، يطرح قانون البدائل مواكبا وملاحقا لقانون الاستمرار فى مادة المأثور الشعبى • بل أنه يطرح خاصيته المأثور الشعبى بعامة على أن يتلاءم مع ظروف الحياة التى يدرج فى حياة أهلها •

واذا كانت عوامل التغير المختلفة عوامل بالغة التأثير على عناصر التراث الشعبى وأشكاله المتعددة ، الا أن هذه العناصر لاتقف مكتوفة

---

(٤٣) على المكاوى «سيكولوجيا المعتقد الشعبى» دراسة نقدية منشورة فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ص ٣٥٣ — ٣٥٩ •

(٤٤) احمد رشدى صالح ، الفولكلور والتنمية ، مرجع سابق ، ص ٢٤ •

الأيدى أمام التغير ، اذ تملك من المرونة والقدرة على الملاءمة مايجعلها تدحض التصور الذاهب الى أن الحداثة ستقضى بالضرورة على سائر جوانب التراث الشعبى ، وسائر أنواعه ، وستلغى وظائفه ، وتلغى مبرر وجوده •

* * *

ثالثا : تعريف العادات والتقاليد والمعتقدات والمعارف الشعبية :

يرى الكاتب أن التعريفات فى هذه الموضوعات ليست ملحة فى الوقت الحالى ، ولكنها ضرورة فى ندوة تعقد للاعداد لجمع التراث الشعبى بدول الخليج العربية ودراسته • خاصة وأن تحديد المفاهيم عملية علمية تسبق اجراء أية دراسة ، وتوجه مسارها توجيها يتفق مع مدى كفاءة التعريف •

وفى هذا الصدد نقدم ماأستقر عليه اجماع علماء الفولكلور حول تعريفات العادات والمعارف والمعتقدات الشعبية • ولنبدأ بتناول معنى العادة الاجتماعية Custom كماعرفها هولتكرانس باعتبار أنها « سلوك أو نمط سلوكى تعده الجماعة الاجتماعية صحيحا وطيبا • وذلك بسبب مطابقته للتراث الثقافى القائم »[٤٥] ويرى أننا لو أكدنا القوة القسرية المعيارية للعادة ، فانه يمكن تسميتها عادات شعبية Folk ways أو سننا Mores ، وفقا لما يراه سمنر Sumner •

ويقدم الدكتور محمد الجوهرى تعريف للعادة باعتبارها[٤٦] « ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الانسانية • هى حقيقة أصلية من

---

(٤٥) هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ، حـ ١ • مرجع سابق ، ص ٦٤ •

(٤٦) د• محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، حـ ١ • مرجع سابق ، ص ٦٤ •

حقائق الوجود الاجتماعى فنصادفها فى كل مجتمع ، تؤدى الكثـير من الوظائف الاجتماعية الهامة ، عند الشعوب البدائية كما عند الشعوب المتقدمة ، عند الشعوب فى حالة الاستقرار ، وفى حالات الانتقال والاضطراب والتحول • وهى موجودة فى المجتمعات التقليدية التى يتمتع فيها التراث بقوة قاهرة وارادة مطلقة ، كما أنها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها فى ظل مجتمعاتنا العلمانيـة المتطورة • وابتكرت لذلك عديدا من الأشكال والصور الجديدة التى تناسب العصر » •

ويعد مصطلح عادة من المفاهيم الأساسية فى الدراسات الاثنولوجية، أو دراسات الحياة الشعبية • ولذلك كثيرا ما دار الجدل حول أهميتها • ويتضح المدى الواسع للتفسيرات المقدمة فى كثرة التعريفات التى وضعت لهذا المصطلح • ونكتفى هنا بذكر تعريف واحد قدمه مالينوفسكى يقول فيه : « أن العادة هى أسلوب مقنن من أساليب السلوك يتم فرضه تقليديا على أفراد المجتمع المحلى »[٤٧] ويرى هولتكرانس أن الباحثين والدارسين للتراث الشعبى ، غالبا ما يميزون بين العادة وبين التقليد Usage ولكنه يؤكد على أن المصطلحين يمكن ان يستخدما كمترادفين أيضـا • ويشير كذلك الى مفهومين يحتلان مكان الصدارة بين تعريفات العـادة وهما الامتثال Conformity الاجتماعى والتراث التاريخى •

ومن ناحية أخرى أوضح ريل Riehl أن السلوك يتحول الى عادة عندما « يثبت من خلال عدة أجيال ، ويتوسـع وينمو » ومن ثم يكتسب سلطانا • ولعل عبارة التوسع والنمو واكتساب السلطان تتضمن بعض خصائص العادات الاجتماعية وهى[٤٨] :

---

(٤٧) هولتكرانس ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ •

(٤٨) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، جـ ١ ، رجع سابق ، صص ٦٦ — ٦٧ •

١ — العادة الاجتماعية فعل اجتماعى ، تظهر الى الوجود حينما يرتبط الفرد بآخرين ويأتى أفعالا تتطلبها منه الجماعة أو تحفزه اليها •

٢ — ترتكز العادة على تراث يدعمها ويغذيها عبر عدة أجيال ، ومن هنا فهى تاريخية الطابع •

٣ — العادة قوة معيارية وظاهرة تتطلب الامتثال الاجتماعى ، بل الطاعة الصارمة • وهى تستمد سلطتها راسيا (تاريخيا) وأفقيا (اجتماعيا) •

٤ — ترتبط العادة بظروف المجتمع الذى يمارسها ، بمعنى أنها مرتبطة بزمن ، وبموعد أو مناسبة • وترتبط كذلك بمواقف وأحداث الحياة كالزواج مثلا •

٥ — تتخذ العادة صورا عديدة تظهر فى تلك التنويعات اللانهائية من العادات فى كافة مجالات الحياة • وتزداد تنويعا تبعا لتباين السن والنوع والدين والمهنة ••• الخ •

أما المعتقدات والمعارف الشعبية فهى تشير الى مجموعة « المعتقدات التى يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجى والعالم فوق الطبيعى »(٤٩) • وهى كذلك مركب من الأفكار المترابطة — التى تعلمها الفرد وشارك بها — والمستمرة زمنا طويلا ، ويظهر الأفراد والجماعات بعض الالتزام بها(٥٠) • ويرى فرانك Frank أن هذه المعتقدات والمعارف الشعبية عبارة عن « فرائض أخلاقية وادراكية معا ،

---

(٤٩) نفس المرجع السابق ، ص ٦٠ ، وانظر لنفس المؤلف . علم الفولكلور ، ج ٣ ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٥٠) Borhek and Curtis : A socioogy of Beliff, Naw York, 1975, p. 5.

يدرك بها الناس عالمهم »[٥١] • ويرى الكاتب أن المعتقدات والمعارف الشعبية هي « مجموعة الأفكار التى يؤمن بها الشعب ، وتتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي وتمثل منظور الجماعة فى حياتها الاجتماعية وتعاملها معها »[٥٢] • أما بيتر هاموند Hammound فهو يعرف هذه المعتقدات بأنها « نسق فكرى يضم الاعتقاد والشعائر والطقوس وغيرها ، ويزود الشعب بأسباب الخلق والحكمة والرشد فى الأفعال »[٥٣] •

وليس هذا مجال الخوض فى التعريفات وحصر ما صدر منها حول المعتقدات والمعارف الشعبية ، ويمكن الاكتفاء بهذا النذر اليسير منها ، مع التركيز من ناحية أخرى على أبرز العناصر الهامة التى ينبغى أن يتضمنها أى تعريف يوضع لها • وفى البداية نقول أن هناك عدة عناصر تضمها المعتقدات والمعارف الشعبية تتمثل فى :

١ — أنها مجموعة من التصورات والأفكار •

٢ — كما أنها محل ايمان وتصديق من الفرد والمجتمع •

٣ — كذلك فهى تدور حول العالم الاجتماعى الذى يعايشه الانسان حول صحته ومرضه وعلاقته بأهله وعشيرته ، وخبراته وتجاربه وانعكاسها على حياته •

---

(٥١) J. Frank : Nature and Function of Belief Syetem in : American Psychology, Jly 1977, p. 555.

(٥٢) على المكاوى ، «السياق الاجتماعى للمعتقد الشعبى» مقال منشور فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثالث ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٢٥٥ .

(٥٣) Peter Hammoud : Cultural and Social Anthropology. (2nd edition), New York, 1975, p. 270.

٤ — تدور حول العالم فوق الطبيعى الذى لا يستطيع الانسان السيطرة عليه أو فهمه أو الاقتراب منه ، ولهذا فهو يحيله تصوريا الى عالم محسوس يقدر على فهمه والاقتراب منه • ومن هنا كانت معارفه الأنطولوجية الشعبية حول الأرض والسماء والكواكب والطقس والملائكة والجن والسحر والولاية والأولياء ••• الخ •

٥ — ان هذه المعتقدات والمعارف الشعبية تشكل منظورا ينظر الانسان من خلاله الى عالمه المحسوس ، وعالمه غير المحسوس ، ينقى به مدركاته ، ويصبغ من خلاله فهمه لما يعجز عن ادراكه •

واذا كانت العادات والتقاليد الشعبية يمارسها الناس فى عالمهم الاجتماعى وأمام الجميع بشكل ملموس ، واللغة الشعبية يمكن نطقها وكتابتها واستخدامها بصورة حية فى التفاهم مع طرف ثان يتفاعل مع الناطق بها ، والرقص الشعبى وسائر الفنون الشعبية تتجسد على مرأى ومسمع من الانسان ، الا أن المعتقدات والمعارف الشعبية تتخذ وصفا مخالفا وفريدا فى نفس الوقت • وهذا التفرد يتجلى فيما تتمتع به من الخصائص التالية :

١ — أنها خبيئة فى صدور الناس ، وتتشكل بصورة ما ، يلعب فيها الخيال الفردى دوره ليعطيها طابعا خاصا • وبالتالى فهى تتمكن من النفس الانسانية(٥٤) •

٢ — أنها عناصر تراثية توجد عند كل الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وتتغلغل فى أعماق نفوسهم ، وتضرب بجذورها فى غيابات التاريخ الاجتماعى والثقافى للمجتمع • وهى معتقدات ومعارف مشابهة

---

(٥٤) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، ج ٢ ، مرجع سابق ، صص ٢١ ، ٢٢ •

الى حد ما ، لما يسود الآن ، مع فارق طفيف أحيانا ، وبلا فوارق أحيانا أخرى • وتنتشر فى كافة الطبقات وعلى كافة المستويات ، ولكن بدرجات تختلف بالطبع •

٣ — تنفرد المعتقدات والمعارف الشعبية بالمواقف الانسانية العامة أو الأفكار الأساسية ، ولذلك فهى تتشابه فى خطوطها العريضة فى معظم مجتمعات العالم بدرجات تزيد أو تقل ، على خلاف عادات الزواج التى تختلف فى مصر عن السعودية ، وفى السودان عن الكويت أو قطر ، وتختلف فى هذه المجتمعات عن نظيرها فى بيرو أو فرنسا مثلا • ومرد هذا التباين الى اختلاف كل شعب من هذه الشعوب والتشكيلات العامة Configurations التى تصبغ ثقافته • وفى مجتمع الأوزارك Ozark بأركنساس بالولايات المتحدة يسود الاعتقاد بأن انكسار الطبق يدل على حظ سىء ، ولو رف حاجب المرأة الأيمن لعنى قدوم ضيف غير متوقع ، على حين لو رف حاجبها الأيسر لكان القادم امرأة • كذلك يعتقد بأن يد المرأة اليمنى لو اقشعرت فسوف تصافح ضيفا عزيزا ، بينما لو اهتز أحد ابهاميها لكان ذلك نذير قدوم ضيف طفيلى ثقيل • ولو عطست قبل الافطار ، لدل على قدوم ضيف قبل الظهر ••• الخ[٥٦] • وتوجد نفس المعتقدات الشعبية فى المجتمعات الافريقيــه والآســيوية والأمريكية • « فضرب المندل » ينتشر فيها مع اختلاف بسيط فى الشكل أو الوسيلة المستخدمة[٥٧] • فهو يتم فى مصر باستخدام الفنجان • وفى نيوزيلاند

---

(٥٥) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغيير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٨ •

(٥٦) Vance Randolph : Ozark Superstitions, New York, 1964, p. 53.

(٥٧) على المكاوى ، السـياق الاجتماعى للمعتقــد الشعبى مرجع سابق ، ٢٥٦ •

بنقطة دم ، وفي أمريكا بكسرة بللورية ، وبالمجبرة فى الهند ومصر ، وباستخدام السلطانية عند هنود أمريكا ، وبركة ماء Pound فى إيطاليا ... الخ[٥٨] .

٤ — وبرغم هذا التشابه بين المعتقدات والمعارف الشعبية فى مجتمعات العالم ، الا أن تفسيرها يتضارب . فالمصريون يفسرون المرض على أنه ابتلاء من الله لعباده المصطفين الأخيار ، على حين يعتبرونه نقمة الفسقة والعصاة . وهناك صرامة الطقوس وتهاونها ، والتنكيل بالأحياء وتمجيد الأموات وتكريمهم . وقد فرضت طبيعة الحياة على المصرى لونين من الحياة متناقضين ، فهو يعبث ويمجن ، وهو يفكر فى آخرته فيتعبد ، وهنا ظهرت العبارة الشعبية « دى نقرة ودى نقرة »[٥٩] .

٥ — ليست المعتقدات والمعارف الشعبية مجالا للتساؤل بشأنها أو للتشكك فيها . وليس من المستحسن مناقشتها فى ضوء الخبرة الانسانية ومنطقها[٦٠] . وذلك لأن المعتقدين ذوو شخصيات ذات مواصفات وخصائص معينة ، نظرا لتمكن المعتقد منهم .

٦ — وتمثل المعتقدات والمعارف منظور الجماعة فى حياتها الاجتماعية[٦١] . وعلى ذلك فهى توفر عليها مغبة التفكير فى التصرف فى مواقف عديدة من الحياة ، وتوفر على المرء مجهوده فى البحث عن حلول لمشاكله ، وتزوده بجرعات متتالية من الطمأنينة والصبر فى العسر واليسر

---

(٥٨) Sharper Knowlson : The origin of popular superstitions and customs, London, 1934, p. 146.

(٥٩) على المكاوى ، السياق الاجتماعى ، مرجع سابق ، ٢٥٦ .

(٦٠) J. Frank : op. cit., p. 555.

(٦١) د. عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ص ٢٨ .

وعند اليأس • وتسود هذه الوظيفة النفسية والاجتماعية للمعتقدات والمعارف فى معظم أنحاء العالم • فهى اذن تطلع بوظيفة تفسير الظواهر التى يعجز الانسان عن ادراك كنهها والاحاطة بالسبب والنتيجة فيهما وربطهما معا • وتنتمى معظم هذه الظواهر الى العالم فوق الطبيعى والخارجى الذى لا حول للانسان ولا قوة له به ، كالمطر والرعد والبرق والزلازل والبراكين والكائنات فوق الطبيعيه والأحلام والموت وأحداث المستقبل المجهول ... الخ •

رابعا — تصنيف العادات والتقاليد والمعارف الشعبية :

يؤكد الدكتور محمد الجوهرى بأنه لا يوجد ميدان من ميادين التراث الشعبى — بعد الأدب الشعبى — حظى بمثل ما حظى به ميدان العادات الشعبية من العناية والاهتمام • وقد تمثلت هذه العناية ، وذلك الاهتمام فى الدراسات الفولكلورية والسوسيولوجية من ناحية ، وفى عمليات الجمع والتسجيل من ناحية أخرى • ولذلك يقول بأن التراث الدائر حول العادات الشعبية قد وصل الى الحد الذى أصبح معه من المستحيل على باحث واحد أن يلم به الماما كاملا[٦٢] • ومازال أمام الباحثين شوط طويل قبل الانتهاء من دراسة وتحليل المادة التراثية المجموعة •

والجدير بالذكر أن العادات والتقاليد الشعبية تقدم لنا صورة متكاملة عن حياة أى مجتمع ، وتضفى عليها رونقها وشرعيتها ، اذ يفصح الوجود الانسانى عن نفسه فى العادات ، والعادات هى التى تضع فى يد الانسان السلاح الذى يواجه به أسرار الوجود ومشكلات الحياة ، وهى الأداة التى يدعم بها علاقاته مع مجتمعه[٦٣] •

---

(٦٢) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، جـ ١ ، ص ٦٣ — ٦٤ .
(٦٣) نفس المرجع ، ص ٦٧ .

ويتضح هذا الأمر حينما نعرف أن « المهمة الأولى للانسان فى هذه الحياة هى أن يحيا ويعيش • فالمرء يبدأ بالأفعال وليس بالأفكار ، وكل لحظة من لحظات حياته تأتى اليه ببعض الضرورات والحاجات التى يجب اشباعها فى الحال • ولقد كانت أولى محاولاته ترتكز على مبدأ المحاولة والخطأ ، وكانت اللذة والألم هما الضوابط التى حددت مسار هـذه المحاولات(٦٤) • وعلى طول الطريق الذى كان يتعين على تلك الجهود أن تسلكه ، تكونت العادة والرتابة والمهارة • وقد استمر الصراع من أجل البقاء على المستوى الفردى والجمـاعى • وأفادت كل جماعة من خبرات الجماعات الأخرى ، ومن هنا كان التلاقى والاتفاق أزاء الخبرات التى ثبتت صلاحيتها وملاءمتها أكثر من غيرها • وانتهى الأمر بها كلها الى اتباع نفس الأسلوب لتحقيق نفس الهدف • ومن هنا أيضا تحولت الطرائق والأساليب الى عادات اجتماعيـة ، وأصـبحت ظواهر عامة شـاملة •

وقد حاول بعض علمـاء الفولكلور تصـنيف العادات والتقـاليد الشـعبية • ومن هؤلاء الكسـندر كراب A. Krappe الذى حاول أن يصنفها مع الطقوس فى نفس الوقت • وفى هذا الصدد يقول : ويجوز أن نقسم مجموعة العادات والطقوس الى ثلاثة أقسام هى(٦٥) :

١ — الطقوس المتصلة بأيام وفصول معلومة من السنة الشمسية •

٢ — الطقوس التى تراعى فى مناسبات محددة كالميلاد والزواج والوفاة •

٣ — طقوس خاصة بدفع الضرر والاحتراس •

---

(٦٤) د. احمد ابو زيد وآخرون ، مرجع سابق ، ص ١١٦ — ١١٧ .

(٦٥) الكسندر هجرتى كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة احمد رشـدى صالح ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٤١٧ .

ولكن هذا التقسيم أكثر اقترابا للمعتقـدات والمعـارف منه الى العادات والتقاليد ، وذلك لأنه يركز على مجمـوعة الأفعـال الرمزية الطقوسية التى يزاولها الانسان فى مواقف شتى من الحياة الاجتماعية • علاوة على أن « كراب » لم يشر فى تقسيمه الى العادات بالتفصيل وانما أشار فحسب الى عادات دورة الحياة • وأنطلق من الجانب الطقوسى وليس من الجانب السلوكى التراثى المعيارى •

والمحاولة الثانية للتصنيف قام بها الدكتور / محمد الجـوهرى وزملاؤه ، حيث قسموا العـادات الشعبية الى ثلاثة أقسـام رئيسية هى[٦٦] :

١ ـ عادات دورة الحياة •

٢ ـ الأعياد والمناسبات المرتبطة بدورة العام •

٣ ـ الفرد فى المجتمع المحلى ويعرض هذا القسم للروتين اليومى وآداب التعامل والضيافة ••• الخ •

ثم قدم الدكتور محمد الجوهرى تصنيفا أخيرا للعادات والتقاليد الشعبية بشكل تفصيلى على النحو التالى[٦٧] :

١ ـ عادات دورة الحياة وتشمل :

(أ) عادات الميـلاد •

(ب) عادات الزواج •

(جـ) عادات الوفاة •

---

(٦٦) د• محمد الجوهرى وزملاؤه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد، مرجع سابق ، ص ٢٨ •

(٦٧) د• محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، جـ ١ ، مرجع سابق : صص ٦٩ ـ ٧٠ •

٢ — الأعياد والمناسبات المرتبطة بدورة العام وتشمل :

(أ) الأعياد الدينية .

(ب) الأعياد القومية .

(جـ) المواسم الزراعية .

٣ — الفرد فى المجتمع المحلى ، وتتضمن :

(أ) المراسيم الاجتماعية كمراسيم الاستقبال والتوديع والعلاقات بين الكبير والصغير ، والغنى والفقير ... الخ .

(ب) العلاقات الأسرية ، مركز الأب والأبناء والأم ... الخ .

(جـ) اللائق وغير اللائق .

(د) الموقف من الغريب والخارج على العرف والمألوف .

(هـ) العادات والمراسيم المتعلقة بالمأكل والمشرب .

(و) الروتين اليومى والعادات اليومية الشائعة كعادة القيلولة .

(ز) فض المنازعات كمجلس العرب وحقهم .

(ح) التحكيم ويظهر الجانب الاعتقادى فيه متمثلا فى طقس البشعة .

أما بالنسبة للمعتقدات والمعارف الشعبية فهناك محاولات عديدة لتصنيفها قام بها علماء الفولكلور ودارسوه من الأجانب أمثال وليم لين E.W. Lane (١٨٣٦) ، وكلونزنجر C.B. Klunzinger (١٨٧٦) ، وهجرتى كراب A. Kxaffe ، وريتشارد دورسون R. Dorson (١٩٧٢) . كذلك قام بعض المصريين بهذه المحاولات ومنهم الدكتور / محمد الجوهرى وزملاؤه . ولكننا لن نستطرد فى هذه الناحية ، وانما نكتفى بالاشارة الى التصنيف الذى أورده أخيرا الدكتور / محمد

الجوهرى[٦٨] ، ويتضمن ما يلى من الموضوعات الأساسيه التى يضم كل منها عشرات وأحيانا مئات الموضوعات :

١ — الأوليـاء .
٢ — الكائنات فوق الطبيعية .
٣ — السحر .
٤ — الطب الشعبى .
٥ — الأحلام .
٦ — حول الجسم الانسانى .
٧ — حول الحيوان .
٨ — النباتات .
٩ — الأحجار والمعادن .
١٠ — الأماكن .
١١ — الزمن .
١٢ — الأوائل والأواخر .
١٣ — الاتجاهات .
١٤ — الألوان .
١٥ — الأعداد .
١٦ — الأنطولوجيا .
١٧ — الروح .
١٨ — الطهارة .
١٩ — النظرة الى العالم .

وقد أخذت بهذا التصنيف فى دراستي للمعتقدات الشعبية بقرية سيف الدين بمحافظة دمياط عامى ١٩٨٠ و ١٩٨١ . وأن اقترحت خلالها

(٦٨) تناول الدكتور محمد الجوهري محاولات هذا التصنيف في أعماله المشار اليها هنا .

تخصيص موضوع مستقل لتناول المعتقدات والمعارف الشعبية المتصلة بالطيور لما لها من أهمية اعتقادية فى حياتنا الاجتماعية والثقافية[٦٩] .

خامسا — جوانب الثبات ومعالم التغير فى العادات والتقاليد :

ينبغى الاشارة فى البداية الى أن العادات الشعبية يطرأ عليها التغير بفعل عوامل داخلية أو خارجية . ولكن هذا التغير :

١ — قد يكون فى الشكل حينا .

٢ — أو يكون فى المضمون حينا آخر .

٣ — وقد يتمثل — من ناحية ثالثة — فى صورة عناصر جديدة لم تكن موجودة من قبل . واذا كانت العادة تعكس معتقدا شعبيا ، والمعتقد الشعبى يترجم فى ممارسات يومية أو موسمية على مستوى الجماعة والمجتمع المحلى ، فان « ممارسات تقديم القرابين البشرية لم تمارس لقرون عديدة فى أوربا الوسطى والغربية ، وان كانت الذواكر الدالة عليها موجودة فى سائر الأنحاء . وذلك أن المعتقد الخاص بها ما يزال يعيش ، وان كانت الممارسة قد اندثرت[٧٠] . وقد تعيش الممارسة بعد اندثار المعتقد الذى أنشأها ومعنى ذلك أنه قد يستمر الطقس أو الممارسة بفضل روح المحافظة الغريزية فى الانسان ، بينما ينسى السبب أو الغرض الأصلى لهذا الطقس أو تلك الممارسة . وكثيرا ما يخترع الوجدان الشعبى سببا جديدا للتبرير .

ومن الأمثلة على ذلك فى المجتمع الأوربى أن عادة كشف الرأس عند مرور نعش تفسر الآن كعلامة على اظهار الاحترام للموتى . ولكن أصلها مختلف عن هذا غاية الاختلاف ، فقد كان النعيش فيما مضى يتقدمه طيب ، وهذا يفرض على الناس خلع أغطية رؤوسهم ازاءه[٧١] .

---

(٦٩) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
(٧٠) الكسندر هجرتى كراب ، مرجع سابق ، ص ٤١٦ .
(٧١) نفس المرجع ص ٤١٦ — ٤١٧ .

وعندما جاءت البروتستانتية اختفى الصليب واختفت الممارسة • غير أنها رسخت أيما رسوخ فيما يتصل بالنعش • ومن النظائر فى المجتمع المصرى ممارسة « دق الهون وعمل الجلبة والضجيج فى سبوع المولود » • فهذه العادة كانت تستهدف فى المجتمعات البدائية التشويش على الكائنات فوق الطبيعية وتخويفها حتى لا تتعرض للمولود بأذى • وبقيت العادة حتى وقتنا هذا — فى الريف وفى الحضر — ولكن تفسيرها هو الذى تغير • اذ صار يشير فى الوقت الحاضر الى أنها محاولة لتعويد أذنى الطفل المولود على سماع الجلبة والضوضاء حتى يعتادها ولا ينزعج منها فى مستقبل حياته • انه اذن تفسير قد يبدو منطقيا لممارسة غريبة ذات أصول بدائية ، فرض عليها سياقا التنظيم والمعنى هذا التفسير الجديد(٧٢) •

وتجدر الاشارة الى أن العادات والتقاليد الشعبية فى المجتمع العربى الخليجى قد طرأ عليها التغير فى الوقت الحالى • وتبدو ملامح هذا التغير من خلال تناول ما آل اليه حال الممارسة الشعبية نفسها ، مما يدل على أبعاد وجوانب التغير • فاذا سرنا مع هذه الملامح المتغيرة والثابتة سيرا يتسق مع دورة الحياة والأعياد والمناسبات المرتبطة بدورة العام ، وايقاع الحياة اليومية وآداب التعامل والضيافة ، أمكننا عرض الموضوع تحت العناصر التالية بشىء من التفصيل :

١ — التغير والثبات فى عادات دورة الحياة •

٢ — التغير والثبات فى الأعياد والمناسبات المرتبطة بدورة العام •

٣ — التغير والثبات فى الممارسات اليومية للفرد فى المجتمع المحلى •

---

(٧٢) ساق الكاتب امثلة على العادات والمعتقدات الشعبية التى تتعرض لاعادة التفسير فى سياقها الاجتماعى على مستوى التنظيم والمعنى ، فى مقاله السابق . انظر :

على المكاوى ، السياق الاجتماعى ، مرجع سابق ، ٢٦٨ — ٢٧٥ .

١ — التغير والثبات فى عادات دورة الحياة :

يتضمن هذا العنصر تناول الجوانب الثابتة والمتغيرة فى ممارسات الشعب وعاداته للاحتفال بالميلاد والزواج ، وكذلك تناول سلوكهم المعتاد ازاء الوفاة ، والطقوس الجنائزية التى يتبعونها .

الحمــل :

الملاحظ على « بلاد بلقرن » التى تبعد عن الطائف ٣٠٠ كم وعن أبها ٢٢٠ كم بالسعودية ، أن المرأة تحرص على الحمــل والانجــاب ، « ويصبح شغلها الشاغل طيلة أيام الزواج الأولى . الا أنه لم يــكن هناك — على حد ادعاء الاخباريين أية طريقة لعلاج العقم الذى يودى بالحياة الزوجية أحيانا »(٧٣) . ويظهر العقم بعد فترة من الزواج ، وهو ينسب الى الزوجة فى أول الأمر ، فيتزوج زوجها بأخرى بقصد الانجاب. ولكن هذا المجتمع صار يشهد تغيرا ملحوظا بعد التحولات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن صناعة البترول بالسعودية(٧٤) . وتمثل التغير فى هذا الجانب فى أن الرجل صار يعرض نفسه وزوجته على طبيب مختص لاجراء الفحوص الطبية للتأكد من العقم أو علاج تأخر الحمل . كمـــا صارت المرأة تشعر بالراحة خلال حملها ، وذلك لانتشار المستوصف فى مجتمع « بلجرش » وفى أماكن أخرى « ببنى كبير » بالمنطقة الغربيـــة بالسعودية(٧٥) . كما زود المستوصف بقابلة وممرض وممرضة .

---

(٧٣) د. علياء شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ ، ١٢٩ .

(٧٤) سحر عبد الحميد الخطيب ، «صناعة البترول والتغير الاجتماعى». رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٨٨ .

(٧٥) سعيد الغامدى ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ١٨٨ .

الولادة :

كانت الولادة فيما قبل التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمجتمع الخليج تخلو بوضوح من التجهيزات أو الاحتياطات التى تسبق الوضع • فكم من حامل وضعت جنينها وهى تمارس أعمالها فى الزراعة أو الرعى أو الأعمال المنزلية ، أو فى أثناء قضاء الحاجة فى الخلاء • وفى أغلب الأحيان تتم الولادة فى البيت الذى توجد به المرأة بطريقة تلقائية(٧٦) • وتتولى الأم أو احدى الجارات ذوات الخبرة مساعدة الحامل فى الوضع بطريقة تقليدية •

ولكن التغير قد طرأ على هذه العادة الشعبية بحكم العوامل الخارجية المتمثلة فى دخول الخدمات الصحية والطب الحديث فيها • وهنا حدث التغير فى التراث المتصل بالولادة وبالشخصيات التقليدية المسئولة عنها كالداية (القابلة) ومساعداتها ودورهن التراثى فى هذا الجانب • علاوة على ان التغير قد قلل من معدل الوفيات عند الولادة فى المنطقة الغربية بالسعودية ، وكذلك فى المنطقة الشرقية منها • وتدل الدراسة على ان ٩٤٫٥ ٪ من عمال الصناعة بهذه المنطقة الشرقية صاروا يفضلون ولادة المرأة فى المستشفى ، فى حين لا يفضل ذلك نسبة ٥٫٥ ٪ منهم • أما عينة البدو فنجد ان ٦٣٫٥ ٪ منهم لا يفضلون أن تلد المرأة فى المستشفى • ويعارض ٣٦٫٥٪ هذا الاجراء(٧٧) • وترى الدراسة أن كلا من العمال والبدو يفضلون ولادة المرأة فى المستشفى ، ولكن البدو أقل تفضيلا من العمال •

---

(٧٦) د• علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٧٧) سحر الخطيب ، مرجع سالف الذكر ، ص٣٦٣ . وان كانت الطريقة الكمية فى تناول العادات والمعتقدات الشعبية لاتعبر عن حقيقتها فى عالم الواقع الثقافى ، وذلك لاختلاف طبيعة كل منهما . ولكن على العموم هى الدراسة المتاحة امامنا عن هذه المنطقة .

وفيما قبل كان انجاب الذكور يحظى بمكانة عالية حيث يساهم فى قوة الأسرة أو القبيلة عموما ، ولذلك كانت المولدة تستحث الوضع لتبشر الأب والأسرة بالمولود الذكر حتى تحظى « بالبشارة » النقدية أو العينية(٧٨) • أما فى الوقت الحالى فان الدراسات المتاحة عن مجتمعات الخليج تؤكد على تغير هذا الاصرار والتحمس لانجاب الذكور ، واستوى انجابها مع انجاب الاناث ، ولم يعد يهم الا سلامة الأم واجتيازها عملية الوضع بسلام •

ويلاحظ من ناحية أخرى أن تسمية المولود قد لحقها التغير أيضا • فبعد أن كان الذكور يسمون بأسماء محمد ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعوض ، وسعيد ••• الخ ، صاروا يسمون بأسماء خالد ، وعادل ، وطارق • أما الاناث فقد شاع فيما قبل تسميتهن بأسماء عائشة ، وفاطمة، وأسماء ، ولكن ما أصاب المجتمع فانتشرت الأسماء الجديدة مثل جنان ، وأمل ، وسعاد ••• الخ •

تنشئة الطفل :

تقوم الأم بارضاع طفلها رضاعة طبيعية فى قرى المنطقة الغربية بالسعودية ، الا أنه يحدث أحيانا — نتيجة لظروف العمل الزراعي — أن تكون الأم منشغلة بعيدا عن الطفل فى وقت حاجته للغذاء ، مما يستدعى تدخل احدى النساء الحاضرات برضاعته(٧٩) • ولكن الملاحظ الآن أن عبء العمل الزراعي والرعوى قد خفف عن الأم — وعن المرأة عموما — الى حد كبير ، كما أن عمليات التغير لحقت هى الأخرى بوسائل الرضاعة ورعاية الطفل • حيث يتوافر الآن بالأسواق الألبان المجففة والأغذية الصناعية المكملة اللازمة للرضاعة • كذلك فهناك ألعاب الأطفال التى

(٧٨) د. علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ١٣١ •
(٧٩) نفس المصدر ، ص ١٣٣ •

تسليهم وتكسبهم بعض المهارات فى المشى والجلوس ، اذ أن اللعب بالنسبة للطفل حقيقة يعيشها بواقعه وخياله ، وهو نشاط تلقائى أكثر اثارة لاهتمامه مما يحيط به[٨٠] .

والمعروف أن العادات والتقاليد المتعلقة بالطفل تصاحبه فى مراحل حياته منذ لحظة مولده ، وحتى اكتمال التربية ودخول الحياة العملية أو البلوغ ، أو حتى الزواج[٨١] . ولذلك فلا تزال الأم فى المجتمع السعودى تبذل مجهودا ضخما للعناية بالطفل من جميع النواحى ، واعداده للمدرسة فى سن السادسة .

الختـــان :

يحرص أبناء قرية « سبت العلاية » بالمنطقة الغربيـــة بالسعودية على ختان أبنائهم الذكور . « ولذلك كان الصبى يترك حتى يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره ، ثم يجمع الأقران فى السن من صبيان القرية فى احـــدى ساحاتها فى مظهـــر ينم عن بوادر الرجولة كحمـــل السلاح ... وعدم الاكتراث أو الخوف من هذه العملية . ويبدأ القائم بعملية الطهارة باستقبال الصبيان واحدا تلو الآخر لاتمامها وهم يرددون بعض أشعار الحماســـة وعبارات فخر الصـــبى بأسرته وأسرة أخواله وأجداده ... وبعد هذا يجوب الصبية المختونون شوارع القرية فى شكل عرضة شعبية ، وكل واحد منهم يمسك بثوبه ، حيث يرددون قصـــائد البطولة والشجاعة ثم يغادرونها الى القرى الأخرى بنفس المظهر .

---

(٨٠) د. فيولا الببـــلاوى ، « الأطفال واللعب » ، مقال بمجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثالث ، اكتوبر — ديسمبر ١٩٧٩ ، الكويت ، ص ١١٦ — ١١٧ .

(٨١) د. محمد الجوهرى ، « الطفل فى التراث الشـعبى » مقال بمجلة عالم الفكر ، العدد السابق ، ص ٢١ .

وبعد أن يشعروا أهل القرية التى وصلوها بأنهم أجروا عملية الختان يقومون بأداء العرضة الشعبية ، ثم يقوم أهل القرية باستقبالهم وضيافتهم حسب امكاناتهم وظروفهم[٨٢] • وتستمر الدكتورة علياء شكرى فى وصف هذه العادة حيث تقول بأن أهل القرية يحفرون فى اليوم التالى للختام حفرة بعمق ٣٠ سم يوضع بداخلها كمية بسيطة من الجمر لتعريض القضيب لحرارة النار ، وبعدها ينظف من الصديد المكون عليه ، ويوضع عليه كمية من قشرة الجبر بعد سحقه سحقا جيدا ، وتستمر هذه الطريقة بضعة أيام حتى يندمل الجرح •

غير أن انتشار التعليم والرفاهية والخدمات الصحية فى هذا المجتمع قد أحدث تغيرا فى هذه العادة ، حيث بدأ أبناؤم يتخلون عن العادات السابقة ، وقاموا باجراء عملية الختان فى اليوم السابع لميلاد الطفل ، يستدعون أحد المحترفين لاتمام الختان • وهنا يصعد والد الطفل أعلى السطح ويطلق عدة أعيرة نارية ، يليها تناول الافطار فى نفس البيت •

ومن ناحية أخرى صار المستوصف يطلع بهذه العملية ، ويأنس اليه الأهالى لسلامة اجراءاته ، وجودة أساليبه وأدواته ، وفاعلية الأدوية والمطهرات التى يستخدمها[٨٣] • وبالتالى تختفى عادات اطلاق الرصاص بعد الختان ، وتختفى أيضا وجبة الافطار فى حالة الاستعانة بطبيب المستوصف •

الزواج :

نظرا لغلبة طابع البداوة على المجتمع السعودى أكثر من طابع الزراعة ، الا أن عدد البدو يتناقص بحكم التصنيع والتحضر والتوطين •

---

(٨٢) د. علياء شكرى ، مرجع سالف الذكر ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٨٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

ولكن لا تزال العلاقات الأسرية والروابط متينة ــ الى حــد ما ــ بين الأفراد ، علاوة على سيادة الزواج المبكر وزواج الأقارب ووجود العائلة الكبيرة • غير أن صناعة البترول والتحولات الاجتماعية والاقتصادية فى هذه المنطقة السعودية قد أحدثت عدة تغيرات اجتماعية وثقافية فى نظم الزواج والأسرة والاقتصاد • فقد ظهر نظام القرابة القائم على الزواج بدلا من القرابة الدموية نتيجة الهجرة من الريف والبادية الى الحضر ، والاقامة فى المدن ، والزواج من غير الأقارب • كذلك انتشر التعليم فأتاح الفرصة للفتاة ، مما قلل من الزواج المبكر للذكور والاناث[٨٤] •

ويدلل سعيد الغامدى فى دراسته على المنطقة الغربية بالسعوديه على أن الزواج المبكر كان سائدا فيها لاعتبارات الحفاظ على سلامة القبيلة (بنى كبير) ، والدفاع عن أراضيها ومواردها • كذلك حتمت طبيعــة النشاط الاقتصادى الرعوى والزراعى توافر الأيدى العاملة لأن الأسرة الكبيرة أفضل من الناحية الاقتصادية من الأسرة الصغيرة •

وأولى خطوات الزواج هى الخطوبة حيث كان شباب قرى المنطقة الغربية يتمكن ــ بحكم طبيعة النشاط الاقتصادى الزراعى أو الرعوى ــ من رؤية جميع الفتيات فى سن الزواج • لذلك يبدأ فى التركيز على احدى الفتيات التى نالت اعجابه • وهنا يتردد الشاب ومعه المعجبون الآخرون من الشباب على بيتها لقضاء ما يسمى (بالهرجة)[٨٥] • وبعد أن تميل الفتاة والأسرة نحو شاب معين ، فانه يستعين بأحد الأشــخاص ذوى المكانة لدى الأسرة ، لاتمام الخطوبة والاتفاق على المهر والشروط • وفى قرية العبادل ببنى كبير يفضل الزواج الداخلى (من الوحدة القرابية ومن خارجها بداخل القرية نفسها)[٨٦] • حيث تذهب والدة الفتى لوالدة

---

(٨٤) سحر الخطيب ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٨٥) سعيد الغامدى ، مصدر مذكور سابقا ، ص ٢٢٥ .

(٨٦) د. علياء شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٠ .

الفتاة ، وتفاتحها فى رغبتها وتحصل على الكلمة الفصل ، وتعود لتبلغها للرجال ليبدؤوا مشاوراتهم واتفاقاتهم • وكل ذلك بهدف حفظ مكانة الرجال وتكريمهم • وقد جرت العادة على ان ترافق الرجال والدة العريس أو أخته الكبرى ومعها مجموعة من الهدايا للعروس ، أبرزها قطع من الأقمشة المختلفة ومجموعة من العطور والبخور ، بالاضافة الى القهوة والهيل والزنجبيل والسكر والشاى • وتقدم بعد ذلك النقود الى العروس وأمها وأخواتها البنات •

غير ان انتشار التعليم وتغير الظروف الاقتصادية ، ووضع تعاليم الاسلام ، لم يعد باستطاعة الشاب مقابلة الفتـــاة أو رؤيتها كما كان سابقا ، بل يستطيع الراغب فى الزواج أن يحدد شريكة حياته عن طريق الاستعانة بنساء أسرته أو أحد أصدقائه[٨٧] • كذلك فقد طرأ التغير على المهر (السعف) من حيث الكمية والنوعية • فاذا كان السعف ــ منذ قرن ونصف ــ محددا بريالين فرنسيين وشيلة واحدة ، وهى عبارة عن قناع وثوب ، ولم يكن يتضمن ذهبا أو ثيابا ، الا انه فى الوقت الحالى صار ثلاثة آلاف ريال للبكر ، وألفى ريال للثيب تدفع لوالد العروس[٨٨] • علاوة على تجهيز العريس بعض أثاث الزوجية ، ودستة أساور ذهبية وأربعة خواتم ، بالاضافة الى الحلى التقليدية •

الدخلة :

وهى « المراح » فى « بنى كبير » السعودية ، حيث تنتقل العروس الى بيت العريس • وفى نفس ليلة الخطوبة يتم الاتفاق على كل شىء حتى موعد « المراح » بحيث يكون فى يوم الأحد أو يوم الخميس ، وتـــكون ملابس العروس وأثاثها قد أعد من قبل ، ثم يحضر المأذون « الملك »

---

(٨٧) سعيد الغامدى ، مصدر سبقت الاشارة اليه ، ص ٢٤٠ •

(٨٨) د• علياء شكرى ، مرجع سبق التنويه عنه ، ص ١٤٣ •

ويتم عقد النكاح[٨٩] . وكان جهاز العروس عبارة عن ملابسها الخاصة ومجموعة من الألحفة والسجاد و « الهدوم » وهى أبسطة من سعف النخل ، وكيس أو كيسين من الدقيق ومثلها من التمر ، وصفيحة سمن بلدى وبعض الأوانى المنزلية . وكانت الأشياء الصغيرة توضع فى « السحارة » وتحملها الجمال على ظهورها .

غير أن هذه العادات قد اعتراها التغير بعد عام ١٩٦٥ م فى نفس المجتمع ، حيث انتشر التعليم وتأخر سن الزواج للذكور الى العشرين لاكمال تعليمه الثانوى على الأقل . كذلك تواصل الفتاة تعليمها فتأخر سن زواجها الى ١٨ أو ١٩ أو ٢٠ سنة . بالنسبة لتكاليف الزواج فى قرية « العبادل » فليست مشكلة تعوق الشباب الراغب فى الزواج . لأن « السعف » فيها محدود على عكس قرى أخرى يرتفع فيها المهر الى ٥٠ ألف ريال ، بالاضافة الى تكلفة الزواج ، والتى قد تزيد عن هذا المهر كثيرا .

ومن ناحية أخرى صار للشباب دور فى اختيار فتاته . وتدل دراسة سحر الخطيب للمنطقة الشرقية (رأس تنورة بالسعودية) على ان ٦١ ٪ من عمال الصناعة لم يروا زوجاتهم قبل الزواج ، على حين رآها ٣٩ ٪ منهم . أما البدو فلم يكن يسمح لهم بذلك بنسبة ٩٤ ٪ قبل عقد القران. بينما نلاحظ أن نسبة ٦ ٪ فقط هى التى أتيح لها هذه الفرصة . أما الجيل الثانى لعمال الصناعة والبدو فتتضح عليه مؤشرات التغير فى هذا الجانب، حيث يؤيد ٥٩ ٪ من العمال ضرورة رؤية الابن لعروسه قبل الخطوبة ،

(٨٩) لقد وقع ابناء القرية على اتفاقية بالمحكمة الشرعية للعمل بها . ولكنها لم تستمر ومن ثم صار المهر يتراوح مابين عشرة آلاف وعشرين الف ريال ، بالاضافة الى الحلى الذهبية التى تطلبها الأم وابنتها بغير حساب . انظر : د. علياء شكرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٤ .

فى حين أجاب ٣٧ ٪ بعكس ذلك • أما البدو فقد عارضت هذا السلوك بنسبة ٧١ ٪ على أساس أنه حرام وغير متعارف عليه • فى حين أيده ٢٩ ٪ منهم (ومعظمهم من الشباب وممن تلقى قدرا من التعليم) •

كذلك لم تعد مهارة الفتاة فى العمل الزراعى أو الرعوى من ضمن شروط الأسرة فى عروس ابنها[٩٠] • كما بدأ الشباب يميل نحو الزواج من الفتاة المتعلمة • علاوة على أن الفتاة نفسها أصبحت تعترض على زواجها من شخص لا ترغب فى الزواج منه بعد أن كانت لا تقدر على مجرد اعلان رأيها فى العريس •

الوفـــاة :

وهى نهاية كل حى ، وتستلزم الاستعداد لها خاصة عند المسنين . ويبدأ ذلك بتسديد الدين وتصفية العداوة وترديد الشـــهادة ، وكتابة الوصية وتوزيع الميراث • وليست هناك استعداد للغسل أو الكفن أو اعداد القبر • فمعظم هذه الأفعال يقوم بها أى شخص من القرية •

غير أن هذه العادات قد طرأ عليها التغير ، وذلك واضح فى تعيين شخص من أولئك الذين كانوا يغسلون الموتى فى قرية « سبت العلاية » براتب شهرى كى يتولى غسل الموتى من الرجال ، أما موتى الاناث ، فقد عينت امرأة لتتولى غسلهن[٩١] • وقد أدى انتشار التعليم فى القرية ، وزيادة الوعى الدينى ، ووضوح التاليم الدينية الى تخفيف حدة نياح أسرة الميت ، ولم يظهر فى القرية زى معين للحداد ، ولكن يقوم أفراد الأسرة المصابة باهمال مظهرهم ، وعدم الاهتمام بزينتهم • كذلك فقد اختفت عادة اقامة الولائم فى اسبوع الوفاة (الحفارة) ، بل يتعرض من يقيمها الآن للسخرية •

---

(٩٠) سعيد الغامدى ، مصدر سابق ذكره ، ٢٤٢ .

(٩١) سحر الخطيب ، صناعة البترول ، مرجع سابق ، ٢٩٧ .

٢ — التغير والثبات فى الأعياد المرتبطة بدورة العام :

تقتصر الأعياد فى قرية « سبت العلاية » على الأعياد الدينية كالاحتفال بشهر رمضان وعيدى الفطر والأضحى • وكان الاعداد لشهر رمضان يتمثل فى طحن كميات كبيرة من الحبوب على الرحى اليدوية ، وتوفير ما يلزم الأسرة من المأكولات اللذيذة علاوة على التمر والقهوة • ولكن دخول الطاحون والسيارة الى القرية ، لم يعد طحن الحبوب مهما ، حيث يمكن للأسرة طحن ما تريده بأى كمية وفى أى وقت[٩٢] • كذلك ساهم الاتصال بالمدن وانتشار التعليم ودخول الكهرباء فى اعداد وتوفير كميات ضخمة من اللحوم وحفظها فى الثلاجات •

ومن ناحية أخرى كانت القرية تعرف بداية الشهر بمتابعة حجم الهلال وتستخدم طلقات الرصاص لاعلان البداية • ولكن ظهور الراديو وانتشاره ساعد على سرعة معرفة بداية الشهر[٩٣] • وعلى مستوى المجتمع السعودى ككل وفى نفس الوقت •

أما عيد الفطر ، فان عاداته تتمثل فى تهنئة الأسرة للنساء القريبات من البنات والأخوات المتزوجات فى آخر ليلة من رمضان ، مصطحبة معها هدايا ومبلغا من المال والأقمشة والبن والطيب والبخور (العيدية) • وبعد صلاة فجر العيد يتزين الجميع ويلبسون الجديد ، ويتناول المسنون تمرات مع القهوة قبل صلاة العيد • ثم يصلون العيد فى « مسجد العيد » ويتبادلون المعايدة ، ويعودون الى منازلهم لتناول الأكلات الشعبية اللذيذة (المشفوت) •

---

(٩٢) سعيد الغامدى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٩٣) راجع التفاصيل عند د. علياء شكرى ، مصدر سبقت الاشارة اليه، ص ١٥٤ .

الا أن التغير قد طرأ على هـــذه العادات ، حيث لم يعـــد يقدم « المشفوت » لافطار الأسرة ، وانما يكتفى بالخبز والجبن والبيض • وحلت الحلوى والعطور والقهوة والشاى محل المشفوت لتحية المعيدين على الأسرة • ومن عادات احتفال الرجال بالعيد فيما مضى « العرضة الشعبية » فى ســـوق القـــرية ، فى مظهر ينم عن الفرحة وهم يتزينون بالسلاح • بالاضافة الى مباريات تصويب السلاح لضرب « النصع » — وهو الحجر الذى يوضع فى مكان مرتفع — والتهديف عليه بالتناوب • ولكن هذه العادة الأخيرة قد انقرضت نهائيا لحظر الحكومة اســـتخدام السلاح • وظهرت بدائل حديثة — حسب قانون البدائل فى التغير — تحمل بصمات العصر حيث يحتفلون بالعيد بركوب السيارات والذهاب الى الغابات الجميلة ولعب الكرة أو تبادل الزيارات المنزلية •

٣ — التغير والثبات فى الممارسات اليومية للفرد فى المجتمع المحلى الخليجى :

تعد صناعة البترول العامل الأول والأساسى فى التغير الاجتماعى بمجتمعات الخليج العربية • اذ أن تدعيم صـــناعة البترول فى مجتمع منها ، يستلزم توفير الخدمات والخبرات الفنية وايجاد القوى العاملة الماهرة[٩٤] • ومن هنا تم توطين البـــدو ، وادخال المرافق والخـــدمات المختلفة فى معظم الأنحاء ، مما ترتب عليه حدوث تغيرات عديدة على المستوى السلوكى الفردى والجماعى ، وبالتالى تغير فى ممارسات الفرد اليومية فى المجتمع المحلى • فقـــد كانت البنات والنســـاء عموما ترعى الأغنام — فى المجتمع السعودى مثلا — وتقوم بأعمال الزراعة وتقطيع الأخشاب وتجفيفها ، واحضار الحطب الى الدار على رؤوسهن أو على

(٩٤) نفس المصدر ، ص ١٦٢ .

الحمار — لاعداد الطعام والانارة[٩٥] • كذلك كانت المرأة فى « بنى كبير » بالسعودية تشارك فى العمل الزراعى وتنظيف مبيت الحيوان • وتسميد الأرض ، وتجلب الماء من العيون وتحلب البقرة وتخض لبنها ، ثم تبدأ فى اعداد غذاء الأسرة ، وتنظيف آنية الطعام واعداد الشاى والقهوة وغسل الملابس • ثم تنصرف مرة أخرى الى الوادى تحش البرسيم لعشاء البقرة أو الثور • وهى المسئولة كذلك عن جنى الثمار والفواكه • وبعد صلاة المغرب تبدأ المرأة فى اعداد طعام عشاء الأسرة • وفى وقت الفراغ تغزل الصوف أو تنقشه أو تصنعه « جبة » •

الا أن دخول وابور الغاز فى بنى كبير عام ١٩٦٠ م • ودخول الكهرباء قد أحدثا تغيرات جذرية فى الحياة الاجتماعية للسكان • اذ اختلفت أساليب الحياة وانتشر التعليم الحديث واتصل السعوديون بالعالم الخارجى ، وتوافد الى المملكة فئات مختلفة من الناس تحمل كل منها عادات وتقاليد خاصة بها ، مغايرة لثقافة المجتمع السعودى[٩٦] • وقد أدت هذه العوامل الى ايجاد تفاؤل شديد بين هذه العناصر المختلفة فى بوتقة كبيرة ، أنتج ثقافة متغيرة •

ولعل مظاهر التغير تتضح فى التحاق البنات بالمراحل التعليمية المختلفة بعد أن كن يرعين الأغنام ، وصرن جامعيات • كذلك التحق القروى بالتعليم حتى وصل الى الجامعة • وبعد أن كان الطرفان متقوقعين فى المجتمع السعودى وحده صارا يقضيان عطلة الصيف فى سويسرا أو مصر أو لبنان[٩٧] • كذلك صارت الأسرة تشرك أبناءها الذكور والاناث فى

---

(٩٥) اعتمد الباحث كلية على دراسة الدكتورة علياء شكرى لقرية سبت العلاية لتغطية هذا الجانب من الاعياد الشعبية بالسعودية . انظر ص ١٦٥ — ١٦٦ •

(٩٦) سحر الخطيب ، مرجع سالف الذكر ، ص ١٦٥ •

(٩٧) سعيد الغامدى ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ •

مناقشة أمورها الخاصة ، وصار للشاب رأى فى اختيار فتاته وصار للفتاة رأى يعتد به فى اختيار شريكها ٠

أما أطراف جوانب التغير فى الممارسات اليومية فانه يتجلى فى أن البدوى السعودى كان يحذر بناته راعيات الأغنام قبل عام ١٩٥٩ م من الاقتراب من طريق السيارات حتى لا يصبن بمكروه نتيجة للاقتراب ٠ وكانت رائحة عادم السيارات تسبب دوارا شديدا وقيئا للبدو ٠ أما فى الوقت الحالى فقد انتشرت السيارات وخاصة « نصف النقل » حتى صارت أساس حياة الريف والبادية والحضر ٠

ولكن الموقف قد تغير ، فالفتيات يقدن السيارات بدرجة من المهارة، حتى أن أغلبهن اليوم يقمن بهذه العملية باتقان شديد على الرغم من نص قانون المرور بالمملكة على عدم اجازة قيادة المرأة للسيارة مهما كانت جنسيتها ، ولا تمنح للمرأة تصريحا بذلك[٩٨] ٠ وهو اذن تغير حتمى نظرا لسعة البادية ، وبعدها عن نطاق قوانين المرور ، وتوفر السيارات ، وانشغال الرجال ، والحاجة الدائمة الى نقل ماء الشرب ٠

ومن ناحية أخرى فان عمال صناعة البترول فى رأس تنورة السعودية يفضل معظمهم (٣٧ ٪) عمل المرأة كمعلمة فى الدرجة الأولى ، ثم العمل فى الخدمات الاجتماعية ١٧٫٢ ٪ ونسبة ١٤ ٪ فى العمل المنزلى ، ثم العمل اليدوى ٩٫٥ ٪ ٠ وتفضل نسبة ٦ ٪ عمل البنت فى وظائف أخرى كطبيبات[٩٩] ٠ وعلى العكس من ذلك نجد البدو بنفس المنطقة يفضلون عمل المرأة بالزراعة بنسبة ٢٣٫٧ ٪ ، وفى الرعى بنسبة ٢٢٫٥ ٪ و ١١ ٪ فى الأعمال المنزلية و ٩٫٥ ٪ فى الأعمال المدرسية والبدوية ٠

---

(٩٨) سحر الخطيب ، مصدر سابق ، ص ١٦٥ ٠

(٩٩) د٠ علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ٣٩ ٠

كذلك فقد طرأ التغير على طريقة فض المنازعات عرفيا ، اذ تغير القضاء العربى الذى يهيمن عليه التراث الشعبى ، وحل محله القضاء الرسمى حيث الادارة المحلية والشرطة • كما تغيرت السلطة السياسية لشيخ القبيلة ، ولمجلسها ولكبار السن فيها ، وحل محلها الشرطة والامارة والمحكمة ، مما قضى على الدور الذى كانت تمارسه تلك المجالس[١٠٠] •

سادسا — المعتقدات والمعارف الشعبية بين الثبات والتغير :

أكد الدكتور محمد الجوهرى على أن المعتقدات والمعارف الشعبية هى أصعب العناصر الشعبية فى التناول وأشقها فى الدراسة والبحث[١٠١] • ويؤكد الكاتب منذ البداية على أن هذه المعتقدات صارت — ازاء عوامل التحديث والتغير — تتكيف مع الأفكار الغربية الحديثة ، خاصة وأنها ترتبط الى حد كبير بمجالات الحياة التقليدية • فلم تزل الأدوية السحرية فى متناول اليد ، ولم تزل تلقى القبول والاقرار فى أفريقيا وآسيا وغيرها ، وصار السحر يختلط بالسياسة[١٠٢] • أما فى خارج افريقيا فان هذه المعتقدات توجد خارج مجالات الحياة التقليدية ، ومع ذلك فهى كما هى • ولعل لوسائل الاعلام دورا بارزا فى هذا الصدد[١٠٣] • فاذا كنا نعيش فى عصر الحاسبات الآلية والفضاء والذرة ، الا ان الاعتقاد فى التنجيم Astrology فى انجلترا فقد يدل على تزايد عدد المعتقدين فيه ، وعدد الموضوعات الاعتقادية حوله ، ففى انجلترا وحدها ألفا منجم

---

(١٠٠) سعيد الغامدى ، صفحة ١٧٧ .

(١٠١) سحر الخطيب ، صفحات ٣٦٠ — ٣٦١ .

(١٠٢) نفس المرجع ص ٢٠٥ .

(١٠٣) د. محمد الجوهرى ، علم الفلكلور ، ج ١ ، ص ٦٠ .

أما فى نيجـيريا فتـدلل أونا ماكلين(١٠٥) Una Maclean على أن كثيرا من سـكان المدن النيجيرية الكبرى ــ أبدان ولاجوس ــ صاروا مسلمين ومسيحيين ، ومع ذلك فلا يزالون يحتفظون بآثار عقيدة « اليوروبا » الأصلية فى لغة الحياة اليومية ، وتفاصيلها علاوة على أن الآلهة السابقة لم تزل قائمة فى القرى تحظى بالاحترام والتوقـير فى الأعياد العامة ، ويتحاض القرويون فيما بينهم على ضرورة ارضاء هذه الآلهة وتوقيرها .

وسنحاول فى هذه الفقرة استعراض نماذج من المعتقدات والمعارف الشعبية وتوضيح موقعها على خريطة التغير بالتركيز على الطب الشعبى والسحر والكائنات فوق الطبيعية .

١ ــ الطب الشعبى :

وكان يحتل مكانة عالية فى قرى المنطقـة الغربية بالسعودية نظرا لعزلتها وانعدام الخدمات الصحية بها . لذلك جاهد الأهالى ــ فى عراكهم مع المرض ــ فى الوصول الى بعض الممارسات العلاجيـة يعتقدون فى شفائها للمرض .

وتدخل هذه الممارسات الشعبية العلاجية تحت ما يسمى هنـاك « بالطب العربى » الذى يعتمد على علاج المرض على الأعشاب والحمية والكى بالنسبة لأمراض العيون والعظام والأمراض النفسية والعصبية وأمراض الجلد(١٠٦) . أما الأمراض الخطيرة والمعدية « كالكوليرا والجدرى

---

(١٠٥) انظر حول هذا الموضوع المقال التالى .

د. حسن الخولى ، « الاعلام والتراث الشعبى » الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثالث ، مرجع سبقت الاشارة اليه ٢٠١ ــ ٢٢٠ .

(١٠٦) Justav Jahoda : The psychology of superstition. Benguin Books. London. 1970, p. 21.

والحمى الشوكيه وحتى الحصبة ، وما شابه ذلك من الأمراض شديدة الخطر ، فلم يعرف السكان لها علاجا فى الطب العربى ، وأقصى ماكانوا يفعلون هو « عزل المريض » حتى لا تنتقل الاصابة الى الآخرين ، ويشرف عليه أحد أفراد الأسرة فيما يتعلق بالطعام والنظافة •

(أ) أما أمراض العيون :

كالرمد فقد كانوا يعالجونها بالأعشاب حيث تقطر عصارتها فى عين المريض ، وأحيانا يبخر المريض على نوع من الأعشاب يعتقدون أن دخانه يشفى اصابة العين • علاوة على استخدام الكحل • ولم تعرف «بنى كبير» معالجين شعبيين مشهورين سوى خمسة أشخاص كانوا متخصصين فى علاج « ابيضاض سواد العين » باستخدام ورق (الحماط — التين) وتحريكه برفق داخل العين ، ثم يوضع صفار البيض والكحل ثم تعصب العين لمدة اسبوعين • ولا تتجاوز نسبة الشفاء ٢٥ ٪ (١٠٧) • وكان المعالجون لا يتقاضون أجرا • والجدير بالذكر أنه يحظر دخول رجل أو امرأة — تفوح منه رائحة العطر — على المريض ، للاعتقاد بأن الروائح تضاعف المرض ، وخصوصا عندما يكون المرض بسبب جرح أو كسر • أما الآن فقد طرأت عوامل التغير على هذه الممارسات فاختفى معظمها وتغير الباقى ، وصارت حالات المرض تلجأ للمستشفى والمستوصف والطب الرسمى عموما ، مباشرة •

(ب) علاج الكسور :

وكان لعلاجها مجبرون محترفون يعالجونها بدهان الموضع بالسمن البلدى ووضع جبائر خشبية فى ثلاث جهات وتشد بالقماش ، وينصح المريض بالسكون وتناول كميات كبيرة من صفار البيض والسمن البلدى

---

(١٠٧) Una Maclean : Magical medicine, Benguin Books, London, 1971, p. 40.

ونبات الدفاء[١٠٨] ، وعسل النحل أحيانا ، ويستمر الحال مدة تتراوح بين اسبوعين وثلاثة شهور حسب الحالة . ويعوده المجبر مرات عديدة ليدهن مكان الكسر ، ويعيد ربطه ، ولكن هذه الممارسة لم تتغير ولم تتأثر بانتشار المستوصفات والمستشفيات وسائر الخدمات الصحية الحديثة . ومرد رسوخ المعتقد والممارسة ، ازاء عوامل التغير هنا ، راجع الى ثقة سكان المنطقة الغربية بالسعودية فى المجبر أكثر من ثقتهم فى الطبيب . والدليل على ذلك ان أهل المصاب بكسر فى حادث ، لا يوافقون على بقائه فى المستشفى ، فيخرجوه ليعالجه المجبر . ويبدو ان مهــارة التجبير وممارساته ناجحة للغاية ما عدا حالات الكسور فى الظهر أو الجمجمة .

(جـ) علاج الأمراض النفسية والعصبية :

وكان أبناء بنى كبير يسمون هذه الأمراض « بالجنون » ويذهبون لعلاجها عند « الفقيه » أى الساحر الذى يسخر الجن فى العــلاج . ويؤكد الاخباريون على ان أشد ما يضايق الجن هو احضــار قليل من شجر الزقوم ــ المنتشر بالمنطقة الغربية ــ وقليل من فضلات الكلاب ، ثم توضع على فحم مشتعل ويبخر عليها المريض بمعرفة الفقيه .

(د) أمراض الجدرى والكوليرا والحصبة :

لم يكن لهذه الأمراض علاج ، ولذلك كانت الكوليرا تفتك بالناس ، كما لا تزال آثار الجدرى باقية على وجــوه بعضهم . ولكن انتشــار « لقاح الجدرى » والخدمات الصحية الدائمة حدا من خطورتها .

(هـ) علاج اللدغات :

وقد كانت منتشرة فى هذه المنطقة لكثرة العقارب والثعابين والحيات. وكان الأهالى يعمدون الى ربط أعلى العضو الملدوغ لمنــع التسمم من

(١٠٨) سعد الغامدى ، مرجع سابق ، ص ١٩٨٣ .

الانتشار فى الجسم • وتذبح شاة ، ويضع الملدوغ هذا العضو فى كرشتها بروثها ويربط فيها • كذلك تستخدم الحجامة لاستخراج السم من العضو المصاب(١٠٩) •

(و) الكى :

وقد ساد على نطاق واسع فى المجتمعات البدوية — بما فيها بلاد الخليج العربى — لعلاج حالات اضطراب الجهاز الهضمى والصداع والبرد ومس الجن •

خلاصة القول أن تزويد المنطقة الغربية بالسعودية ، ومعظم بلدان الخليج العربية ، بالخدمات الصحية والمستشفيات والمستوصفات والأدوية الحديثة ، كان له كبير الأثر فى تغيير معظم هذه الممارسات الشعبية • ومنذ توافرت التيسيرات الطبية الحديثة للناس ، بدؤوا يلجؤون اليها لعلاج حالات الانفلونزا والروماتيزم والصداع والاضطرابات الهضمية حتى العقم • ومع سهولة المواصلات وشبكة الطرق المرصوفة زاد الاعتماد على الطب الحديث • فقد انحسر الطب الشعبى أمام الطب الحديث ولم يبق منه سوى الخدمة العلاجية (النفسية أو العضوية) التى يعجز الطب الحديث عن تقديمها فى أثناء فحوصه ومعالجاته(١١٠) •

ولذلك توضح دراسة سحر الخطيب أن اتجاهات الأفراد فى المنطقة الشرقية بالسعودية نحو الطب الحديث تزداد عن نظيرها نحو الطب

---

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٨٤ .

(١١٠) وهو نبات يزرع فى سبت العلاية ويشبه الحلبة فى حجمه ، الا انه يميل للاحمرار ، ويعتقد الناس فى قدرته العجيبة على مدد الجسم بقوة زائدة.
راجع د. علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ١٧٧ . وانظر : سعيد الغامدى أيضا ، ص ١٨٥ .

الشعبى • اذ أن ٩١ ٪ من العمال يفضلون اللجوء للطب الحـديث ، والعلاج الرسمى • على حين تصل هذه النسبة عند البدو الى ٥٠ ٪ ونسبة ٢٨ ٪ يفضلون الوصفات الشعبية ، وتصل نسبة من يفضلون وصفات المشايخ الى ٢١ ٪ •

٢ ـ السـحر :

لم تذكر الدراسات المتاحة للكاتب الآن أية تفصيلات عن المعتقدات والمعارف الشعبية المتصلة بالسحر فى بلدان الخليج • ولـكن ورد فى الدراسة الحالية المتاحة اشارات طفيفة للممارسات السحرية العلاجيـة الأكثر التصاقا بالطب الشعبى السحرى • حيث توضح أن الفقيـه (الساحر) فى المنطقة الغربية بالسعودية ، لديه القدرة على استخدام مجموعة من الجن يسيطر عليها • ويحكى الاخباريون ببنى كبير أنهم كانوا يسمعونه وهو يخاطب الجن ويناقشهم ، بل ويؤكدون أنهم كانوا يسمعون حركة الجان وأصواتهم عندما يستحضرهم هذا الفقيه • وأحيانا كان يبعث بنفر منهم ليطارد من يسترق السمع عليه من سكان القرية[١١١] • والغالب على هذه الممارسات الاعتقادية هو استخدامها فى علاج حالات الأمراض النفسية والعصبية التى يسمونها « الجنون » • والملاحظ أيضا ان الفرد فى قرية « سبت العلاية » والذى لا يجد علاجا لمرض وخاصة السحـر ، فانه يلجأ الى احدى القرى المجاورة لطلب العلاج من أحد السحرة نظرا لعدم وجودهم بالقرية[١١٢] • ولعل ما يؤكد ذلك أن علاج

---

(١١١) د. علياء شكرى ، مصدر سبقت الاشارة اليه ، ص ١٧٨ .

(١١٢) حول المواجهة بين الطب الشعبى والطب الحديث فى المجتمعات الافريقية .

الخوف ومس الجن يكون باحراق نبات الشداب على النار . ويوضع تحت المريض فيما يعرف « بالتفويح » وبالتالى لا يكون عند ساحر فى نفس القرية .

وتجدر الاشارة الى أن نشاط المشايخ ينحصر فى الجانب العلاجى — على ما يبدو من الدراسات المتاحة — ولذلك نجد أن نسبة الوصفات العلاجية التى يقررها هؤلاء المشايخ لبدو المنطقة الشرقية بالسعودية تبلغ ٢١ ٪ مقابل ٥٠ ٪ للوصفات الطبية الحديثة ، و ٢٩ ٪ للوصفات الطبية الشعبية(١١٣) .

غير أن هذه الممارسات والمعتقدات السحرية لابد وأن تتعرض للتغير سواء فى الشكل أو فى المضمون مع المدى البعيد وتحت عوامل التغير العنيف فى مجتمعات الخليج . ولا نستطيع المجازفة بأحكام مسبقة الا بعد اجراء دراسات عديدة على المناطق الثقافية المختلفة لامكانية الوصول الى أحكام أو تعميمات حول نتائج التغير وآثاره فى مجال المعتقدات السحرية بالتحديد .

٣ — الكائنات فوق الطبيعية :

يعتقد أبناء قرية سبت العلاية أن هذه الكائنات تعيش فترة ثم تموت ، وأن منها الصالحون ومنها ما دون ذلك . ولكنهم يعتقدون عموما

انظر :

— على المكاوى ، الطب السحرى ... دراسة وتحليل نقدى منشورة بالكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الرابع ، ١٩٨٣ ، صفحات ٤٧٢ — ٤٨٣ .

(١١٣) سحر الخطيب ، مرجع سابق ، ص ٣٦٣ ، وان كان الكاتب يتحفظ هنا على نتائج الدراسة الكمية للمعتقدات الشعبية ، ومع ذلك فهى المتاحة الآن لحين اجراء دراسات أخرى كيفية تراعى طبيعة المعتقد التى وردت فى الفقرة ثالثا فى هذه الدراسة الحالية . وقد سبق التنويه عن ذلك .

والمعارف الشعبية • وما يترتب على هـذا التدعيم من تخليق عناصر جديدة •

ومما تقـدم فى الفقـرات السـابقة ، نرى أن انتشـار التعليم والاتجاهات العقلية الرشيدة وارتفاع مستوى المعيشـه بمجتمعـات الخليج العربية ، سوف تؤدى الى انزواء الكثـير من عنـاصر التراث الشعبى • مثلما لاحظنا آنفا انحسار بعض العادات المتعلقة بالزواج والاحتفال بالأعياد الدينية الدورية فى المنطقة الغربية بالسعودية • كذلك نجد انحسار معظم ممارسات الطب الشعبى • بحيث لم يبق منها صامدا فى مواجهة الطب الرسمى الا ممارسة « تجبير العظام » ••• ولكن هذه الممارسة سوف تنتهى مع دائرة التراث من الجيل المسن حاليا والذى يحملها ، ويوليها اعتقاده •

ان التعليم بمثابة حرب شاملة لتغيير العادات والمعتقدات والمعارف الشـعبية بمجتمعات الخليج العربى ، يؤازره التحولات الاقتصـادية والاجتماعية التى شهدتها المنطقة بعد ظهور صناعة البترول • كذلك فان تحسن الأوضاع الطبقية سوف يتيح لكل من الرجال والمرأة فرص التعليم والعمل ، والعلاج الطبى الحـديث ، والارتفاع بمسـتوى التنشـئة الاجتماعية فى الأسرة • ويسهم كل هذا فى خلق جيل واع ومتحرر من أسر هذه المعتقدات والعادات الشعبية التى تعوق حركته •

لقد بدأت ملامح هذا الجيل الواعى الجديد فى الظهور بمجتمعات الخليج العربى ، بما نلمسه من انتشار التعليم واتساع دائرة الاتصال والانفتاح على العالم الخـارجى ، وزيادة الطرق المعبـدة ، والبرق والهاتف ، والاعلام ، والادارة المحلية والشرطة ، وبما يتوفر للمجتمع الخليجى من سلع وحاجات ، ووسائل الانتقال وتكنولوجيـا العصر ، والأخذ ببعض الصناعات • وهي بلا شك سوف تدعم التغير فى عناصر

التراث الشعبى ، وتعمل على زوال بعض عناصره ، وتوجد عناصر جديدة بديلة وتطور بعضها الآخر ، وهكذا طبقا لقانونى تغير التراث الشعبى .

أن أى مجتمع يكون فى حاجة ماسة الى تراث مشترك يستمد منه قوته ، خاصة فى مواجهة الأزمات التى تهدد وجوده ، كذلك يحتاج كل تراث الى مجتمع يحافظ عليه ويرعاه ، وتقوم على رعاية كل تراث « دائرة تراث » Tradition Circle معينة وهى مجموعة الأشخاص الذين يحملون هذا التراث ويتداولونه ، آخذين اياه عن جيل سابق ، موصيلنه الى جيل لاحق .

والتراث الشعبى هنا ازاء عمليات التغير يكون باعثا على الوعى بالهوية والارتباط بالمجتمع المحلى ، وليس هذا بغريب علينا . اذ أن القوميات الألمانية والايطالية كان التراث هو نجاح قيامها ومحركها الأساسى . وفى مجتمعات الخليج العربى نقول أن الصناعة — وصناعة البترول بالتحديد — قد أحدثت عدة تغيرات فى العادات والتقاليد والمعارف الشعبية بالكويت ، والعراق والسعودية والامارات وقطر ... الخ . ولعل الموروثات والتقاليد المرتبطة بالحياة الاجتماعية والمهنية لأبناء الخليج تمثل ابداعات الفكر والتراث لهذه المنطقة . ولكن شراسة التغير جعلت هذه الموروثات تتراجع ، ومنها « المبارزة » التى ما يزال صداها ذا رنين واضح وأثرها ملموسا فى ذاكرة ونفوس أبناء المجتمع العربى الخليجى ، وهى ممارسات تتعلق بالمهنة الرئيسية التى كان يمتهنها معظم أبناء الخليج العربى وهى مهنة الغوص والبحث عن اللؤلؤ والمرجان والأصداف والمجوهرات فى قاع البحر[١١٥] . وهنا أحدث صناعة البترول انقلابا فى الموازين المعاشية والاجتماعية فى هذه

---

(١١٥) د. علياء شكرى ، مصدر سابق ، ص ١٧٩ .

المنطقة ، والغى العديد من المهن الرئيسية التقليدية والتى لم يبق منها سوى الذكرى المعذبة فى نفوس المسنين • أما بالنسبة للجيل المحدث فان الغوص ورحلات العذاب والشقاء وتحمل المخاطر والمجازفات فى البحر ، والتى كان الآباء يتحملونها ، قد صارت مجرد حكايات ترويها الجدات على مسامع احفادهن وكأنها واحدة من الحكايات الخرافية •

أقول ان اختفاء هذه المهن وتغيرها ، وحلول الصناعة ومهن ذوى الياقات البيضاء محلها ، قد عمل على انحسار الأغانى والمواويل والأشعار والأهازيج والرقصات الشعبية التى تصور عملية الغوص فى أعماق البحر • فاختفت عمليات (اوشار) أى انزال السفينة لأول مرة فى البحر ، وعمليات (الدشة) أو (الركبة) أى الاعداد للابحار ، و (السيرار) أى التجديف و (البريخة) وهى سحب المرساة من قاع البحر ورفعها الى ظهر السفينة ••• الخ • ومن هنا نقول أيضا بأن مستقبل الصناعة فى هذه المجتمعات ينبىء عن هزات عنيفة للعادات والمعتقدات الشعبية ، ويساعدها على هذه الهزات عوامل معجلة Acceleating Factors كازدهار التعليم وانتشار الخدمات والمرافق الصحية والادارية والاتصالية والتعليمية وغيرها •

ان معظم مجتمعات الخليج العربى تشهد هجرات وحراكا جغرافيا ومهنيا واقتصاديا • اذ الملاحظ أن البدو قد هجروا النشاط الرعوى ، وهجر الفلاحون الزراعة ، ولجؤوا الى العمل الحكومى بالمرافق والخدمات ، كما التحقوا أيضا بالعمل بصناعات البترول ، فتقلص النشاط الرعوى والزراعى وتقلصت معها عناصر التراث الشعبى المرتبط بهذه الأنشطة • علاوة على أن الهجرات الوافدة من القبائل والقرى والبوادى بمعظم مجتمعات الخليج الى المدن الصناعية الجديدة • قد جعلت الوافدين المهاجرين أغلبية تحاصر أبناء المجتمع الأصلى الصناعى

وتجعلهم أقلية بينهم • مما يترتب عليه حدوث تشوه كامل فى التراث الشعبى السائد . طمس معظم الممارسات الشعبية وأزالها • ففى المجتمع السعودى أدت التحركات السكانية البدوية والريفية الى المنطقة الشرقية الصناعية الى انصهار هاتين الثقافتين (الوافدة والأصلية) فى بوتقة واحدة نتج عنها أشكال ثقافية مهجنة أو أشكال جديدة تماما تحت ضغوط ظروف الحياة الجديدة •

خلاصة القول اذن أن مجتمعات الخليج العربية تشهد تغيرا عنيفا فى تراثهـــا الشعبى ، وتفقد عنـــاصر كثيرة منه بمرور الوقت وهـــذا يستدعى تسجيل التراث وتدوينه أولا ، ثم دراسته وتحليله ثانيا • لكن المشكلة الأكبر — والتى يراها الكاتب وشيكة التضخم — هى ان الهوية العربية الخليجية تفقد بعض مقوماتها ومعالمها شيئا فشيئا تحت وطأة التغيرات الاجتماعية والثقافية ، وقد نجد على مدى قريب جدا هوية جديدة مهجنة ، وثقافة مغايرة مختلطة تختلف تمام الاختلاف عن الثقافة الخليجية التى كانت سائدة خلال النصف الأول من القرن العشرين ، قبل أن تعصف بها رياح التغير العاتية على مدى النصف الثانى منه •

* * *

---

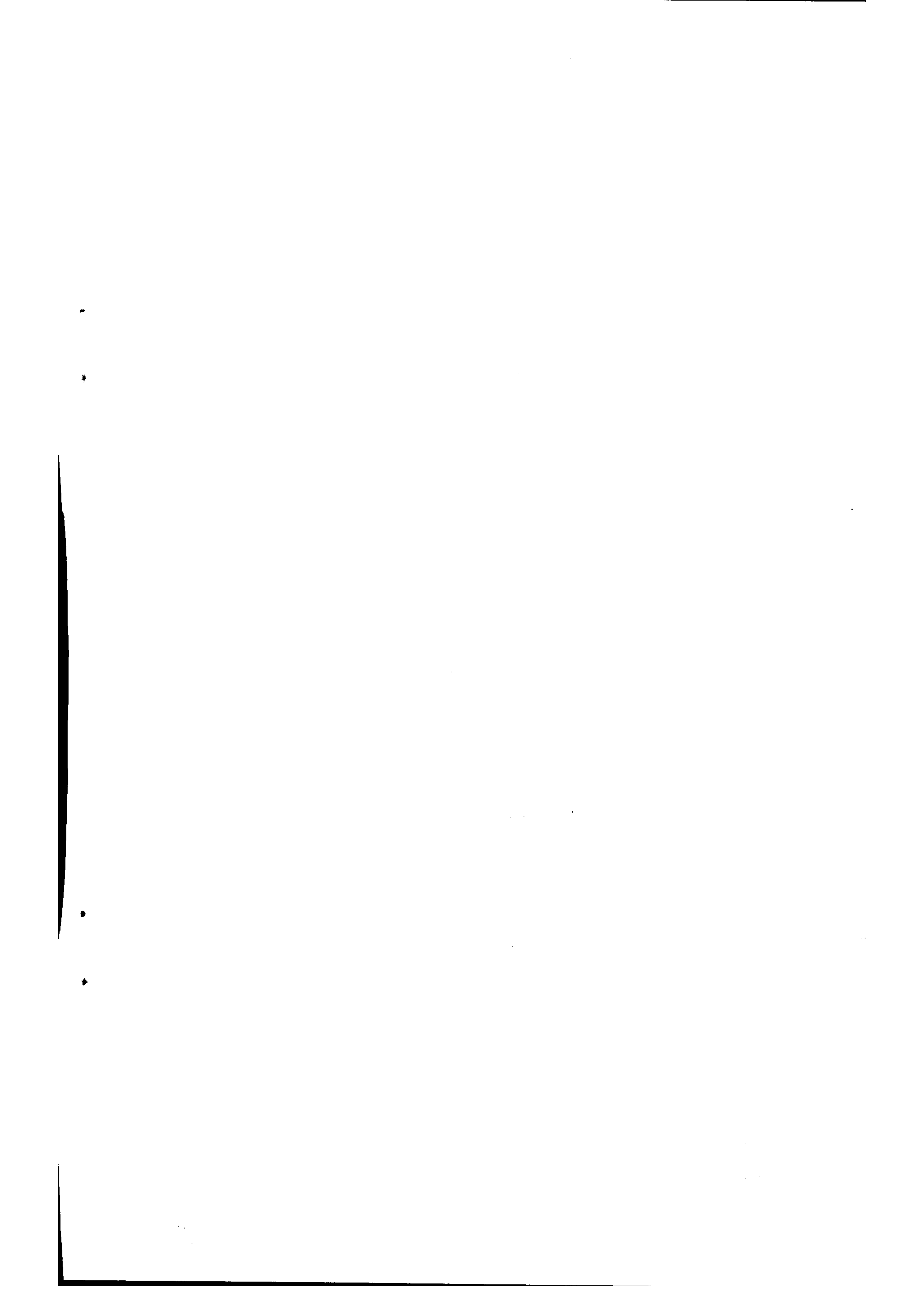
(١١٦) انظر التفاصيل عنـــد سحر الخطيب ، مرجع ســـبق ذكره ، ص ٣٦٣ .

(١١٧) د. علياء شكرى ، مرجع سبق التنويه اليه ، ص ١٧٤ .

(١١٨) عادل العرداوى ، لمحات فى اغانى ورقصات الصيد الخليجية ، مقال بمجلة التراث الشعبى العراقية ، ع ٧ ، السنة التاسعة ، ١٧٨ بغداد . ص ١٢٥ .

الفصل الثامن

الثبـــات والتغــير
فى ثقافة المجتمــع القطرى



الفصل الثامن

الثبـــات والتغـير

فى ثقافة المجتمـع القطرى

مقـــدمة :

نحاول فى هذا الفصل استكمال توضـيح دور الأنثروبولوجيـا الثقافية فى دراسة الثقافة بعد أن تعرفنا على نماذج من الدراســات المناظرة فى المجتمع الجزائرى ، والمجتمع المصرى ، والمجتمع الخليجى بشكل عام • ويتضح هذا الدور من خلال عرضنا لاحـدى الدراسات الانثروبولوجيــة لثقافة المجتمع القطرى ، أجرتها باحثــة من أبناء هذا المجتمع وتلك الثقافة ، ونالت بها درجة الماجستير من قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة بجمهورية مصر العربية[1] •

تقع هذه الدراسة فى ثلاثمائة واثنتين وثلاثين صفحة ، علاوة على الملاحق والمراجع والصور التوضيحية العديدة • وتحـوى الدراســة مقدمة وبابين يضمان ستة فصول ، سنشير اليها بعد قليل • وفى المقدمة تشرح الباحثة موضــوعها وظروفه ولماذا اختارته وطبيعــة الســياق التاريخى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى والسياسى فيما قبل التغير وفيما بعده • وسوف نقدم عرضا وافيا لهذه الدراسة خلال الصفحات القادمة •

---

(١) وســـام أحمد خطاب العثمانى ، الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة : دراسة انثروبولوجية فى المجتمع القطرى ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٩ .

والواقع أن المجتمعات الخليجية تمر منذ الخمسينيات بتغيرات وتحولات جذرية مست جوهر بنائها الاجتماعى ، مما جعلها مجالا خصبا للدراسة والبحث • وقد ساعد على ذلك أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية كانت قبل الخمسينيات ثابتة نسبيا ، ثم بدأ التغير يعصف بها عقب اكتشاف البترول فى أواخر الأربعينيات ، وأوائل الخمسينيات حيث صدرت أول شحنة من النفط مما زاد من معدلات التغير ، وأغرى باجراء المزيد من الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية على مجتمع الخليج كله •

لقد أدى ذلك الوضع الجديد الى تغير اجتماعى اقتصادى فى بنية المجتمع القطرى — شأنه شأن المجتمعات الخليجية الأخرى — فقد أدى اكتشاف البترول وتصديره الى اتساع رقعة مدينة الدوحة فاتجهت لتأخذ شكل المدينة الحديثة ، بعد أن كانت شبه قبيلة فى بنائها الاجتماعى والاقتصادى والعمرانى ، وتغيرت العادات والثقافة بفعل هذه العوامل ، اضافة الى تأثير الهجرة الوافدة • ولذلك تركز السكان فى مدينة الدوحة بنسبة ٨٠ ٪ ، وتركزت المرافق والخدمات والمؤسسات السياسية والاقتصادية والتعليمية والحكومية المختلفة • فاختارت الباحثة تلك المدينة مجالا لاجراء دراستها •

والواقع أن **البترول** ترتب عليه زيادة الدخل ، فزادت موارد الدولة والدخل الفردى ، مما انعكس على نمط المعيشة والحياة الاجتماعية• كذلك ساعد **التعليم** على زيادة معدلات التحضر واكتساب الثقافة الحضرية لدى البدو الذين استوطنوا مدينة الدوحة أو بالقرب منها ، وترددوا عليها للتعليم أو للخدمات أو للمصالح الادارية الحكومية • وقد أدى هذا التغير الاقتصادى السريع الى تغير مناظر فى الثقافة المادية ، على حين ظل تغير الثقافة الروحية — اللامادية — بطيئا للغاية •

والحقيقة أن علم الأنثروبولوجيا يستطيع أن يشخص المعـوقات الاجتماعية والثقافية المختلفة • التى تعوق التغير الاجتماعى والثقافى ، ومن خلال المنهج الأنثروبولوجى أيضا يمكن الكشف عن هذه المعوقات وتحديدها وهذا ما يحتاجه المجتمع القطرى الآن •

١ — أهداف البحث[٢] :

١ — وصف وتحليل الملائح الاجتماعية الأسـاسية المميزة لدورة حياة الفرد فى المجتمع القطرى التقليدى (قبل البترول) والحـديث (بعد اكتشاف البترول) •

٢ — التعرف على العادات الاجتماعية السائدة فى المجتمع القطرى، وتأثير التغير الاجتماعى والاقتصـادى على الثقـافة بشقيها المـادى واللامادى •

٣ — كشف وتحليل العوامل المسببة والمؤدية للتغير ، مع توضيح تأثير كل منها على دورة حياة الفرد •

٤ — حفظ وتدوين الملامح الرئيسية لعادات دورة الحياة فى المجتمع القطرى حفاظا على تراثه من الضياع •

٥ — اثارة الاهتمام بدراسة الثقافة الشعبية لترشيد العـادات والسلوك لصالح المجتمع القطرى •

٢ — فروض البحث :

١ — أدى اكتشاف البترول فى قطر الى تغيير عادات وتقاليد دورة الحياة فيها •

٢ — أدى انتشار واتساع رقعة التعليم الى تحديث بعض العادات المرتبطة بعادات دورة الحياة •

---

(٢) المرجع السابق ، صص ٣ — ٤ .

٣ ــ أدت الهجرة الوافدة الى قطر الى تغيير ملموس وواضح فى عادات دورة الحياة •

٤ ــ أدى ازدياد معــدل التحضر فى قطــر الى تخلى الناس عن عادات وتقاليد كثيرة كانت متبعة قبل اكتشاف البترول •

٥ ــ أدى ازدياد دخل الفرد الواضح خلال ربع القرن الماضى الى تغييرات اجتماعية ملموسة فى البناء الاجتماعى للأسرة القطرية ، مما انعكس بدوره على عادات دورة الحياة •

٣ ــ مناهج وأدوات البحث :

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخى ــ بمعطياته التاريخية ــ فى المقارنة بين عادات دورة الحيــاة فى المجتمع القطرى قبــل البترول وبعده • مما يكشف عن معدلات التغير الاجتماعى الشامل فى بناء المجتمع ونظمه ، فالمعطيات التاريخية تقدم وصفا للظاهرة فى مرحلة معينــة ، وتحولها فى مرحلة أخرى •

واعتمدت الدراســة كذلك على المنهج الأنثروبولوجى الذى يتيح للباحث فهما أعمق للمجتمع ، والماما أشمل بمكوناته ونظمه ، علاوة على كفاءة جمع المادة الاثنوجرافية من الميــدان • ومن أهم أدوات هــذا المنهج[٣] :

١ ــ الملاحظة بالمشــاركة التى تتطلب مشــاركة الباحث لمجتمع الدراسة فى كل أوجه النشاط والسلوك فى الحياة الاجتماعية ، كمــا تساعد هذه الأداة على تأكيد المعلومة التى يقدمها الاخباريون • ولعــل انتماء الباحثة الى المجتمع القطرى أتاح لها فرصة المشاركة الفعليــة فى الأنشطة اليومية ، علاوة على المناسبات الاجتماعية المختلفة كالميلاد

---

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٥ .

والزواج والعزاء • وبحكم كونها أنثى فهى الأقدر — من الرجل — فى ارتيـاد هذا المجال الذى يغلب فيـه دور النساء ، سـواء فى الولادة والاحتفال بالمولود أو فى الاعداد للخطوبة والزواج ••• الخ •

٢ — المقابلة المتعمقة وهى احدى الأدوات التى استخدمتها الدراسة الميدانية للوقوف على حقيقة التراث القطرى ، والتعرف على تفاصـيل دورة الحياة ، وفهم وادراك ما تغير منها وما ظل بعيدا عن التغير •

٣ — الاخباريون والمرشدون وهم من السـيدات المسنات ذوات الخبرة بأمور الزواج والولادة • وسيدات مطلقات ، ومتزوجات بعد طلاق — وسيدات متزوجات وليس لهن أطفال ، وسـيدات متزوجات ولهن أطفال ، وسيدات محدثات (بين ٢٥ — ٣٠ سنة) من مستويات تعليمية وطبقية مختلفة •

٤ — دليل العمل الميدانى الخاص بالعادات والتقاليد •

٥ — أدوات التسجيل الصوتى والتصوير الفوتوغرافى •

٤ — محتويات الدراسة[٤] :

تقع الدراسة فى ٣٣٢ صفحة تحوى مقدمة وبابين • أما المقـدمة فتشير الى موضوع البحث وأهميته وفروضه والمنهج المستخدم فيه ، كما تتضمن عرضا سريعا لبعض الدراسات السابقة فى هذا المجال •

أما الباب الأول فهو يعالج « الاطار النظرى والمعرفى لموضـوع عادات دورة الحياة » من خلال فصلين ، يدور **أولهما** حول « الثقـافة والبناء الاجتماعى » ويحتوى على تعريف الثقافة ويشير الى أهميتها وعناصرها ، وتعريف البناء الاجتماعى ومكوناته والعلاقة المتبادلة بينهما (الثقافة والبناء الاجتماعى) • على حين يتصدى الفصل الثانى لموضوع

---

(٤) وسـام العثمانى ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

« العادات الاجتماعية : رؤية أنثروبولوجية » حيث يوضــح طبيعتها ويصنفها حسب استمراريتها وأهميتها فى المجتمع ، مع الاشـــارة الى أهم العادات الاجتماعية التى يمكن دراستها بالتركيز على عادات دورة الحياة ، ومراحلها •

ويتصدى الباب الثانى لـــ «الدراسة الميدانية لعادات دورة الحياة»، وذلك عن أربعة فصول • أما الفصـــل الأول منها (الثالث) فيختص بتقديم « خلفية تاريخية وجغرافيـــة وديموجرافية للمجتمع القطرى » وشرح للظروف المختلفة التى ساعدت على ظهور العادات والتقاليـــد الحالية ، وفهم ما كان منها قائما فى الفترات التاريخية السابقة • ويعالج الفصل الرابع « الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة المتعلقة بالميلاد »، وذلك من خلال عرض العديد من التفاصيل بدءا من مرحلة ما قبل الحمل حتى مرحلة المراهقة ، مع توضيح أهم جوانب الثبات والتغير فى هذه العـــادات •

ويتناول الفصل الخامس « الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة المرتبطة بالزواج » حيث أوضحت الدراسة أهم العادات والتقاليد المتبعة فى الزواج فى المجتمع القطرى قديما وحديثا (ماقبل التغير ومابعده) ، وتحديد أهم العوامل الفاعلة فى احداث التغير • ويناقش الفصل السادس « الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة المرتبطة بالموت » ، وذلك من خلال عرض الكثير من التفاصيل حول الثبات والتغير ، وأهم العوامل الفاعلة فى كليهما ، وسوف نعرضها بالتفصيل فيما يلى •

أولا : ملامح الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة المرتبطة بالميلاد فى المجتمع القطرى :

لم تكن المرأة القطرية تعرف فى الماضى طرقا مفيدة ولامضمونة لمنع الحمل ، نظرا لغلبة الطرق والوصفات الشعبية المستخدمة قديما ، وذلك

لعدم انتشار التعليم بالنسبة للمرأة ، وندرة الخدمات الصحية الرسمية . بالاضافة الى أن نجاح الرضاعة كمانع للحمل لاتعتبر مقصودة لهذا الغرض ، لأن رضاعة الطفل هى المصدر الأساس لتغذيته حينئذ ، حيث لم يكن يتواجد اللبن المجفف أو غيره من الأغذية البديلة والمتوافرة فى هذه الأيام كغذاء للطفل(٥) .

كذلك كان استخدام طرق منع الحمل عيبا عند المرأة لحب المجتمع لكثرة الانجاب ، وندرة السكان ، والنظرة للأولاد كذخيرة لبناء المستقبل ، واعتبار الانجاب مؤشرا لاثبات الرجولة لدى الرجل . وقد تغيرت هذه القيم الآن وتغيرت العادات المرتبطة بها بفعل عوامل تعليم المرأة ، وعمالتها بجانب الرجل ، وتفرغها لأمور بيتها وعملها وتربية أولادها . وزيادة وعيها بالحفاظ على صحتها بتقليل الحمل . كذلك لعبت زيادة الخدمات الصحية وتوافرها ، واستخدام الوسائل الفعالة لتنظيم الأسرة ، دورها فى تقبل المرأة لها . وكذلك أدى تعليم الرجل ، وثقته بالطب الحديث ، ووفرة الخدمات الصحية الرسمية ووعيه وقناعته بخطأ كثرة الانجاب ... الخ ، كل ذلك أدى الى تغير نظرته الى الانجاب الكثيرة ، وقيمة العزوة ، ومعنى اثبات الرجولة .

كذلك بالنسبة للعقم فقد سادت العديد من الوسائل والأساليب الشعبية القديمة مثل قيام الداية بعمل « قبابة » للمرأة العقيم ، لتعديل وضع الرحم وشرب البابونة المغلى مع السكر والماء كل صباح ، وتناول الشرج والخروع ، ومسح ظهر العاقر بلبن ثدى امرأة حديثة الولادة ، والاغتسال بماء غسل الميت ، واللجوء الى المطوع للقراءة على العاقر أو عمل الأحجبة لها . تغيرت هذه العادات والممارسات الطبية الشعبية

---

(٥) وسام العثمانى ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

وحل محلها استخدام الطرق والأساليب الطبية كالكشف والفحص الطبى والتحاليل الطبية الحديثة • ويصدق ذلك على النساء والرجال عموما ، وان كان البعض من النساء يلجأن الى هذه الوصفات والأساليب الشعبية حينما ييأسن من العلاج الحديث • والانجاب كان عظيم الأهمية فى المجتمع القطرى الذى يعتمد على الغوص ويتعرض رجاله للموت فى أية لحظة ، لذلك لابديل عن زيادة الانجاب لتعوض الفاقد بالوفاة وخطر الغوص[٦] •

١ — احتياطات وتجهيزات الحامل :

لم يكن المجتمع القطرى يضع قيودا أو احتياطات على المرأة أثناء الحمل ، بل كانت تقوم بكل الأعمال المنزلية المعتادة ، وقد تمنع من الجرى بسرعة أو حمل الأشياء الثقيلة • وتشارك فى جميع المناسبات ، عدا الدخول على الميت للاعتقاد بأن رائحة نبات الكافور — الموضوع بكفن الميت — قد يؤثر على الجنين ويسبب السقط • أما فى الوقت الحاضر فهناك بعض القيود كمنع لبس الكعب العالى ، وتجنب صعود الدرج بالأدوار العليا ، وعدم حمل الأشياء الثقيلة ، وعدم التقلب على الجانبين أثناء النوم بشكل مباشر ، ولاتقوم بالأعمال المنزلية علاوة على عدم تعريضها للمضايقات والتوترات العصبية[٧] •

لاشك اذن فى أن الظروف الاقتصادية الجديدة بعد البترول ساعدت على ارتفاع مستوى الدخل الفردى والقومى ، مما يسر الحصول على خادم أو أكثر للقيام بالخدمة المنزلية وأعمال البيت • وبالتالى راحة المرأة بصفة عامة ، والحامل بصفة الخصوص • بالاضافة الى أن التعليم ساعد على اهتمام المرأة بصحتها وتجنبها متاعب فترة الحمل ، واللجوء الى الخدمات الصحية الرسمية •

---

(٦) وسام العثمانى ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
(٧) نفس المرجع السابق ، ص‌ص ١٠٤ — ١٠٥ .

٢ — تجهيزات الولادة :

وهى عبارة عن تجهيزات الحامل لنفسها ولوليدها • أما تجهيزاتها لنفسها فهى المأكولات والملابس ومنها « الزنجبيــل » و « حبة حمراء » و « الدهن » والبيض والدجاج البــلدى والسكر « والدارســين » • أما التجهيزات الخاصة بالوليد • فهى المأكولات « كالسنود » (الينسون) ، و « مرة » ، و « الدبس » ، والمــلابس ، « كالحماد » و « القمــاط » والمنز (سرير المولود) ، و « الغسل » بديل البودرة الآن •

أما فى الوقت الحاضر فتقوم الأم قبل ولادتها بتجهيز حقيبة خاصه بها وأخرى للطفل وتأخذهما معها الى المستشفى ، وهما يحويان الملابس الخاصة بالمرأة ، « الشراشف » و « البطانيات » وفناجين الشاى والقهوة والتليفزيون وسجادة توضع فى أرضية الحجرة بالمستشفى ، اضافة الى « الزمزميــات » (الترامس) ملابس الطفل و « القمــاط » والحليب الخاص به[٨] •

٣ — مكان الولادة وكيفيتها :

كانت الحامل تلد عادة فى بيت أهلها وخاصة بالنسبة للولادة الأولى• وهى تذهب اليه قبل الولادة بمدة كافية • أماالولادات اللاحقة فلاداعى لذلك ، لأنها خبرت الولادة ومارست تجاربها ، علاوة على وجود أطفال آخرين تجب رعايتهم[٩] • وتظل المرأة فى بيت عائلتهـــا — فى الولادة

---

(٨) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٩) نفس المرجع ، ص ١١١ . راجع تفســير هذه الظاهرة فى المرجع التالى :

د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، صص ١١١ — ١١٢ وصص ٩٣ — ٩٤ .

الأولى — الى انتهاء فترة النفاس وهى ٤٠ يوما • وكانت تلد فيما سبق وهى جالســة على رجليها وتحتها صرة من الرماد أو الرمال للجلوس عليها ، وأمامها حبل معلق يتدلى من سقف الحجرة ، أو عامود مثبت فى حفرة وسط الحجرة لتمسك به عند حضور الطلق • وتساعدها الداية فى الوضع ، مع تلاوة بعض سور القرآن الكريم مثل « الزلزلة » و « مريم » و « المعوذتين » ، أو تتلى « آية الكرسى » •

أما الآن فان الحامل تلد فى المستشفى ، حيث تبقى بها مدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم تخرج منها الى بيت أمها أو بيتها الخاص • كما أنها تلد فى سرير طبى خاص ويتولى الأطباء والمرضات كل أعمال ومسئوليات الولادة ورعاية الطفل ولايلجأ للداية الا ندرة من الناس لايزالون يفضلون المنزل كمكان للولادة[١٠] •

٤ — الخلاص والحبل السرى :

ان كان المولود ذكرا تخلصت الأسرة من الحبل السرى بدفنه تحت باب المسجد اعتقــادا بأن الطفل سوف يتردد على المســجد ويكون من المتدينين • وان كانت أنثى فان حبلها السرى يدفن تحت باب المطبخ ، للاعتقاد بأن ذلك سيجعلها طاهيــة ماهرة وربة بيت ممتازة • والسبب وراء ذلك هو الاعتقاد بأنه حيثما يرمى « السر » ، فان صاحبه سيتردد على مكانه ، ولهذا يسود المثــل الشعبى « سرك مدفون هناك » ويقال للشخص الذى أحب أن يتردد على مكان معين ، سواء كان ذلك فى بلده أو فى بلد آخر ، وكما يوضع السكين والملح تحت وسادة الطفل لطرد الجن الذى يحاول ابدال الطفل بطفل جنى حسب الاعتقاد[١١] •

---

(١٠) راجع سعيد الغامدى ، التراث الشعبى فى القرية والمدينة ، دار القلم ، جده ، ١٩٨٥ ، صص ١٦٢ — ١٦٣ •

(١١) راجع محمد طالب الدويك ، الاغنية الشعبية فى قطر ، ج ١ ، سلســلة التراث الشعبى القطــرى ، وزارة الاعلام ، قطــر ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٦ •

ثانيا : ملامح الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة المتعلقة بالزواج :

لم يكن المجتمع القطرى يتيح فيما قبل أية حرية للفتى أو للفتاة فى اختيار شريك الحياة ، حيث يقوم الأهل عادة بهذا الاختيار حسب مواصفاتهم وتفضيلاتهم • ومن المعتاد أن يعرف الشاب موعد زواجه عن طريق أهله ، أما البنت فلا تعلم بزواجها الا فى نفس يوم الزفاف غالبا • ولم يكن يسمح للفتى بلقاء الفتاة أو رؤيتها أو مراسلتها[١٢] فى ظروف غلبت فيها الأمية والفقر •

أما الآن فقد طرأ التغير الى حد كبير ، فتوفرت الحرية للفتى فى اختيار شريكة حياته عدا بعض حالات أبناء العمومة ، أو أن تكون العروس « موهوبة » — مخطوبة له منذ ولادته — وقد تنشأ علاقة الحب بين أبناء العائلة الواحدة وتستمر لتتوج بالزواج • ولعل التغير الاجتماعى والثقافى الواقع الآن جعل من الوسائل الحديثة مايتيح الفرصة للقاء الفتى بالفتاة مباشرة • ومن ذلك الأسواق العامة ، أو الحدائق العامة أو حفلات الزواج أو الهاتف[١٣] حيث يناوله اياها فى أحد هذه الأماكن ، أو يرسله لها مع أخواته أو قريباته ••• الخ •

ان الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى كان يمر بها المجتمع القطرى — قبل اكتشاف البترول — جعلت الأب يضحى بابنته فى سن مبكرة

---

(١٢) وسام العثمانى ، مرجع سابق الذكر ، صص ١٧٥ — ١٧٦ .

(١٣) أشرنا فى دراسة لنا عن دور الهاتف فى تدعيم التراث الشعبى والعلاقات الاجتماعية ، والآن يتضح دوره مرة اخرى فى الاختيار للزواج باستخدام التكنولوجيا ، انظر :

د. على المكاوى ، ظاهرة الكتابة على العملة الورقية : دراسة وثائقية وميدانية ، مكتبة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩١ .

للحصول على مهرها ، وليتخلص من مسئوليتها وعبئها ، حيث ان بقاءها بالمنزل يشكل عبئا ماليا ونفسيا عليــه • وقد لعبت العصبية القبلية ، والمصالح المشتركة،دورهما فى اغماط المرأة حقهافى الاختيار والاستقلالية• وفى الوقت الراهن لعب الاتصال الثقافى بين المجتمع القطرى والمجتمعات العربية الأخرى كمصر ، ودخول الجاليات العربية والأجنبية هذا المجتمع وتأثيرها فيه وتأثرها به ، وانتشار التعليم ••• الخ ، لعب كل ذلك دوره فى وجود قدر من الحرية للفتيات القطريات فى اختيار شريك حياتهن ، بعد أن أعطاهن التعليم مكانة عالية وزادهن قوة واستقلالية فى الشخصية، وأتاحت الظروف الجديدة لهن قدرا من السلطة فى اتخاذ القرار بالزواج والاختيــار[١٤] • كذلك أدى الاتصـــال الثقافى الى استعارة بعض المصطلحات ــ من مصر ــ وتبنيها ، مثل « الزواج » بدلا من « العرس » ، ومصطلح « الشبكة » التى لم تكن مألوفة فيما قبله •

١ ــ سن الزواج :

كان الرجال يتزوجون فى الماضى مابين سن ١٥ ــ ٢٠ سنة أما البنات فكان زواجهن يتم فى سن ١٣ ــ ١٦ سنة • وبالتالى اذا زاد سن الرجل عن ٢٥ عاما بدون زواج يقال عنه « انه باطل » (عابث) أو « ما فيــه شىء » أى يفتقد القدرة الجنسية • واذا تجاوزت البنت سن العشرين ، تعتبر فى سن العنوسة ويطلق المجتمع القطرى عليها صفة « بايرة » (أى سلعة بلا مشـــتر) • أو « عانس » • أما فى الوقت الحـــالى فان الشاب يتزوج بعد تخرجه من الجامعة فى الغالب (فى سن ٢٥ سنة) • وأصبح سن زواج الفتاة مابين ١٨ ــ ٢٠ سنة تقريبا •

---

(١٤) وسام العثمانى ، مرجع سالف الذكر ، صص ١٧٧ ــ ١٧٨ •

٢ — زواج الأقارب :

كان من النـــادر أن يتزوج الشاب من خارج عائلته ، فان فعل ذلك فعليه تقديم تبرير واضح يجنبه سخط العائلة ولومها • لقد ساد الزواج القرابى فيما قبل وخاصة زواج أبناء العمومة ، حيث لايستطيع الطرفان رفض هذا الزواج ، نزولا على رغبات الآباء ، فاذا عارضت البنت فانها تضرب وتهان وتجبر على اتمام هذا الزواج الذى ترفضه • وتزداد هذه المشكلة حدة فى حالة وجود ابن عم للفتـــاة يستطيع أن « يحيرها » أى يحجزها لنفسه فلا تستطيع الزواج منه أو من غيره من الرجال — حتى فى حالة زواجه هو من امرأة أخرى — فان أرادت الزواج بآخر ، ووافق ابن العم على ذلك ، فانه يطلب « رضوة » (مبلغ من المال للترضية) من هذا الآخر ، لأنه سمح له بالزواج من ابنة عمه[١٥] •

ولايزال المجتمع القطرى يفضل الزواج القرابى حتى الآن ، وخاصة من بين أبناء العمومة ، حيث لايستطيع أى من الطرفين رفض مثل هذا الزواج حتى الآن[١٦] ، مع ملاحظة أن الأمر متروك الآن فى الغالب للبنت،

---

(١٥) نفس المرجع السابق ، ص١٨٢ .وحول الزواج القرابى فى المجتمع البدوى انظر :

د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعيـــة والثقافية للخدمة الصحية ، دار المعرفة الجامعيـــة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، الفصل الرابع ، خاصـــة صفحات ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(١٦) حول هذا الموضوع ، راجع :

د. على المكاوى ، « الثبات والتغير فى العادات والتقاليـــد والمعارف الشعبية مع الاشارة الى مجتمع الخليج » ، بحث مقدم الى ندوة (التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية) المنعقدة بمركز التراث الشعبى لدول الخليج فى الفتـــرة من ١٣ — ١٧ يناير ١٩٨٥ ، الدوحـــة ، صص ١٩ — ٢٥ .

فهى التى تبدى رأيها بالموافقة أو الرفض • كذلك قل زواج كبار السن من فتيات صغيرات بنفس العائلة • ولازال زواج البدل قائما حتى الآن • وفى حالة تقدم شابين لخطبة فتاة ، فان الأمر يترك لها ، ولها هى حرية الاختيار بينهما •

والصفات المطلوبة حاليا فى الفتاة — وخاصة التعليم — دليل على مدى التغير الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع القطرى ، فبدأ يدرك دور المرأة المتعلمة وأهمية التعليم فى تربية الأبناء تربية جيدة ، بالاضافة الى توافر دخل جديد تحققه المرأة المتعلمة حينما تعمل • هذا بعكس شرط التعليم عند الرجل ، حيث يدرك المجتمع القطرى أن الرجل يستطيع بوسائله المختلفة القيام بأعمال متنوعة لتكون مصدرا للدخل الثابت الذى لا يشترط قدرا من التعليم[١٧] •

٣ — الخطوبة :

تسمى الخطبة سواء فى الماضى أو فى الحاضر • وكانت تتم عن طريق احدى صديقات أم الفتى أو معارفها اللائى يترددن كثيرا على معظم بيوت المدينة ، فيرين أكبر عدد من الفتيات ، فتطلب الأم «وساطة» احدى هؤلاء النساء فى خطبة احدى البنات لابنها • واذا كان الزواج قرابيا ، فلا يستدعى هذا الجهد ، وانما يقتصر على زيارة والد الفتى لشقيقه لطلب يد ابنته لابنه • ولم يكن هناك مايسمى « بدبلة الخطوبة » المعروفة حاليا ، الا أن البعض كان يعطى الفتاة خاتما من الذهب هدية لها •

أما الآن فان أهل العروسة أو أهل العريس يقومون بمدح العروسة لأهل الفتى أو له نفسه • كذلك يمكن أن يقوم الشخص الراغب فى الزواج بارشاد عائلته للتقدم لخطبة فتاة تكون له علاقة سابقة بها • وعندما

---

(١٧) الثبات والتغير فى عادات دورة الحياة ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ •

يكون الزواج من نفس العائلة فانه لايتطلب شيئا من ذلك[١٨] • كما أصبحت « دبلة الخطوبة » احدى السمات المميزة لهذه الفترة ، اذ بمجرد الموافقة المبدئية على الزواج ، يتم تحديد موعد « تلبيس الدبلة » •

وهناك بعض التغير فى مقدار مهر العروس ، فهو لم يعد يقل الآن عن مائة ألف ريال قطرى كحد أدنى بسبب الرخاء الاقتصادى نتيجة اكتشاف البترول • ولكن هذا التغير — وهذه الزيادة — ساعد على المغالاة فى المهور ، فصارت هذه الظاهرة عائقا أمام زواج الشباب ، أو تأخرهم فى الزواج • ولهذا تأخر سن الزواج فى المجتمع القطرى بالنسبة للذكور والاناث على السواء •

٤ — حفل الخطوبة :

لم يكن يجرى أى احتفال عند الخطوبة فى الماضى ، لأن كل الاحتفالات كانت تقتصر على فترة مابعد « الملجة » (عقد القران) • وبالتالى لم يكن هناك حفل للخطوبة بالصورة المعروفة فى المجتمعات الأخرى ، وانما توجد فترة بديلة لفترة الخطبة ، تتمثل فى دمج فترة الخطوبة مع فترة عقد القران فى مرحلة واحدة ، حيث يستطيع الرجل أن يرى عروسه بعد الملجة • وتستمر هذه الفترة حتى يتم الزفاف • وهى فترة للتعارف وتقوية الألفة بين العروسين حتى تعتاد الفتاة على الرجل ، وتعرف أخلاقه وطباعه قبل الزفاف • وقد تقام الآن حفلة بعد عقد القران وفى حدود ضيقة تقتصر على أقرب أقارب الطرفين ، على أن يتحمل أهل العروس تكاليفها من الحلويات والعصائر والمأكولات الخفيفة[١٩] • وقد تغنى بعض الأغانى المتداولة والمسجلة على شريط تسجيل ، لاضفاء البهجة على الاحتفال •

---

(١٨) نفس المرجع السابق ، ص ص ١٨٨ — ١٨٩ .
(١٩) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

٥ ـ « الدزة » :

وهى مايعرف بجهاز العروس أو مايسمى « بالشبكة » فى بعض المجتمعات العربية ، ومجتمع مدينة الدوحة حاليا • وتتفق دول الخليج على هذه التسمية ، باعتبارها تعنى « هدية العريس بخلاف المهر المتفق عليه بين الطرفين » • وكانت « الدزة » تتكون من عدة أشياء ـ يقدم منها العريس مايستطيع أن يقدمه لعروسه ـ منها الحلى والمصوغات الذهبية كالعقود (مثل المرتعشة ، المعرى ، المرية) والأساور (مثل حب الهيل ، شميلات ، خصور) علاوة على القبقب ، وحلى تزيين الأنف (مثل أزميم) وحلى اليد (مثل الخواتم ، المحبس ، « مرامى » ، شواهد ، « فتاخ ») والحلى التى توضع على الشعر (الشتوب) ، وعلى الأذن (الشغاب ، « غلاميات ») وعلى الوجه (البرقع الرياسى أو البطولة) •

كذلك كانت الدزة تتضمن أيضا قطع الملابس والعطور و « خرج المطبخ » ، ومبلغا من المال • أما الملابس فهى عبارة عن قماش « كف السبع » و « مسلت » و « البستة » ، و « البريسم » و « الدراريع » أى الفساتين الجاهزة ، وعدة سراويل ، و « بشت » و « ملفع نقده » ومداس زرى[٢٠] •

أما العطور فهى الروائح والأطياب الطبيعية المجلوبة من الهند (مثل « دهن العود » و « دهن الحنة » و « دهن العنبر » و « دهن الورد » و « ودهن الصندل ») •

أما الآن فان الذرة أخذت وضعا مختلفا حيث تسمى « الشبكة » وهى عبارة عن أطقم من الألماظ ودبلة من الماس أو الذهب ، مع ساعة ذهبية وأحيانا مرصعة بالألماظ ، بالاضافة الى ارسال مبلغ من المال تقوم العروس بتجهيز نفسها منه • الا أن البعض لايزال يصر على ارسال

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٢ •

الذرة بمعناها التقليدى بالاضافة الى الشبكة • مع ملاحظة أن الاختلاف يتمثل فى الملابس الحديثة المستوردة من أوربا ، وأشكال الذهب الحديثة والعطور الفرنسية وأدوات المكياج ، بالاضـــافة الى العطور القديمة • وأصبحت تنقل الدزة بالحقائب الحديثة بموكب من السيارات من منزل العريس الى بيت العروس ، كما أنه من المعتاد أن يرسل العريس عددا من الذبائح الى بيت عروسه •

ويقوم العريس بالباس العروس الشبكة خلال احتفال صغير بعد عقد القران ، يحضره المقربون من أهالى العروسين فقط • وقد تحتفظ العروس بها اذا لم توجد مثل هذه الحفلة — الى موعد الزفاف — حيث يقوم العريس بالباسها اياها فى هذه الليلة •

٦ — المهـــر :

كان المهر فى الماضى يدفع بالروبية الهندية السائدة آنذاك فى معظم دول الخليج ، وكان يتراوح بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ روبية كل حسب مقدرته • وكان من المعتاد أن يتفق على مقداره عند « الملجة » ، حيث يقوم المطوع — المأذون — بتسجيل ذلك فى ورقة يكتبها • الا أن البعض قـــد يترك للعريس و « شيمته » ، فلا يذكر حينئذ الا مبلغ رمزى ، أو يكون المبلغ متعارفا عليه فى أوساطهم ، ويرسل مع الذزة[٢١] • أما الآن فيحدد المهر عند الملجة ، مع ملاحظة أن المبلغ المسجل بعقد الزواج غالبا مايكون أقل بكثير من المهر المقدم فعلا لأهل العروس ويتراوح الآن مابين ٥٠ — ١٠٠ ألف ريال قطرى بالنسبة للقطريين ذوى الدخل المتوسط ، ويزداد كثيرا عند العائلات الغنية ، ويقل عند زواج أبناء العمومة أو الخئولة • وتستلم أم العروس هذا المبلغ عادة وتسلمه لها لتجهيز نفسها للزواج • ويدفع

---

(٢١) المرجع السابق ، صص ٢٠٩ — ٢١٠ •

المؤخر أيضا فى شكل عدة ليرات ذهبية تذكر فى العقد • وقد يكتب المؤخر كمبلغ من النقود مرتفع القيمة •

٧ — غرفة الزواج :

وكانت تسمى فى الماضى « الخلة » وهى احدى غرف منزل والد الفتاة • ويقوم العريس وعائلته بشراء كل مايلزم هذه الغرفة • وقبل الزواج بأربعة أيام تستأجر الأم احدى النساء أو الخادمات المتخصصات فى تزيين الغرف ، فتفرشها بالزل — جمع زولية وهى السجادة اليدوية — وبعض «المساند» ، و «النقدة» وهى عامود فى سقف الحجرة من جانبيها يعلق عليه قطعة قماش كبيرة بيضاء اللون متدلية من السقف الى الأرض ، وتعلق بها ملابس من « الزرى » — أى ذات الألوان الذهبية أو الفضية — كما يوضع عامود آخر وسط الحجرة ليقسمها قسمين أحدهما « لفرش العروس » أى فراش الزوجية والآخر للجلوس • وتزين بقية الحجرة « بالمناظر » — المرايا الكبيرة — التى تجلب من الهند أو البحرين • وكان أشهرها « منظرة أبو طاووس » التى تحوى رسما على هيئة الطاووس • ولايرى أحد هذه الخلة الا فى صباحية الزواج حينما يتوافد المهنئون لمباركة الزواج •

وتظل العروس لمدة أسبوع فى هذه « الخلة » ، وبعدها تنتقل الى بيتت زوجها • وهنا تقيم أم العريس وليمة تسمى « الهدية » فالزوجة هدية لأهل البيت •

أما فى الوقت الحالى فان العروس قد تسكن فى بيتها الخاص مباشرة بعد الزواج ، مع احتفاظ البعض بعادة السكن لمدة أسبوع فى بيت الزوجة ، أوأن تسكن مؤقتا فى منزل أهل الزوج حتى يستكمل بيت الزوجية ومن المعتاد الآن أن الدولة تمنح المواطنين أرضا وقرضا للبناء لجميع خريجى الجامعات وأصحاب الدرجات الوظيفية العليا ، بالاضافة الى

ماتوفره من مساكن لذوى الدخل المحدود • والعريس هو المسئول عن تجهيز هذا البيت بالكامل[٢٢] • أما «غرفة الزواج» فانها تكون فى منزل أهلها حيث يراها الجميع عند زفة العروس على عريسها • ومن المتبع الآن أن تطلب الفتاة من زوجها أن يغير لها أثاث البيت بالكامل فى حالة ماإذا كان متزوجا بأخرى قبلها • كذلك لم تعد الفتاة ترضى بالسكن فى منزل أهل الزوج ، وتشترط بيتا خاصا بها بعيدا عن أهله ، لأنه لم يعد مصدر رزق أساسى لأسرته ، لاعتماد الأسرة حاليا على الدولة فيما تقدمه من مخصصات الآباء كراتب التقاعد ، والاعانة المالية من وزارة الشئون ، علاوة على المنازل ذاتها التى تمنح لبعض الأسر القطرية •

٨ — ليلة الحنـــاء :

لم تكن فى الماضى ليلة مخصصـــة للحناء حيث أن العروس لا يكون عندها علم بالزواج أصلا • ولكن قد يقوم البعض بتحنية العروس قبل زواجها بعدة ليـــال ، حيث تقوم العشافة (الماشطة) بتحنيتها فى منزل أهلها بعيدا عن العيون ، ولايوجد لذلك أى نقوط لعدم معرفة أحد بهذه المناسبة ، وقد لاتتحنى العروسة الا بعد زواجها وذلك قبل الذهاب الى بيت أهل زوجها • ومن المعتـــاد — فى ليلة الحناء — أن تضع العروس الحناء دون أى نقوش وتسمى هذه الطريقة « بالطبقة » — أى اطباق اليد كاملة — فتوضع الحنة فى منتصف الكف وتقفل اليد عليها جيدا ، مع وضع بعض الخطوط أو النقط على كف اليدين من الخارج •

اما فى الوقت الحاضر فتوجد ليلة معينة لحناء العروس عند الغالبية، على يد متخصصات قبل العرس بيوم أو يومين • وتقوم النسوة بتحنية العروس لقاء أجر معين وهن غالبا من الهند أو السودان • وتتم بعض الزيجات دون أن تتحنى العروس • وتقوم العـــروس بارتداء ملابس

(٢٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٥ .

خضراء اللون بهذه المناسبة عند كثير من الناس • وبعد الاتصال الثقافى واختلاط المجتمع القطرى بالجاليات الأخرى الوافدة وخاصة من البحرين وايران ، فقد تعود سكان الدوحة على الاحتفال بهذه المناسبة عن طريق الحناء وأمام النـاس ، وكذلك لبس الملابس الخضراء(٢٣) • ويلاحظ أن البعض لايمارس هذه العادة نهائيا لأنها دخيلة وغير مفيدة ، خاصة وأن أدوات التجميل المستوردة تفى بنفس الغرض اليوم •

٩ ـ الملجة (عقد القران) :

لايزال مصطلح الملجة سائدا فى مدينة الدوجة ـ فى الماضى والحاضر ـ وكان المطوع ـ رجل الدين ـ هو الذى يقوم به شفويا دون توثيق أو كتابة • ويكتفى بشهادة الشهود فقط • وعند السـنة ينوب الأب أو وكيل العروس عنها فى حالة وفاة أبيها • أما الشيعـة فيقوم الشيخ ـ رجل الدين ـ بالذهاب الى منزل العريس لأخذ منطوقه ـ أى موافقته ، ثم الى بيت العروس لأخذ منطوقهـا ثم الى منزل العريس مرة أخرى حيث يتم العقـد فى البيت • على حين يفضل السنة العقد فى المسجد أو بيت المطوع • وتقال التهـانى بهذه المناسبة ومنها : « مبروك عليـك الملجة » ، « ياعلة مبارك » ، « منك المال ومنها العيال » ، « ياعل ناصيتها خضرة عليـك » ، « يا عل ناصيتها مباركة » ، « يا علهـا خضرة ماهى بغبرة » ، « ياعلها مرت عمرك ورجل عمرها » ، « مبروك مادبر الله » •

أما الآن فيعقد على العروس بالمحكمة الشرعية فى أماكن مخصصة لذلك وعلى يد مأذون شرعي ، حيث يذهب اليها ولى أمر الفتاة ـ مع اثنين من الشهود ـ لأنه ينوب عنها فى ذلك • وعند الشيعة لاتزال العادة كماهى حيث يشترط الشيخ أن يسمع منطوقها ، بالاضافة الى قراءة « الفال »

---

(٢٣) وسام العثمانى ، المرجع السابق ، صص ٢١ ـ ٢٢٢ •

— أى قراءة الطالع عن طريق الشيخ نفســه لتحديد ساعة وموعد يوم الزفاف بالتحديد الدقيق ، حيث يعتقد هؤلاء أنه لايجوز عقد القران فى بعض الأوقات وذلك ضمانا لاستمرار الحياة الزوجية(٢٤) •

١٠ — حفــل الزفاف :

يسمى هذا الحفل « العرس » سواء فى الماضى أو فى الحاضر • وقد كان يقام فى الماضى فى بيت العروس فى معظــم الحالات ، الا أننا نجده أحيانا مقاما فى بيت العريس • وفى مثل هذه الحالات قد يأخذ الاحتفال شكل « دق الطبــول » ، أو شكل الرزيف « العرضــة » ، وهى رقصة السيوف والبنادق وتخص الرجال •

وفى يوم العرس يخرج العريس ومجموعة من أصدقائه من بيته الى بيت العروس ، وتطلق النيران بمجرد وصول الزفة اعلانا بوصول الموكب ، وتنبيها للنساء ليحتجبن بعيدا عن أعين الرجال • ثم يجلس المعرس بعد ذلك فى الخلة هو وأصــدقاؤه ويشربون القهوة ويتطيبون ، ثم يخرجون ويتركونه منفردا ، فتدخل عليه أقاربه من النساء فقط ليجلسن معه قليلا حتى تزف العروس عليه حينئذ ، وهى جالسة على زولية تحمل العبدات أطرافها وتلبس العروس البطولة والعباءة ، وتوضع بعدها وسط الحجرة وتدعها العبــدات وحدها • ويقوم العريس بصــلاة ركتين على عباءة العروس •

أما فى الوقت الحاضر فقد طرأ التغير على هذه العادات ، فصــار من المعتاد أن يكون هناك عشاء للرجال بأحد الفنادق الكبرى بدون « دق الطبول » الا أن البعض يقيم هذا العشاء فى منزله للرجال بحيث تكون هنــاك وليمة أخرى للنساء بمنزل العروس ، ومدة الاحتفال كما كان فى الماضى ليلة واحدة • كذلك تطلب أسرة العريس من الفنادق أو المطاعم

---

(٢٤) المرجع السابق ، صص ٢٢٣ — ٢٢٤ •

المشهورة بعض المأكولات ، فترسل « السفرجية » لخدمة الضيوف خلال العشاء • واذا أقيم الحفل فى فندق ، فان العروس تجلس فى «الكوشة» على الكرسى قبل دخول العريس ، الذى يأتى فيما بعد — هو وأصدقاؤه — للجلوس بجانبها ، ثم يبارك له أصدقاؤه ويخرجون تاركينه وحده مع بقية المدعوات من النساء لاكمال الحفل(٢٥) • ثم يزف العروسان لبيت الزوجية بالسيارات ، وتبقى المدعوات وحدهن لاكمال الحفلة •

وقد تغيرت ملابس العروس كثيرا عن ذى قبل ، حيث تلبس ملابس الفرح بيضاء اللون مع الطرحة على الرأس والتاج ، وتصنع المكياج والعطور الفرنسية الحديثة ، بالاضافة الى بعض العطور القديمة (الأطباب) • أما العريس فلم تتغير ملابسه عما سبق ، ولكن أضيف اليها فقط العطور الحديثة •

ثالثا : ملامح التغير والثبات فى عادات دورة الحياة المتعلقة بالموت :

الموت نهاية كل حى ، وحقيقة تدور حولها العديد من الممارسات والمعتقدات والعادات • ولعل بداية هذه المرحلة تتمثل فى استعداد الحى للموت الذى يتخذ أشكالا متعددة كأن يواظب الانسان على الصلاة فى أوقاتها فى المسجد ، فى حالة انقطاعه عنها جزئيا أو كليا ، كما يبدأ فى وصل ما انقطع من صلة الرحم ، بالاضافة الى الاحسان والمودة والصدقة والصوم والزكاة والعمرة والحج ••• الخ ليزداد قربا من الله •

وقد كانت الأجيال القديمة تتهافت على شراء وتجهيز الكفن ، بالاضافة الى توصية الأبناء بأمور معينة كبناء المساجد ، وتوزيع الصدقات بعد الموت ، والدفن بجوار أشخاص معينين من الأقارب أو الأصدقاء •

---

(٢٥) وسام العثمانى ، نفس المرجع السابق ، صص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

١ — الوصيــة :

يترك بعض الناس وصايا واجبة التنفيذ بعد موتهم ، وتشتمل فى الغالب على تســديد ديون معينة ، أو اعطاء أحد الأشخاص نصيبا من التركة ، أو التبرع لاحدى الجهات الخيرية ... الخ[٣٦] • وتتخذ الوصية أشكالا مختلفة كالشكل الشفهى لبعض الأقارب أو أصحاب الشــأن ، والشكل المكتوب بشهادة بعض الشهود • ولا حاجة الى اللجوء الى محام لضمان تنفيذ الوصية ، نظرا لوجود العلاقة القرابيـــة والطابع القبلى • ويحرص أهل الميت على تنفيذ وصيته لأنها دين واجب التنفيذ بحذافيره فى حدود ماتسمح به الشريعة الاسلامية ، بالاضافة الى أنها الطلب الأخير فى حياة الميت •

ومن المتبع فى الوقت الحاضر أن يوصى الأشخاص بنفس الوصايا التى كانت سائدة فى الماضى ، مع استبعاد بعض الاستعدادات السابقة كشراء الكفن أو الدفن بجانب أشخاص معينــين ، أو الادلاء بمواصفات معينة للكفن أو عملية الغسل نفسها • وقد قلت استعدادات الأحياء للموت حاليــا ، نظرا لانشغال المجتمع وأفراده بأمور الحياة ، وتكالبهم عليها بعد اكتشاف البترول ، وزيادة الدخل وكثرة المؤسســات التجارية التى نشطت الســوق التجارى فى المدن والقرى • وعلاوة على ذلك انتشرت الخدمات الصحية الحديثة والمؤسسات التعليمية والطبية ، فازداد ايمان المجتمع بقدرة الطب الحديث على العلاج ، وآزر هــذا الاعتقاد ارتفاع مستوى الدخل ، مما يسر للمرضى السفر للعلاج فى أى مستشفى فى أى مكان من العالم •

---

(٣٦) نفس المرجع السابق ، صص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

٢ ــ علامات الموت :

ومن هـــذه العلامات برودة القدم ، وعدم القـــدرة على الحركه والكلام ، وتغير لون العينين ، وصدور أصوات معينة « كالغرغرة » أو « الحشرجة » • ويســـود الاعتقاد قديما فى بعض علامات قرب وفاة أحد الأشخاص كأن تصدر الدجاجة صوتا كصياح الديك (صقيع الدجاجة) ، وصوت الغراب وبكاء الطفل باستمرار ••• الخ • ويتولى كبار السن فى الأسرة تفسير هذه العلامات والاخبار بها •

أما الآن فلا تزال تلك العلامات محل اعتقاد ، مع استثناء الشخص الذى يقوم بهذا التحديد ، حيث يقوم الطبيب حاليـــا بذلك سواء توفى الشخص المريض فى المستشفى ، أو انتقل الطبيب لمنزله ليحرر له شهادة الوفاة • أمابالنسبة للاستجابة لطلبات المحتضر ، فلا ينفذ منها الآن الا الطلبات المعقولة • أما الطلبات المبالغ فيها فلا تنفذ مثل « طلب تزويج فلانة لفلان » •

٣ ــ سلوك الميت والمحيطين به قبيل وبعد الموت :

قد يعترف الشخص المحتضر ببعض أسرار حياته كأن يعترف ببعض الديون ، أو الأمانات التى لم يسلمها لأصحابها ، أو يعترف بزواجه من امرأة أخرى دون علم أحـــد من الأسرة • ويقوم أهل المحتضر بتوجيهه الى القبلة ، حتى اذا ماأسلم الروح ، مات تجاهها • وتقرأ على المحتضر سورة « يس » لتسهيل طلوع الروح • وقد يحاول البعض وضع قطرات من الماء فى فمه « ليبل ريقة » أثناء هذه المرحلة الحرجة[٢٧] • ويعتقد بأنه اذا كان ينتظر عزيزا ، فان طلوع الروح يتأخر لحين عودته من السفر أو الغربة حتى يتمكن من رؤيته ويسلم الروح بعد ذلك مباشرة • ويقال فى هذه الحالة « مأدرى من ينظر » ، (أى لانعلم من ينتظر المحتضر) •

---

(٢٧) وسام العثمانى ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢ •

وعند وقع الوفاة يغطى الميت وتصرخ النساء ثم يدعو الجميع له بالرحمة والمغفرة .

٤ — مكان ومتعلقات الميت :

ان الحجرة التي يتوفى فيها الميت اما أنها تفتح أبوابها لاستقبال العزاء بها بعد اخلائها ، أو أن تقفل مع ايقاد مصباح أو قنديل بها لمدة سبعة أيام متتالية ليلا ونهارا ، وذلك للاعتقاد بأن ذلك سيساعد على انارة قبر الميت . أما بالنسبة لملابسه ومتعلقاته الشخصية ، فانها توزع غالبا على الفقراء ، أو يحتفظ بها البعض للذكرى .

وكان خبر الوفاة قديما ينتشر بسرعة لصغر مساحة مدينة الدوحة وينتقل بواسطة الأشخاص شفاهة . وتزداد مظاهر الحزن فى حالة الشاب الصغير ويقال عنه آنئذ « مات وما شبع من دنياه » .

أما فى الوقت الحاضر فان كثيرا من هـذه المظاهر مازال ساريا ومنتشرا بين الناس وقد تتخذ أشكالا مختلفة . فالأطباء الآن لا يسمحون لأهل المريض — أو المحتضر — بالدخول عليه فى المستشفى . وهناك يموت وليس بجانبه أحـد من أهله . كذلك توضع الجثـة فى « ثلاجة المستشفى » حتى يحضر أهله لأخذه وغسله . كما تضـاء حجرة الميت بالكهرباء الآن — بدلا من القناديل — ويجلس المعزون فى « المجلس » المعد لاستقبال الضيوف فى بيت الميت لتقديم العزاء . وهناك « مجلس » خاص بالنساء الى جانب « مجلس » الرجال . وبالمثل أصبحت أجهـزة الهاتف والبرقيات اللاسـلكية والتليفزيون — أحيـانا — والصـحف والمجلات ، تنقل خبر الوفاة وتنشره بأقصى سرعة .

والواقع أن وجـود « المجالس » المختلفة لاسـتقبال العزاء فى المنازل — بدلا من العزاء فى غرفة الميت نفسها — دليل على بناء وانتشار

الفيلات الحديثة ، والبيوت الكبيرة والواسعة ، وذلك نتيجة لزيادة الدخل القومى والفردى فى قطر بعد اكتشاف البترول[٢٨] ٠

ان معظم العادات القديمة لا تزال مستمرة حتى اليوم ، وخاصة المرتبطة بسلوك الميت قبل وبعد الموت ، مما يدل على تمسك المجتمع القطرى بها لارتباطها بالدين ، مما يجعلها ثابتة لا تتغير الا فى بعض مظاهرها ٠

٥ ــ غسل الميت :

تجهز الأدوات اللازمة للغسل من بيت الميت نفسه ، الا أن الجديد فى هذا الشأن هو أن الكثيرين من الناس اعتادوا أن يغسلوا موتاهم فى المغسل الذى أنشأته الدولة فى بعض المساجد ، أو الملحق بالمقابر الجديدة بمدينة الدوحة[٢٩] ٠ وهذا وضع يفضلونه الآن رهبة من عملية الغسل ذاتها ، بالاضافة الى تواجد كل مستلزمات الغسل فى مكان واحد ٠ كذلك فان تواجد الجاليات العديدة بالمدينة ، وعدم وجود مكان لغسل المتوفى منهم ، شجع على انشاء هذه المغسلة ٠

والأدوات المستخدمة فى الغسل عديدة ومتنوعة ومنها « طشت كبير » ، ابريق ماء ، السدر ، وعاء للسدر ٠ ويهلل الحاضرون ، ويكبرون على الميت ويقرأون عليه آيات من القرآن الكريم ويدعون له ٠ ولا يوضع بماء الغسيل أى نوع من الأطياب المختلفة ، وانما يغسل الميت بالسدر فقط ٠ وغالبا ما يكون الماء دافئا شتاءا ، باردا صيفا[٣٠] ٠

---

(٢٨) نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ٠

(٢٩) وسام العثمانى ، المرجع السابق ، ص ٢٦٨ ٠

(٣٠) نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٥ ٠

٦ ــ الكفن :

ويتكون كفن الرجال من ثلاث قطع تسمى « المدرى » حيث يفرش على الأرض من طبقتين بالطول ويوضع عليه الميت • والقطعة الثانية تسمى « الوزار » (أى الآزار) ويلف النصف الأسفل للميت من السرة الى القدمين ، والثالثة تسمى « الثوب » وهى قطعة قماش من الكفن بها فتحة لدخول الرأس بها ، ثم يلف المدرى على الجسم كله • أما بالنسبة للمرأة فان كفنها يتكون من أربع قطع هى « المدرى » و « الوزار » و « الثوب » و « الملفع » حيث تتبع جميع الخطوات السابقة ، بالاضافة الى أن يلف رأسها بالملفع (وهو غطاء من القماش أسود اللون يشبه الحجاب) ، حيث لا يظهر منه سوى وجهها ، ثم يلف الجسم كله بالمدرى حيث يعقد به عقدتان ، عقدة عند الرأس وأخرى عند القدم •

٧ ــ الدفن :

كان أقارب الميت وجماعته يقومون فى الماضى بحفر القبر فى المقبرة القريبة من حيهم ، أثناء عملية غسل الميت ، حتى اذا ما جاء وقت الدفن ، دفن بلا تأخير • والقبرة عبارة عن حفرة كبيرة ثم حفرة جانبية أخرى داخله ، وهى التى يوضع بها الميت[٣١] وعند الدفن يقف الجميع بخشوع ورهبة ، كما يتلو البعض آيات من القرآن الكريم ، ويدعو نفر ثالث بعض الأدعية التى تخفف عن الميت عذاب القبر وتبشره بالجنة • ويقوم أهل الميت ــ وخاصة المقربين منه ــ باخراجه من النعش لوضع الجثة فى القبر • كما يستطيع أصدقاؤه وأهل الخير المتطوعون المساعدة فى مثل هذه الأعمال •

ويقوم ثلاثة أشخاص من المقربين للميت بحمل الجثة وانزالها بخفة ورفق الى داخل القبر • واذا كان الميت امرأة كان الرجال من

---

(٣١) وسام العثمانى ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

المحارم وتوضع الجثة ممددة الشكل رأسها الى الشمال ووجهها فى اتجاه القبلة ويفك رباط الرأس ليكشف عن وجه الميت • أما المرأة فلابد أن يفك هذا الرباط أحد محارمها ويسند رأس الميت بكومة من التراب أو الطين حتى لا تتدلى رأسه بعد ذلك • ويغلق القبر بعد ذلك بوضع « الفروش » وهى قطعة من أنواع الحجارة الكبيرة تجلب من الجزر القطرية المجاورة لمدينة الدوحة ، لتغطية الحفرة الجانبية التى دفن بها الميت حتى يتم سدها تماما باضافة الطين ، ثم يردم القبر باهالة التراب عليه • أما المرأة فعادة ما تغطى بغطاء خفيف عند انزالها حتى لا يرى وجهها أحد • ثم يتم وضعها فى القبر ، وتسد الفتحة بالفروش وقبل وضع الحجر الأخير ، يتم سحب هذا الغطاء وتسد الفتحة تماما ، ويردم القبر بعد ذلك بالتراب • ومن الممكن أن يشترك الحاضرون فى عملية الردم لكسب الأجر والثواب •

وتوزع الصدقات بعد الدفن على الفقراء والمساكين ، ومن قاموا بالمساعدة منهم • ويرش القبر كله بالماء حتى يبتل كله ، ولا يجوز فتح القبر ونبشه الا للضرورة القصوى (٣٢) •

(٣٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٢ •

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩١/٧٠٩٩

I.S.B.N : 977 - 240 - 028 - 3

مطبعة الفجـر الجديد
٤٤ شـارع الكبارى منشية ناصر ـ بالدراسة